مرمدوك بكثال

مسلم بريطاني

بيتر كلارك

ترجمة

أحمد بن يحيى الغامدي



مرمدوك بكثال: مسلم بريطاني

هذه السيرة رحلة ممتعة، كما كانت القصة الواقعية لبطلها؛ الأديب والكاتب الإنجليزي مرمدوك بكثال. منحنا هذه المتعة المؤلف السيد بيتر كلارك، وهو مغرم بصاحب السيرة، ويشاركه -رغم فارق الزمان- بعض وجوهها، فكلاهما إنكليزي عاش في الشرق وتعلق به، وكلاهما منغمس في الأدب وخاصة الرواية والسرد عن هذا العالم، وكانت حياة بكثال وثقافته ومغامراته غنية ومغرية بالدراسة والتتبع.

تمتع بكثال بعمق ووعي وانفتاح لقلب حيّ خلي من العقد، فأعطاه هذا الشرق أحسن ما فيه، مما ساعده أن يشارك في إدراك كثير من قضايا عصره، ويندمج بنضوج في شؤون العالم الإسلامي وثقافته ويصبح صاحب رؤية وتأثير في عصره، وقد واجه بشجاعة توجهات قومه السياسية والثقافية المتحيزة.

لم يعلم هذا الشاب الذي وقع في سحر كتاب "ألف ليلة وليلة" أن تلك البداية ستجره إلى القرآن ليبلغ الانفعال به تمامه، فيؤمن به، ويترجمه، ويدافع عن أمته، وبعد وفاته كانت زوجته ترتب أوراقه فإذا آخرُ سطر كتبه -كما هو منقوش على شاهد قبره- قوله تعالى: **"بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ"** البقرة، ١١٢.

السعر

10 دولارات - 36 ريالاً قطرياً

ISBN: 978-9927-103-35-3

9 789927 103353

منتدى العلاقات العربية والدولية

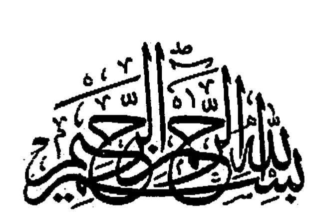
هاتف: 44080451 974+ فاكس: 44080470 974+ صندوق بريد: 12231

الموقع الإلكتروني: fairforum.org البريد الإلكتروني: info@fairforum.org

العنوان: مبنى رقم 28، المؤسسة العامة للحي الثقافي (كتارا)، الدوحة، قطر

مرمدوك بكثال

مسلم بريطاني



مرمدوك بكثال

مسلم بريطاني

تأليف
بيتر كلارك

ترجمة
أحمد بن يحيى الغامدي



عنوان الكتاب بالإنجليزية

Peter Clark, ***Marmaduke Pickthall: British Muslim***,
London: Quartet Books, 1986.

عنوان الكتاب: مرمدوك بكثال: مسلم بريطاني.
تأليف: بيتر كلارك.
ترجمة: أحمد بن يحيى الغامدي.
٢٥٤ صفحة ـ ١٦,٥× ٢٤ سم.
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٢٠١٥/٢٣١.
الرقم الدولي (ردمك): ISBN: 978-9927-103-35-3

الطبعة الأولى ٢٠١٥.

إهداء المؤلف

إلى آن،

التي كانت أول من حدثني عن مرمدوك بكثال،

وإلى فيليكس،

في عيد زواجهما الفضي، ١٩٦١ - ٨٦.

إهداء المترجم

إلى من أنار لي دروب الحياة

وقدّم لي مصباح العلم والمعرفة

إلى روح والدي العزيز

عليه شآبيب رحمة اللّه

المحتويات

قائمة الصور

عن سيرة مرمدوك بكثال

قراءة هذه السيرة رحلة ممتعة، كما كانت القصة الواقعية لبطلها؛ مرمدوك بكثال. منحنا هذه المتعة المؤلف السيد بيتر كلارك، وهو مغرم بصاحب السيرة، ويشاركه ـ رغم فارق الزمان ـ بعض وجوهها، فكلاهما إنكليزي تعلق بالشرق وعاش فيه، وكلاهما منغمس في الأدب وخاصة الرواية والسرد عن هذه الأقاليم، وكانت حياة بكثال وثقافته ومغامراته غنية ومغرية، ولذا؛ فربما رأى فيها المؤلف من المتعة والتجربة والاندماج مع وفي الشرق ما لم يظفر به. فكانت سيرة بكثال أشبه بسيرة متمناة أو نموذجية ربما يسقطها كاتب السيرة على الشخصية المكتوب عنها؛ فبكثال ولد في بريطانيا عام ١٨٧٥م وجاء للشرق مبكرا في حياته وهو مراهق، والشرق آنذاك كان مختلفا وغريبا في عين زائره، قبل أن يغرق هذا الشرق في وعثاء وتقليد صورة الغرب، وهذا وصف نستعمله هنا تخفيفا من عبارة جلال آل أحمد المشهورة «التسمم بالغرب» وهي عنوان لأحد كتبه، وقد نقل العبارة في هذا السياق بعض من ترجم لبكثال.

عرف بكثال العالم العربي وتركيا صغيرا، وأجاد عددا من لغاته وعاشه بتفاصيله المختلفة، وانتمى لقضاياه الكبرى، وأصبح جزءا من الموقف، وكتب روايات تجاوزت أربع عشرة رواية يحكي معظمها مظاهر وأسرار وغموض هذا العالم، وفنه ومجتمعه ومآسيه ومحاسنه، ويحكي سيرة هؤلاء الإنكليز المجتاحين له في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الذين انفعلوا

وتفاعلوا مع الشرق، فمنهم من كرهه واستعمره ونظر إليه نظرة محتل ومحتقِر لتلك الحضارات الشرقية التي تعالت ثم تهاوت، فكان هذا المراقب المحتل إما شامتا، أو متعاطفا مع بؤساء من بقايا الحضارات، أو حاملا لأثقال الانتقام الغربي من الشرق الذي طالما كان سيدا له أو غازيا أو معلّما في زمن مضى. فبقي مراقبا خارجيا أو محتلا متحكما جافيا جاهلا به، أو رحالة فاتح العين مغلق القلب متلصصا لقومه، ومنهم شخصيات نادرة عرفت الشرق وتعمقت في حياته وثقافته ولغاته وأديانه فأحبته وعاشت قضاياه ونافحت بصدق عنه، ودرسته وشاركت بجد في قضاياه السياسية والفكرية، بل وأخلصت في محاولة معالجة بعض أوجاعه كما فعل بكثال.

شخصية هذه السيرة (بكثال) من علية القوم ـ بحسب الطبقية البريطانية المعروفة ـ كان صنيعة وعيه النافذ ومواهبه المتعددة وقلبه وعقله الطُلعة المستقل، ومزاجه ومغامراته وقناعاته المتمردة على مواضعات مجتمعه، كان ذكياً لمّاحاً ثاقب النظرة حر التفكير، حيث لا حكومات الشرق ولا الغرب استطاعت أن تمارس عليه قسرا فكريا، ولا هو استجاب للأفكار المسبقة. وكانت لديه ـ إلى جانب مغامراته وذكائه البارع ـ مهارات رائعة؛ منها سرعة إجادته للغات الشرقية، والانغماس الجاد في مجتمع الشرق وهمومه، مما آل به إلى أن أعلن في محاضرة عامة في لندن إسلامه، وساق إلى الجمع فكرته ومبررات اعتقاده الجديد.

وإذا تحرر الإنسان من قلقه على الرزق، ومن خوفه من الموت، ومن خضوعه لعادات قومه فإنه يفتح الباب لإنسان جديد، يعيش آفاقا أوسع، وحياة أغنى، إذ لا نكون نسخا مكرورة إلا بمقدار ما نكرر المخاوف والعادات والمعارف نفسها جيلا إثر جيل، وإنما يصبح الإنسان إنسانا مبدعا مستقلا إذا تخلص من هذه المخاوف، وعندها يكون بتحرره ذا قوة وأثر أبقى وأبعد زمانا ومكانا ممن يدور حول ذاته يستعيد ما لا يعيه من ثقافة قومه.

تمتع بكثال بعمق و وعي وانفتاح لقلب حيّ خلي من العقد، فأعطاه هذا الشرق أحسن ما فيه، مما ساعده أن يشارك في إدراك كثير من قضايا

عصره، ويندمج بنضوج في شؤون العالم الإسلامي وثقافته ويصبح صاحب رؤية إسلامية صادقة وحانية، و واجه بشجاعة توجهات قومه السياسية والثقافية المتحيزة. وحاول جهده صرف قومه عن محاربة تركيا، وحثّ وزيّن لقومه طريق التعاون والتفاهم مع العثمانيين لا الحرب، ولكن جشع المستعمر ونيران أحقاد التاريخ كانت غلّابة، وقد كان مرشحا لنفس المنصب الذي تولاه لورنس، ولكن لم يفز بالمنصب بسبب أن القادة الإنجليز لاحظوا تعاطفه مع الأتراك.

بعد اعتناقه للإسلام اجتهد لتوسعة معارفه وآفاقه في قضايا دينه الجديد وأمته الجديدة وأخلص لها، مساهماً في معالجة بعض أمراضها متعلما ومعلما وكاتبا ومترجما بقية حياته. إنه أديب وداعية ورحالة جاس البلدان والأفكار. وعاش حياته كما أحب وكما انتمى، عاش في الشام خاصة دمشق وبيروت والقدس ومصر والهند وتركيا، وترك لنا تراثا فكريا نحتاج اكتشافه، وما هذا الكتاب إلا فاتحة لمعرفة هذه الشخصية الفريدة وجوانب من فكرها.

وقد بلغ في بلده مبلغ كبار الأدباء في شبابه بنتاجه الروائي الكثير والنوعي، وكان أحد كبار الكتاب في مجلة **العصر الجديد** (*The New Age*) وكان يكتب معه فيها أمثال جورج برنارد شو وعزرا باوند وويلز وآخرون من طبقتهم. ونشر عنه بعضهم معجبا بإنتاجه، وكان من زملاء دراسته ونستون تشرشل الذي كان يمتعض بكثال من لسانه المنفلت.

لم تمر روايات بكثال الأولى بسلام، بل أُنتقِد عليه في إحداها شيء من الخلاعة ولامته والدته وبعض أصدقائه لهذا، وسبق أن تورّط فأرسل نسخة منها لأسقف القدس فكرر عليه اللوم، مما جعله يشتري بقية النسخ التي لم تُبع ويعدمها.

بعد معرفة بكثال بأحوال المسلمين لم يتحمل تلك الأناشيد الحربية المثيرة والمعادية للمسلمين وضاق بها، وخاصة تلك القصيدة أو الأنشودة التي رددها أسقف لندن كليفلاند كوكس يهيج فيها «المسيحيين» على الكفار «المسلمين» ويستوحي النفخ في الصور وصيحة الحرب ضدهم، والتي معناها قريب من:

يا صُوَرَ الرب!

أسمع صوتك الصداح:

إلى السلاح! إلى السلاح!

يا أيها الصليب إلى الأمام تقدم؛

والكون كل الكون سوف يعلم

بأس يهوه في القتال

حين يسقط العدو ـ اللعين الهلال

فالله شاء ولا جدال

عاف بكثال دين قومه وتحريض كنائسهم، وهجر الكنيسة في لحظة التحريض، ثم غضب لاحقا من مصادرة تشرشل غير المشروعة لسفينتين تركيتين في بريطانيا كانتا تبنيان في أحواض صناعة السفن، غادر أمة ظالمة لينصر أمة مظلومة، بقناعة وعزيمة ولم يتردد، وبعد إسلامه تفتقت مواهبه الفكرية والسياسية، وارتبط بمبدأ الأخوة الإسلامية الذي أكثر الكتابة والعمل وفقه بقية حياته، كتب كثيرا وأسس مجلات ومدارس ومن مجلاته مجلة **الثقافة الإسلامية** (*Islamic Culture*) وقد كانت منبرا لنضاله بجانب غيرها، ولما كبر عهد بالمجلة إلى محمد أسد في حيدر أباد قبل عودته في أواخر عمره لبريطانيا حيث بدأ سلسلة محاضرات تهتم بالجالية المسلمة ـ القليلة العدد آنذاك ـ في بريطانيا.

لم يعلم هذا الشاب القارئ الذي وقع في سحر كتاب **ألف ليلة وليلة** أن تلك البداية ستجره للقرآن ليبلغ الانفعال به تمامه، فيؤمن به، ويعمل وفق ما فهم منه، وينفق زمنا في ترجمته ويقارن وينتقد الترجمات الأخرى، كترجمة يوسف علي التي رآها «ترجمة غير دقيقة»، وكتب مراجعة لها في مجلته **الثقافة الإسلامية** عدد ١، ص ١٠٠ ـ ١٠٩عام ١٩٢٧م.

بعد تمكن بكثال الكبير من اللغة العربية والمصادر الإسلامية لاحظ حاجة مسلمي الهند وغيرهم لترجمة للقرآن فترجم القرآن بلغة أدبية عالية، واستدرك على ترجمات من سبقه، وقد أدرك أن ترجمته لن يكون لها قبول

كبير ما لم تجد تأييدا من علماء المسلمين، وحينها كان قد ألغي منصب شيخ الإسلام في إسطنبول وكان الأزهر أقرب بديل، فضج بعض علمائه ضد مبدأ الترجمة، ومنهم الشيخ محمد شاكر، الذي كتب في الأهرام معترضا على مبدأ الترجمة، واقترح عليه ترجمة تفسير الطبري بدلا من ذلك. كتب بكثال قصة معركة الترجمة في مجلته وقد جمع عددا من العلماء وتحدث إليهم بالعربية عن ترجمته ليروا تمكنه ويقنعهم بأن العالم من حولهم أصبح يحاصر لغتهم باللغة الإنجليزية ومسلمي العالم لم يعد كثير منهم يقرأ إلا بالإنجليزية، وأصر واستعان عليهم برشيد رضا ـ الذي كان مع الحاضرين ـ حتى استجاب له شيخ الأزهر المراغي، مشيرا أنه إن كان مقتنعا بقوة بصوابه فليمض باسم الله، ولا يلتفت لأحد، وخرجت الترجمة عام ١٩٣٠م وعقبت جريدة تايمس ليتراري سبلمنت على الترجمة بأنها: «إنجاز أدبي عظيم».

عاش مرمدوك أكثر حياته الإسلامية في الهند، وكانت له صداقات كثيرة مع علمائها وعامتها ومثقفيها وسياسييها من المسلمين وغيرهم، وكانت له علاقة بغاندي ـ رثاه غاندي في رسالة لزوجته ـ وقد ترك بكثال حيدر أباد عام ١٩٣٥ وعاد لبلاده، وفيها مات في ١٩ مايو عام ١٩٣٦، وعند تنظيف مكتبه بعد وفاته وجدت زوجته مراجعته لمسودات: محاضرات مدراس نشرت بعنوان: **الجانب الثقافي للإسلام**، وكان آخر سطر كتبه قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة، ١١٢.

ومن العرفان الجميل أن الاهتمام ببكثال لم يزل يتجدد، ففي بريطانيا يُحتفل بذكراه وأعماله في مايو ٢٠١٥ في مدينة براد فورد، وتعاد طباعة بعض رواياته بهذه المناسبة، وكذا مؤلف هذا الكتاب السيد بيتر كلارك عزم على الرحيل إلى حيدر أباد ليقابل بعض أسر وأبناء أصدقاء بكثال هناك، ليتتبع ما بقي له من آثار ثقافية.

المؤلف اهتم ببكثال، وسجل تجربته بأسلوب جميل لم يخل من تقدير موزون وتعاطف وتقدير لتلك الحياة الغربية لرجل من بلاده، واهتم أكثر بالإنتاج الأدبي لصاحب السيرة، ربما بسبب غزارة ذلك الإنتاج، فهناك أكثر من أربع

عشرة رواية، ومجموعات من قصص قصيرة، وقد أحسن المؤلف حين خصّص الفصل قبل الأخير للحديث عن تلك الروايات، فكانت كتابته عنها أشبه برواية عن الروايات والراوي.

السيد بيتر كلارك «المؤلف» عاش أيضا حياة الشرق وخبرها وعايشها بحكم وظيفته، وتقلب في مناصب ثقافية ودبلوماسية عديدة لبلاده في المنطقة العربية، وترجم من الأدب العربي إلى اللغة الإنكليزية. ومن هنا كان كلارك يرى نفسه أحيانا في منازل أو قصة الأديب الذي كتب عنه.

أما المترجم فهو مختص بحياة وفكر بكثال، وكنت قابلته منذ أكثر من عشرين عاما وما كنت أعرف اهتماماته حتى جرى نقاش عن ترجمات القرآن فلحظت إلمامه بذلك، وبخاصة حديثه عن ترجمة كلاسيكية للأديب الإنكليزي بكثال، وكان المترجم يتدفق متحدثا عن تلك الترجمة تدفقا ينمُّ عن معرفة راسخة بالموضوع والمترجم بكثال. ثم أهداني رسالته للدكتوراة فإذا هي عن بكثال. قرأت السيرة الموجزة التي كتبها عنه فوجدتها ممتعة، ووددت لو أنه كتب أو ترجم تلك السيرة إلى العربية، ولكنه أفاد بأن الرجل كتبت عنه نصوص عديدة، ولما أهداني السيد كلارك كتابه تذكرت الأستاذ الجامعي الذي قضى ردحا من الزمن مع صاحب السيرة يدرس ويعالج ترجمته للقرآن، فهو إذن أولى بترجمة الكتاب، ويحثت عنه بعد تباعد الأمكنة والسنين فقبل مشكورا أن يترجم الكتاب عن رجل عرفه جيدا، وعاش مع أعماله وكتب عنه من قبل. بدأ بالترجمة وكان يرسل الفصول تباعا، وكنت أجد فيها متعة وانفعالا بالنص، والحق إن الترجمة جاءت جميلة جذابة وأشبه بعمل أدبي جديد.

لعل هذا الجهد يحرك الاهتمام بترجمة بعض أعمال بكثال الأخرى الفكرية والأدبية مثل روايته المهمة **سعيد الصياد أو السماك** ـ وقد وعد الدكتور أحمد بترجمتها، أرجو أن لا يكون ذلك بعيدا ـ وكذا رواياته عن أحوال الشام ومصر خاصة، ففي الملخصات التي قدمها السيد بيتر كلارك ما يغري ويجعلنا نهتم بها، فهي صورة لمجتمعاتنا قبل قرن، كما أن الحاجة تدعو إلى البحث في تراث بكثال الفكري والسياسي فهو يعطي للمعاصرين صورة عن مواقف

وأحداث وأفكار إصلاحية في مرحلة حاسمة منذ قرن، تلك القضايا الفكرية التي شغلت إنسان عالمنا ذلك الزمان. ثم إنه إلى جانب ما تمنحنا كتابات بكثال من المتعة والمعرفة فإن ترجمتها وفاء لمن أحب بلاد العرب والمسلمين وثقافتهم ودان بدينهم. أشكر المؤلف والمترجم اللذين منحانا نصاً لطيفا يستحق الاهتمام.[1]

محمد الأحمري
الدوحة
١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م

(١) بعض معلومات هذه المقدمة تجدها في عدة مصادر غير هذا الكتاب الذي نقدم له، ومن الشبكة ومن مراسلات مختلفة. وهذا أحد المصادر على الشبكة:

http://www.masud.co.uk/ISLAM/bmh/BMM-AHM-pickthall_bio.htm

مقدمة المترجم

بسم اللّه الرحمن الرحيم، وبه نستعين، أما بعد:

بدأت رحلتي مع الكاتب والروائي البريطاني مرمدوك بكثال منذ أن كنت طالبًا بمرحلة الماجستير في الولايات المتحدة الأمريكية، مبتعثًا من جامعة أم القرى لدراسة الماجستير والدكتوراه في تخصص الأدب الإنجليزي. وكان أول معرفتي له كأديب من خلال الروائي الإنجليزي الشهير إي. إم. فورستر، حيث كنا ـ نحن المسلمين ـ نعرف بكثال عبر ترجمته لمعاني القرآن الكريم كأول مسلم لغته الأم اللغة الإنجليزية يقوم بهذا العمل الجبار. ومنذ أن عرفته أديبًا بدأ اهتمامي بدراسة الروايات التي كتبها قبل وبعد إسلامه، وقد كتب رواياته عن المشرق العربي الذي زاره وسافر رحّالًا في أرجائه وعمل به ممثلًا دبلوماسيًا لبلده أوائل القرن العشرين.

وقد بحثت عن كتابات نقدية عنه فلم أجد للأسف الشديد سوى كتاب عن حياته السياسية بعنوان غريب حقًا وهو العدو الوفيّ للكاتبة آن فريمانتل، وقد أخذت العنوان من وصف لبكثال من بعض ساسة بريطانيا آنـذاك. ثم سررت كثيرا للعثور على كتاب السيد بيتر كلارك الذي بين أيدينا، وهو سيرة شاملة وموضوعية عن بكثال الأديب والكاتب المنسيّ. كتاب السيد كلارك هذا شجعني على المضي قدمًا في كتابة أطروحتي للدكتوراه عن بكثال دارسًا التحوّل الموضوعي والعلاقة بين رواياته المشرقية التي كتبها قبل وبعد إسلامه.

والحق يقال إن بكثال ورواياته ليست في مستوى روايات الكتّاب الكبار أمثال تشارلز ديكنز أو فورستر وغيرهم، لكن عُرف كتاب وروائيون كتاباتهم أقل مستوى فنيًّا من روايات بكثال. وقد وجدت أن السبب الرئيس في عدم احتفاء الغرب به وبرواياته وكتاباته الصحفية والفكرية هو أن بكثال أُهمل نتيجة آرائه السياسية والفكرية المخالفة لسياسة بريطانيا وأوربا عمومًا زمن الحرب العالمية الأولى التي أدت إلى سقوط الخلافة العثمانية.

سعدتُ بترجمة هذا الكتاب ووجدتُ في ترجمته متعة لا توصف، رغم صعوبة رغم صعوبة مقاطع وعبارات أشرتُ إلى بعضها في الهامش. وقد اتبعت في ترجمتي أسلوب الكلمة بالكلمة (word for word translation)، وحافظت على ترتيب الجمل والفقرات كما في الأصل أمانةً للنص الأصلي وتسهيلًا للباحث في الرجوع إلى الأصل متى أراد. كما أوردت بعض الملاحظات في هوامش الصفحات، وما اضطررت لإضافته في النص المترجم وضعته بين قوسين. وقد عنّت لي بعض الصعوبات في الترجمة واجتهدت في تقريب المعنى للقارئ وأثبت في الهامش النصَّ الأصلي للعبارات محل النظر لرجوع القارئ إليها وهي قلية جدًا لم تتجاوز ثلاث حالات.

أورد المؤلف حواشي كل فصل مجتمعة في نهاية كتابه، وقد أوردتُها في نهاية كل فصل ونقلتها نصيًا بحسب رغبة المؤلف، وكان هو يفضّل أن تُترك لكي يرجع القارئ إلى نص الكتاب الأصل، ثم ترك لي الخيار في ذلك. وقد ترجمت تعليقات المؤلف المضمّنة في الحواشي باستثناء الهوامش المرجعية. أيضًا أضاف المؤلف ملحقًا مهمًا ضمّن فيه سردًا تاريخيًا موثّقًا لكل ما كتب عن بكثال أوردته كما هو في الأصل.

ولا يفوتني أن أتوجه بجزيل الشكر والتقدير لـ منتدى العلاقات العربية والدولية ممثلًا في مديره العام الدكتور محمد بن حامد الأحمري الذي رشّحني لترجمة هذا الكتاب بالتنسيق مع المؤلف السيد بيتر كلارك، وقد أفدتُ كثيرًا من ملاحظاتهما وآرائهما في الترجمة، لا سيّما أن المؤلف يتقن العربية وله مؤلفات

وترجمات بها. ومما يجدر ذكره أن للمنتدى الحقوق الكاملة والحصرية في طباعة ونشر هذه الترجمة.

وختامًا، أسأل اللّه العلي الكريم أن ينفع بهذا العمل، وأن يجد فيه القارئ الكريم المتعة والفائدة التي وجدتُها ووجدها المؤلف السيد بيتر كلارك من خلال احتفائه وإعجابه الموضوعي الذي لا حدود له، كما ذُكر عنه، بالروائي والكاتب والمفكّر محمد مرمدوك بكثال.

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين.

شكر وتقدير

استفدت من الخدمات الرائعة التي قدمها لي العاملون في المكتبة الوطنية، تونس، ومكتبة جامعة كيمبرج، ومكتبة لندن، ومكتبة كلية الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن.

أدين لأفراد كثر بالشكر على أفكارهم وتشجيعهم وتوصياتهم ومراجعهم ومعلوماتهم، وأود أن أعرب عن امتناني الخاص للأشخاص التالية أسماؤهم: مايكل آدامز من جامعة إكستر؛ والسيد حميد الدين أحمد في كراتشي؛ والسيد مير سادات علي في حيدر آباد؛ والسيدة مارثا أليغون؛ والسيد مشوق عالي من المؤسسة الإسلامية في ليستر؛ والسيدة أماندا أروسميث، مؤرشفة المقاطعة، في مدينة إيبسويتش؛ والسيد محمد أسد؛ والدكتور إس. آر. آشتون من مكتبة مكتب الهند؛ والسيد عناد جي. تشاندفاركر من صندوف النقد الدولي في واشنطن وحيدر آباد؛ والسيدة إيزوبيل كلارك في مدينة بنتلو، مقاطعة إيسكس؛ والسيدة آن فريمانتل في نيويورك؛ والسيد فريد غوفيرنور من جمعية النصوص الإسلامية في كيمبردج؛ والسيد وليم هيل في هيرستبورن بريور؛ والأستاذ الدكتور محمد حميد الله في باريس؛ والسيدة إما هيكس؛ والسيدة لينا هوفمان في دمشق وصنعاء؛ والدكتور ديرك هوبوود من كلية سينت أنتوني في جامعة أكسفورد؛ والسيد جورج قسيس من منظمة "اليونيسيف" في حلب؛ والسيد إم. عبد الكريم ماهر في حيدر آباد؛ والدكتور آر. سي. أوسل من كلية الدراسات الشرقية

والأفريقية في لندن؛ والدكتور روبرت بيسي في تويتتون أول سينتس، لينكنشر؛ والسيد بي. إتش. قريشي في كراتشي؛ والسيد إس. سذيام من وزارة التربية والتعليم في نيو دلهي؛ والسيد عبد الله شليفر من الجامعة الأميركية في القاهرة؛ والقس دي. أون. سيلي في تونس؛ والسيد محمد شفيق الدين في كراتشي؛ والسيدة ميري سنيل من تشيلزفورد؛ والسيد سي. دجي. ستورمان من مدرسة وولبريدج؛ والسيد رايانر إس. أونوين من دار نشر جورج آلن وأنوين؛ والسيد عبد الكريم ونتر.

شكري للجميع، لكني وحدي المسؤول عن أوجه القصور في هذا الكتاب.

امتناني الأكبر لعائلتي المباشرة ـ تيريزا، وبول، وكيت، وغيبرييل، وناثانييل ـ لتحملهم وجود مرمدوك بكثال غير المرئي في البيت طوال ثلاث سنوات.

بيتر كلارك

المرسى، تونس، ١٩٨٦

ملاحظة حول أعمال بكثال المنشورة

نشر بكثال باسمه الكتب الثلاثة والعشرين التالية باللغة الإنجليزية، وثمة إشارات مرجعية إلى أعمال أخرى يمكن الاطلاع عليها في البيبليوغرافيا المرفقة في نهاية الكتاب.

١٩٠٠	*ALL FOOLS*	جميعهم حمقى
١٩٠٣	*SAID THE FISHERMAN*	سعيدالسمّاك
١٩٠٤	*ENID*	إنيد
١٩٠٥	*BRENDLE*	برندِل
١٩٠٦	*THE HOUSE OF ISLAM*	دار الإسلام
١٩٠٧	*THE MYOPES*	قصيرو النظر
١٩٠٨	*THE CHILDREN OF THE NILE*	أبناء النيل
١٩٠٩	*THE VALLEY OF THE KINGS*	وادي الملوك
١٩١١	*POT AU FEU*	طبق حار
١٩١٢	*LARKMEADOW*	لاركميدو
١٩١٣	*THE BLACK CRUSADE*	الحملة الصليبية السوداء
١٩١٣	*VEILED WOMEN*	نسوة محجّبات

١٩١٤	*WITH THE TURKS IN WARTIME*	مع الأتراك في زمن الحرب
١٩١٥	*TALES FROM FIVE CHIMNEYS*	قصص من خمس مداخن
١٩١٦	*THE HOUSE OF WAR*	دار الحرب
١٩١٧	*KNIGHTS OF ARABY*	فرسان جزيرة العرب
١٩١٧	*WAR AND RELIGION*	الحرب والدِّين
١٩١٨	*ORIENTAL ENCOUNTERS*	مقابلات شرقية
١٩١٩	*FRIDAY SERMON*	عظة الجمعة
١٩١٩	*SIR LIMPIDUS*	السيد ليمبيدوس
١٩٢٠	*ISLAM AND PROGRESS*	الإسلام والتقدم
١٩٢١	*THE EARLY HOURS*	الضُّحى
١٩٢٢	*AS OTHERS SEE US*	كما يرانا الآخرون
١٩٢٧	*THE CULTURAL SIDE OF ISLAM*	الجانب الثقافي للإسلام
١٩٣٠	*THE MEANING OF THE GLORIOUS KORAN*	معاني القرآن الكريم

كتب بكثال بغزارة للعديد من الدوريات، وقد استخدمت الاختصارات التالية لدى الإشارة إلى أربع منها في الهوامش والبيبليوغرافيا:

- (*IC*) **مجلة الثقافة الإسلامية** الصادرة في حيدر آباد.
- (*IR*) **المجلة الإسلامية** الصادرة في ووكنغ، إنجلترا.
- (*IRMI*) **المجلة الإسلامية والهند الحديثة** الصادرة في وولكنغ، إنجلترا.
- (*NA*) **العصر الجديد** في لندن.

مقدمة المؤلف

حين يُذكر مرمدوك بكثال (Marmaduke Pickthall)، إذا ذُكر أصلًا، فعلى أنه مترجم معاني القرآن الكريم، ولكنه كان أيضا روائيًا قال عنه إي. إم. فورستر (E.M. Forster) عام ١٩٢١ إنه «الروائي المعاصر الوحيد الذي يفهم الشرق الأدنى.»[١]

بين عامي ١٩٠٣ و١٩٢١ نشر بكثال تسع روايات جرت أحداثها في سوريا وفلسطين ومصر واليمن وتركيا. كما كتب ست روايات اتخذت من إنجلترا مكانًا لسرد أحداثها، ونشر قصصًا قصيرة مجملها عن الشرق الأدنى نشرت في ثلاث مجموعات قصصية.

وبالإضافة إلى كتاباته القصصية، كرّس بكثال وقته بعد اعتناقه الإسلام عام ١٩١٧ للكتابة والحديث عن هذا الدين. في عام ١٩١٩ أصبح إمامًا بالوكالة للجالية المسلمة في لندن لعدة أشهر واعظًا وكاتبًا لكتيّبات (عن الإسلام). قضى آخر خمسة عشر عامًا من عمره في الهند، وكانت المحاضرات التي ألقاها في مدراس عن «الجانب الثقافي للإسلام» قد أعيدت طباعتها في نيو دلهي عام ١٩٨١. نُشرت ترجمته لمعاني القرآن

(١) E.M. Forster, *Abinger Harvest* (Penguin Books, Harmondsworth, 1976 - but first published 1936), p.279.

الكريم لأول مرة في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٠، ومنذ ذلك الحين أعيدت طباعتها مرات عدة في كل من الولايات المتحدة الأمريكية والهند والإمارات العربية المتحدة وليبيا.

كانت حياته وآثاره موضع كتاب عن سيرته كتبتها السيدة آن فريمانتل (Ann Fremantle) عام ١٩٣٨ بعنوان **العدوّ الوفيّ** (*Loyal Enemy*)، ومنذ اكتشافه لا يمكننا إلا إضافة القليل عن حياته. كتابنا هذا ليس سيرة أخرى عن بكثال، ولكنه دراسة فاحصة لكتاباته وأفكاره. لم يكن لبكثال شيخ ولا تلاميذ، ولعل هذا ما يفسر إلى حدٍ ما السبب في إهمال ذكره. كما لم يكن جزءًا في حركةٍ ما ولكنه كان ملاحِظًا أمينًا مستبصرًا، ومحاورًا مبينًا ضليعًا. قد يخطئ في بعض أحكامه أخطاء فظيعة، لكن فهمه لم يكن ليتأثر سلبًا بنجاحه أو رضاه عن نفسه أو إعجابه بها. ولأنه كان فردانيًا، فإن كتاباته لم تخضع لعصرها الذي كتبت فيه، وبعد سبعين سنة من نشرها ربما تساعد في فهم عالَم الإسلام.

عن ذلك العالَم أعلن أنه تتيّم به منذ شبابه وأنه تغلغل فيه بادئ ذي بدء من خلال اعتناقه الإسلام، وبعد ذلك من خلال إقامته وعمله في الهند، ليس كجزء من الوجود الاستعماري البريطاني ولكن من خلال عمله لدى الهنود، وأخيرًا عندما أحيل على المعاش في دولة نظام المُلك في حيدر أباد.

ومما أثار شدة الإعجاب بأفكار بكثال حقيقة أن مجمل آرائه تنبذ التصنيف. كان مواليًا للنظام الملكي وفي الآن ذاته مؤمنا بتداول السلطة على أوسع نطاق ممكن. كان ناقدًا للهيمنة الاستعمارية البريطانية في الهند، ومؤيدًا لها في مصر. كان إنكليزيا وطنيًا في حزب المحافظين في بريطانيا ومعارضا للحرب بين بريطانيا والإمبراطورية العثمانية، وبهذا أصبح منبوذًا من أبناء وطنه. كان رجلًا منفتحًا وماسونيًا أيضًا. لقد جمع بين اللطف في علاقاته الشخصية والصرامة في القضايا العامة المثيرة للجدل.

كان بكثال مسيحيًا ملتزمًا لمدة عشرين عامًا من حياته الراشدة، وبالمقابل أمضى آخر عشرين سنة من عمره مسلمًا واعيًا. أيُّ داعية نصراني يرى أن هذا التقدم الروحي لبكثال إنما هو لروح حلّت عليها اللعنة. بينما يرى المسلم أن اعتناقه للإسلام هو بمثابة خروجه إلى النور. هدفي هنا وصف هذه التجربة بشيء من التعاطف بعيدًا عن أي تهليل أو استهجان مذهبي. الفصول الأربعة الأولى موضوعية وتتبع ترتيبًا زمنيًا تقريبيا. عرَض الفصل الأول خلفية بكثال الثقافية ومهنته حتى عام ١٩١٣. أما الفصول الثلاثة اللاحقة كانت موضوعاتها القضايا الثلاث التي شغلت بكثال لفترات متلاحقة وهي: تركيا، والإسلام، والهند. كان المصدر الرئيس لهذه الفصول الثلاثة كتابات بكثال الصحفية، وهي موثقة في قائمة المصادر والمراجع، وتبلغ نحوًا من نصف مليون كلمة.

الفصلان اللاحقان عبارة عن دراسة فاحصة لكتاباته الروائية القصصية. تحوي قصصه القصيرة نماذج ممتازة، بينما تتباين رواياته. كان يكتب بارتياح عندما يكتب عن الشرق الأدنى، ولكن هناك فقرات مستبصرة في رواياته عن إنجلترا. أظهر بكثال بصيرة نافذة في كتاباته عن فقراء مقاطعة إيست آنغليا أواخر القرن التاسع عشر.

ست من رواياته عن الشرق الأدنى تستحق أن يعاد إصدارها وهي: **سعيد السمّاك** (*Saïd the Fisherman*)، **أبناء النيل** (*The Children of the Nile*)، **وادي الملوك** (*The Valley of the Kings*)، **فرسان الجزيرة العربية** (*Knights of Araby*)، **مقابلات شرقية** (*Oriental Encounters*)، **الضُّحى** (*The Early Hours*). جميع هذه الروايات، باستثناء **فرسان الجزيرة العربية**، حدثت وقائعها في ذلك الجزء من الشرق الأدنى الذي يعرفه بكثال جيدًا.

هذه الروايات، بما جاء فيها من وصف مفصل للعادات الشخصية، وأنماط السلوك المتغيرة، وتداول الكلام، والمواقف الاجتماعية والوصف الجسماني، تشبه ألبومات مصورة لتلك الحقبة من الزمن. تكشف هذه الروايات الكثير مما لا يمكن الوصول إليه عن طريق الدراسة الأكاديمية. لكن، كروائي،

يتبع بكثال إلى حد بعيد التقليد البريطاني في كتابة الرواية. فأفضل روايات بكثال عن الشرق الأدنى تحوي إطناب السير وولتر سكوت، وجزالة تشارلز ديكنز، والقوة الأخلاقية لـ جورج إليوت، والمأساة الشفوقة لـ توماس هاردي، وعالمية إي إم فورستر.

لست أزعم أن بكثال يرقى إلى عظمة أي من هؤلاء الروائيين، بل إن كتاباته تأثرت بوضوح بالإرث الأدبي الذي أسهم فيه هؤلاء. غير أن ما يجعل رواية **فرسان الجزيرة العربية** ورواية **الضُّحى** فريدتين، وهما من آخر ما كتب، أننا أمام روائي ناضج وضليع يكتب الرواية الإنجليزية الإسلامية.

الجزء الأول

١
وصول كاتب

«إنجليزي حتى النخاع، من مقاطعة
إيست آنغليا»

لاركميدو

ولد مرمدوك وليام بكثال في مدينة كيمبريدج تِرَس قرب لندن في ٤ إبريل عام ١٨٧٥. وهو ابن السيدة ماري أوبراين التي عاشت خلال الفترة (١٨٣٦ ـ ١٩٠٤) والقس تشارلز غرايسن بكثال (١٨٢٢ ـ ١٨٨٨). ينحدر نسب بكثال إلى جهة والده من أسرة من مقاطعة كمبرلاند. تلقى والده تعليمه في كل من إمبلتون، وبكنغهامشير، وكلية السيد المسيح (كرايست كولج) بكيمبريدج. كان والد بكثال مساعدًا لأبيه القسيس مدة خمس سنوات في أبرشية بروكسبورن بمقاطعة هرتفوردشير حيث تزوج السيدة إلِن كريستي عام ١٨٥٦، وهي من أسرة ميسورة الحال من هوديسدن وتعمل في إنتاج النبيذ.في عام ١٨٥٧ اشترى والدا زوجة تشارلز مسكنًا لهم في تشيلزفورد الواقعة بين وودبردج وساحل سَفُك، وفي هذا المنزل كان للزوجين عشرة من الأبناء عاشوا فيه حتى وفاة والدتهم السيدة إلن عام ١٨٧٠. في شهر إبريل من عام ١٨٧٤ تزوج السيد تشارلز من أرملة، وهي السيدة ماري هَيل، في كنيسة أوول سينتس بميدان نورفوك في لندن.

كانت السيدة ماري هَيل ابنة بحارٍ مفعم بالحيوية، اسمه دونات هنشي أوبراين (١٧٨٥ ـ ١٨٥٧). التحق دونات بالبحرية عام ١٧٩٦، وخلال الحرب مع فرنسا وقع في الأسر بعد غرق سفينته قرب نورماندي، ثم تمكن من الهرب من قلعة فيردن ومشى سيرًا على الأقدام عبر شمال فرنسا حتى وصل الشاطئ. وعندما لم يتمكن من العثور على قارب ينجو به، أعيد اعتقاله ووضع في سجن بيتشِه الحربي، قرب ساريومي، وهو أسوأ سجن لأسرى الحرب في فرنسا. وهنا تمكن من الإفلات من معتقِليه وهرب عبر جسر الراين في كييل مختبئًا وزاحفًا بين قطيع مواش صاخب.

وأخيرًا، بعد عدة مغامرات، تم إلقاء القبض عليه للمرة الثالثة وأعيد إلى سجن بيتشه مكبلًا بقيود ثقيلة. خلال وجوده في فرنسا أتقن اللغة الفرنسية بطلاقة كبيرة مكنته من التخفي كشخص ما بين نورماندي وألزاسي، وقد ورث حفيده (مرمدوك بكثال) براعته في تعلم اللغات. كتب أوبراين قصة مرحة ومقروءة عن مرّات اعتقاله وهروبه بعنوان: **مغامراتي خلال الحرب الأخيرة، وتتضمن قصة غرق سفينة، وأسر، وهروب من سجون فرنسية وغير ذلك، من عام ١٨٠٤ وحتى ١٨٢٧** (*My Adventures during the Late War, comprising a Narrative of Shipwreck, Captivity, Escapes from French Prisons etc from 1804 to 1827*). نُشرت هذه المغامرات عام ١٨٣٩ وأعقبها نشر نسخة مختصرة عام ١٩٠٢، حررها الكاتب تشارلز أومان. اختلس الكاتب فردريك ماريات حكاية أوبراين وضمّنها روايته المعنونة بيتر سمبل (*Peter Simple*). ترقى أوبراين في خدمته العسكرية حتى وصل رتبة لواء بحري، وتزوج متأخرًا في حياته حتى إن ابنته الصغرى ولدت وهو في الخمسينيات من عمره.

كان الزواج الأول للسيدة ماري هَيل عام ١٨٥٩ من السيد ويليام بالمر هَيل (١٨٢٤ ـ ١٨٧١)، وهو محامٍ نشر دواوينَ شعريةً قصيرة. ولم ينجب الزوجان خلال زواجهما الذي استمرّ اثني عشر عامًا.

ولد مرمدوك بكثال بعد سنة واحدة فقط من زواج والديه. وبعد سنة أخرى أنجبا ابنًا آخر اسمه رودولف جورج، وكان يُعرف في العائلة باسم بوب.

أسرة مرمدوك بكثال من الطبقة الوسطى العاملة وهم راضون ومرتاحون (ماديًا)، ومع ذلك، هذه الراحة المرتبطة بحرفة تصنيع النبيذ لم تنتشر كثيرًا بين الأبناء الاثني عشر. أمضى مرمدوك بكثال السنوات الأولى من عمره في منزل كاهن أبرشية تِشيلزفورد ذي العشر غرف. كانت والدة بكثال سيدةً مستقلة الفكر من جميع الجوانب. وقد عُرف عنها عدم اكتراثها بمظهرها مما أثار استياء أبناء زوجها. كان للقس تشارلز تأثير واضح على القرية الصغيرة التي تقع بين ساحل وغابات مدينة سَفُك. في عام ١٨٦٠ قام تشارلز بتمويل إعادة بناء الكنيسة، وبناء مدرسة وساهم في دفع رواتب لمديرة المدرسة. بُنيت النافذة الغربية تخليدًا لذكراه، وكثير من أثاث الكنيسة الحالي يعود إلى تاريخ توليه منصب كاهن الكنيسة.

على الرغم من إقامة مرمدوك بكثال في تِشيلزفورد للخمس سنوات الأولى من حياته، إلا إنه كان يشعر أن جذوره الإنجليزية تعود إلى سَفُك أكثر من أي مكان آخر. كان لديه شعور بالحنين لمنظر «أركيديا» ريفية آفلة: كان مالك الأرض والكاهن والفلاحون جميعهم يسند بعضهم بعضًا ضد الغزو الثقافي والاقتصادي القادم من المدن. أحب بكثال ودرس لهجة أهل سَفُك الريفيين، وكتب ثلاث روايات وقصصًا قصيرة كثيرة تدور أحداثها في سَفُك الشرقية.[١]

---

(١) In addition to Anne Fremantle, *Loyal Enemy* (Hutchinson, London, 1938), pp.5-16, the previous paragraphs are also based on G. Pickthall 'Chillesford' in Arthur Snell (ed.), *Handbook and Guide to the Parishes of Butley, Chillesford and Wantisden in the County of Suffolk* (The Wykeham Press, Winchester, n.. (c. 1950)), pp ..18-20; Roy Tricker, *St Peter's Church, Chillesford, Suffolk. History and Guide* (2nd edition) (Ipswich, 1983); church monuments at Broxbourne, Hertfordshire, and Chillesford Suffolk; interviews with Mrs. Mary Snell, Chillesford, 20 September 1984 and with Dr. Robert Pacey, Toynton All Saints, Lincolnshire, 15 June 1985; letters to the author from Mr. William Hale, 28 March 1984, from Mrs. Mary Snell, 27 September 1984, and Amanda J.E. Arrowsmith, County Archivist, Ipswich, 2 October 1984

بالإضافة إلى كتاب آن فريمانتل المعنون العدو الوفيّ (المنشور في لندن عام ١٩٣٨)، ص٥ ـ ١٦، فإن الفقرات السابقة مبنية أيضًا على فصل بعنوان «تشيلسفورد» في الكتاب الذي قام على تحريره آرثر سنل بعنوان كتيّب ودليل الأبرشيات في بلدة بوتلي بمقاطعة تشلسفورد وواتيسدن =

لم يكن مرمدوك طفلًا قوي البنية. تم ختانه لأسباب صحية، ونجا من نزلة صدرية. توفي والده في شهر أكتوبر من عام ١٨٨١، وانقسمت العائلة. انتقلت والدته إلى منزل في ورِك غاردنز بلندن. وتولت رعاية ابنيها الصغيرين بمساعدة أبناء زوجها ومعاش سنوي مقداره ٩٠٠ جنيه.

التحق مرمدوك بمدرسة نهارية في كِنزنغتون، وعُرف عنه ذاكرته القوية وبراعته في العمليات الحسابية الذهنية. لكن تعرّضه لحُمّى دماغية وهو في سن الثامنة أعاق مسيرته وتسبب على مايبدو في تلف قدرته الحسابية. بعد ذلك تم إرساله إلى تشيلزفورد عند خليفة والده، القس بوفوي جيْمز سِنت باتريك الذي أعطاه دروسًا في الأعمال الأدبية الكلاسيكية وأثار فيه حب علم الفلك والزهور البرية.

انتقلت والدته السيدة بكثال إلى حي هارو (شرق لندن)، وفيها التحق مرمدوك بمدرسة هارو في شهر يناير عام ١٨٨٩. وفي شهر إبريل من نفس العام انضم إليه شقيقه، بوب، في نفس المدرسة. لم يكن مرمدوك راضيًا عن المدرسة وتركها بعد ستة فصول. كان جيدًا في الجغرافيا وفي اللغات، ومحبًا للترانيم في الكنيسة، كما كان يستمتع بلعب الكريكيت. كان ضمن المتطوعين وتواقًا للالتحاق بأكاديمية ووليتش العسكرية ليصبح مهندسًا ملكيًا (ضمن الجيش البريطاني). ولكن كأي صبي في الخامسة عشرة من عمره، كان خجولًا لدرجة متعِبة، وكان يكره الخمول السائد آنذاك كما كان يكره الصخب واللغة البذيئة لدى أقرانه ومنهم إل. إس. آمري وونستون تشرشل. حملت ذكريات بكثال الأخيرة عن أيام شبابه أنها كانت حياة خمول معيب، إذا كان لنا أن نحكم

= بمنطقة سفُك (نشر في وينشستر عام ١٩٥٠) ص١٨ ـ ٢٠؛ وكذلك كتاب كنيسة القديس بيتر بمقاطعة تشلسفورد بمنطقة سفُك: تاريخ ودليل لمؤلفه روي تريكر (نشر عام ١٩٨٣)؛ وكذلك مقابلات شخصية مع السيدة ماري سنيل في ٢٠ سبتمبر ١٩٨٤، ومع الدكتور روبرت بَيّسي في ١٥ يونيه ١٩٨٥؛ ورسائل إلى تلقاها المؤلف من السيد ويليام هَيْل في ٢٨ مارس ١٩٨٤، ومن السيدة ماري سنيل في ٢٧ سبتمبر ١٩٨٤، والآنسة أماندا آروسميث، مؤرشفة المقاطعة، إيبسويتش في ٢ اكتوبر ١٩٨٤

من خلال روايته السيد ليمبيدوس (*Sir Limpidus*) التي حوت فصولًا عن دراسته في مدرسة هارو.

ترك مرمدوك مدرسة هارو عام ١٨٩٠ بينما استمر أخوه بوب. اصطحبته والدته إلى أوربا لتحسين قدرته في اللغات، فأتقن اللغة الفرنسية تمامًا في نوشاتَل (بسويسرا)، وعمل على تحسين لغتة الإيطالية في مدينة فلورنسا. عادت الأم وابنها إلى لندن، ووضع مرمدوك في مدرسة خصوصية غرب لندن.[*] أصيب بكثال بما أصبح يعرف في القرن التالي باسم انهيار عصبي، تبعه تدريب خاص في مدرسة تونبريدج، ويقين أن عدم كفاءته في الرياضيات منعته من أن يصبح عضوا في سلاح المهندسين الملكي.

ولهذا وجد بكثال نفسه طالبًا مقيمًا بمدرسة سِنْت كاثرين ببلدة بروكسبورن، حيث قام القس إتش. بي. وولر بتدريبه لاجتياز امتحانات دخول الخدمة القنصلية لمنطقة بلاد الشام. في عام ١٨٩٢ تقريبًا، أصبح مرشحًا للخدمة في إحدى وظيفتين شاغرتين في الخدمة القنصلية، لكن تعليمه المتقطّع والمتغيّر كانت له ضريبته. فقد تضمّن الاختبار أجزاء في الرياضيات والإنشاء باللغتين اللاتينية والإنجليزية بالإضافة إلى أربع لغات حديثة.[1] وعلى الرغم من أن بكثال حاز المركز الأول في اختبار اللغات، إلا أنه كان السابع في القائمة.

خاب أمل بكثال في سعيه لمهنتين مناسبتين، ووجد نفسه في طريق مسدود نوعًا ما. لكن أحد قرابة زوج أمه الأول كان له صديق، وهو توماس داولنج، وكان على وشك الذهاب لفلسطين ليعمل قسيسًا لدى الأسقف جي. إف. بي. بلايث، وهو الأسقف الأنجليكاني الرابع للقدس. خيّرت السيدة بكثال ابنها مرمدوك بين العودة لمرافقة أخيه بوب في مدرسة هارو ثم الالتحاق بجامعة

(*) (Crammer school) مدرسة خصوصية اشتق اسمها من «حشو» (cram) رؤوس الطلاب بمعلومات كثيرة وغير مفيدة عمليًا. وقد اعتمد بكثال على تجربته هذه في كتابة روايته جميع الحمقى. (م)

(١) D.C.M. Platt, *The Cinderella Service: British Consuls since 1825* (Longmans, London, 1971), p.166

أكسفورد أو الذهاب إلى فلسطين برفقة داولنج. يتذكر بكثال فيما بعد أنه كان يعتبر نفسه «فاشلًا تمامًا وأنه محبط جدًا.» قبل بكثال خيار والدته الثاني الأكثر مغامرة، وبدأ تهيئة قلبه لرومانسية «شمس المشرق، وأشجار النخيل، والجِمال، ورمال الصحراء كجنة فقدتُها بسبب جوانب الضعف لديّ.»[١]

أثناء جمع الأموال لتغطية تكاليف رحلته، اعتقدت والدته وعائلته أن تعلّم بكثال للغات الشرق يمكن أن يشكل طريقًا آخر لانضمامه إلى الخدمة في وزارة الخارجية. بدأ رحلته متجهًا إلى ميناء مارسيليا، ثم أبحر إلى نابلس وعبر البحر الأبيض المتوسط إلى ميناء بور سعيد. وسرعان ما فقد طموح بكثال السابق، سواءً كان من تلقاء نفسه أو أُريد له، «بريقه الذي كان له في بلده.»[٢] قضى أسابيع قليلة في القاهرة، وتجول في أحيائها الفقيرة وشعر بكثير من التعاطف نحو أهلها وبدأ تعلّم اللغة العربية.

ذهب بكثال إلى مدينة يافا وأقام في فندق [غستهاوس] في الحيّ الألماني،الذي وجده مملًا إلى أن زاره القس جَي. إي. هانوير (J.E. Hanauer). كان هانوير كاهنًا وُلد في القدس، وكان له تأثير كبير على بكثال في بداية نضجه. أتقن هانوير العربية وكان مترجمًا للسير تشارلز وارن حينما كان وارن مسؤولًا عن البعثة العلمية الأولى للتنقيب عن الآثار في القدس القديمة خلال الفترة من ١٨٦٧ ـ ١٨٧٠ برعاية صندوق اكتشاف فلسطين (Palestine Exploration Fund). أحب هانوير فلسطين وأعطى بكثال دروسًا في اللغة العربية. كما جمع بعض الحكايات وقصص الموروث الشعبي وساعد بكثال في إدراك الأساس الفكري الذي قامت عليه، وبدون ذلك لم يكن لبكثال فهم المعتقدات والممارسات الغريبة عنه.

تعرّف بكثال على شخص آخر يقيم في نفس الفندق واسمه سليمان، وهو مرشد سياحي متقاعد مرح وأديب أيضًا. قال عنه بكثال بعد عشرين عاما من التعرّف عليه: «ساعَدني على خلع (شخصيتي)

---

(١) *Oriental Encounters*, p.1

(٢) Ibid., p.2

الأوربية والانغماس في نمط الحياة المحلي. ركبتُ معه عبر سهل شارون وكنا نقيم مع الفلاحين ونجلس في مقاهي مدن الرملة واللدّ وغزّة حيث كنا نقابل كل الناس على اختلاف مشاربهم، ونكتسب اللغة الدارجة دون عناء، كما لو كانت متعة.»(١)

سافر الاثنان شمالًا إلى مدينة الكرمل وشرقًا إلى «يهودا» (جنوب فلسطين). وقد «اعتادا دخول الحمامات التركية، وتناول الطعام المحلي، والنوم في منازل الناس المحليين ـ متّبعين عادات أهل البلد في كل شيء. لقد كنتُ مندهشًا للارتياح الفوري الذي وجدتُه في هذه الحياة. لم أرَ خلال سنوات حياتي أناسًا سعداء كهؤلاء. كانوا سعداء حقًا.»(٢)

قام سليمان بتعريف بكثال على عائلة بلادنزبرجر (Bladensperger) الذين قدموا لفلسطين عام ١٨٤٨ من بلدة بالدنهايم بمنطقة الألزاس (شمال شرق فرنسا) كمبشرين. أقامت هذه العائلة في فلسطين وأصبحوا روّادًا في تربية النحل. سافر بكثال مع بعض أفراد العائلة إلى مدينتي عسقلان والخليل. ومثل السيد هانوير، كان الزوجان بلادنزبرجر عالِمَيْن مهتمين بلغة ومعتقدات الفلسطينيين المعاصرين. كان على بكثال مراجعة مجموعة قصصية عن فلسطين كتبها فيليب بلادنزبرجر بعنوان الشرق غير المتحوّل (*The Immoveable East*) لنشرها في مجلة أثينيوم (*Athenaeum*) عام ١٩١٣.

بعد عدة أشهر من التجوال هذا، عاد بكثال إلى القدس وقال: «عدتُ إلى القدس واستفدت من معارفي. كان نصف ثيابي من الملابس المحلية وكنت محبًا للعرب، وأُفهمتُ أن هذا (السلوك) غير لائق.»(٣) أمضى بكثال فصل الشتاء في القدس، يعاني النصائح المتعالية من المغتربين البريطانيين المقيمين منذ فترة طويلة. لكن في عام ١٨٩٥ عاد سليمان واستأجرا حصانين وبغالًا واتجها شَمالًا صوب مدينة صور. هناك تركه سليمان ليلحق بأهله، وبعد فترة وجيزة

---

(١) Ibid., p.4

(٢) Ibid., p.5

(٣) Ibid., p.7

قابل بكثال جنديًا عثمانيًا اسمه راشد. أقنع راشد بكثال أن يدفع له المال لقاء تسريحه من الجيش كي يصبح خادمًا له.

أمضى بكثال ثمانية أشهر، بصحبة راشد كدليل خبير واسع الحيلة، متجولًا في فلسطين ولبنان وسوريا. أقام بكثال في عين عنوب، وهي قرية درزية تطل على بيروت كانت مقرًا لإقامة القس دبليو إتش كيلك (Reverend W.H. Kelk)، خَلَف القس داولنج. تحدّث خادم كيلك الدرزي إلى بكثال عن الحرب الأهلية التي اندلعت عام ١٨٦٠ بين الدروز والمسيحيين في جبال لبنان وفي دمشق. ذهب بكثال في جولة إلى القنيطرة الشركسية، ومنها إلى جبل الشيخ، ومن ثمّ إلى مؤاب (بالأردن) فإمارة شرق الأردن، وقفل راجعًا بعد ذلك إلى فلسطين والجليل، واتجه شمالًا مرة أخرى إلى عين عنوب.

سافر بكثال أيضًا إلى قرى الدروز ومن ثمّ إلى مدينتي حمص وحماة. استقل القطار من عين عنوب ـ أو من محطة القطار بـ عالية ـ إلى دمشق، «مدينة القلوب الدافئة وآداب السلوك الراقية،»[١] كما وصفها فيما بعد في إحدى قصصه القصيرة. وفي دمشق صرَفه شيخ علماء الجامع الأموي عن رغبته في اعتناق الإسلام. أدرك بكثال لاحقًا، بعدما أسلم، أن تلك الرغبة «كان الباعث عليها الغرام بالمشرق وروعته التي جذبته إليه.»[٢]

تريّث بكثال في إقامته في عين عنوب وأصبح صديقًا للقنصل العام (لبريطانيا) في بيروت، روبرت درَموند ـ هَي (Robert Drummond-Hay). كانت لدى بكثال فكرة شراء مسكن ليقيم في المنطقة وأجرى الترتيبات لشراء منزل تعود ملكيته لزعيم الدروز، نسيب بِك جنبلاط. أتم بكثال الاتفاق مع نسيب بِك ودائنه الأرمني، لكن درَموند ـ هَي تدخّل ومنع إتمام الصفقة. امتزج احترام بكثال للقنصل درَموند ـ هَي، نتيجة لطفه السابق، بالإحباط والمرارة لإثارته الازدراء المتغطرس للمغتربين البريطانيين الآخرين.

---

(١) *Tales from Five Chimneys*, p.30

(٢) Fremantle, pp.81-2

بعد أن أفاق بكثال من صدمة الإحباط، أُصيب بمرض التيفوئيد وتم علاجه بمشفى فرسان القديس يوحنا، وهو مشفى ألماني ببيروت. بعد خروجه من المشفى قضى فترة النقاهة في منزل كيلك في عين عنوب. وردت لوالدته تقارير تفيد تحوّل ابنها لنمط الحياة المحلي، وقامت باستدعائه. لكن قبل مغادرته لبنان، عُرضت عليه وظيفة نائب القنصل بحيفا، عن طريق القنصل درَموند - هَي على الأرجح. إلا أن العرض سُحب بسبب العمر حيث أُكتشف أن بكثال كان عمره بلغ للتّوّ عشرين عامًا فقط.

أبحر إلى سميرنا (إزمير) ومنها سافر برًّا إلى القسطنطينية (اسطنبول) ثمّ عبر دول البلقان ووصل إنجلترا اوائل عام ١٨٩٦.

حددت السنتان اللتان قضاهما بكثال في الخارج مسار حياته. غادر إنجلترا فتى مكتئبًا ومثقلًا بالشعور بالفشل. ورجع رجلًا، ليس واثقًا من نفسه بعد؛ لكن مبتهجًا وبهويّة متميزة. خلال هاتين السنتين أتقن العربية، واستطاع فهم كيف يرى الفقير السوري العالم. ومع سليمان وراشد، كمرشدين، تعلّم بكثال كيف يتسلّى السوريون، وكيف يلبسون ويأكلون وينامون ويقومون بأعمالهم، وكذلك كيف يفكرون. كان بكثال يشاهد ويدوّن ملاحظاته وتأملاته. عند توديعه أهداه معلّمهُ الخاص للغة العربية، وهو مسيحي اسمه قسطنطين، كتابَ ألف ليلة وليلة، وبعد ثلاثين سنة قال بكثال عن الكتاب: «رأيت الحياة اليومية في دمشق والقدس وحلب والقاهرة كما وجدتُها.»[1]

جمع بكثال مخزونًا كبيرًا من الذكريات أصبحت مادةً لأربع روايات ولكثير من قصصه القصيرة. كان يتذكّر الأزهار وعبقها والأصوات وسويعات الغروب. كذلك شخصيات ونفسيات الناس الذين عاش معهم، الناس الذين عجّت بهم رواياته التي جرت أحداثها تحت السماء الصافية، وفي حقول الزيتون ومنازل سوريا ذات الأسطح الحمراء والجدران البيضاء. كانت شخصية الأوربي بشعره الأشقر ووجهه الأحمر وخوذته الثقيلة وضحكاته الصاخبة خارج السياق.

---

(١) *The Cultural Side of Islam*, p.37

وكان السوريون التواقون لتقليد الأوربيين يغرّبون أنفسهم بطريقة سخيفة عن واقعهم الأكثر لطفًا وانسجامًا. تلك هي المواقف التي اكتسبها بكثال خلال تلك السنتين.

أقرّ بكثال في منتصف عمره بأنه ذهل برومانسية وسحر الشرق، وهو موقف لعله كان ليعترف على مضض بأنه موقف عاطفي. ومع هذا فإن تجربته أذهبت شعوره بالاكتئاب ومنحته مخزونا عاطفيًا. شاهد في سوريا مؤاخاةً مع الاختلاف، وابتهاجًا في ظل الشدائد. أدرك أن لم يكن هناك انشغال بالهموم المادية المؤسسية مثل الأجور أو الإيجار. كانت نظرته ساذجة أحيانًا، لكن ذلك الحب وتلك الرغبة والتعاطف مع السوري العادي غير المثير وغير المحتفى به أصبح لاحقا منبع أعمال حياته التخيّلية والتأملية.

وصل بكثال إلى إنجلترا قبل فترة وجيزة من يوم ميلاده الحادي والعشرين. قابل حبيبةً له من قبْلُ وهي ميورل (Muriel) ابنة كادْولادَر سميث (Cadwallader Smith). كان سميث معلّمًا ومفتشًا مدرسيًا سابقًا، وفي عام ١٨٩٦ وظفته مؤسسة للناشرين التربويين لديها. قبل ذلك بأربع سنوات، خطب بكثال ميورل حينما كان يدْرُس في بروكسبورن، وبعد رجوعه الآن وبناءً على طلب والدته، تزوج الاثنان في لندن في شهر سبتمبر. ولمّا كان بكثال مدركًا أن الزواج طقسٌ ديني في المسيحية، صام قبل صباح يوم مراسم الزواج.

كان زواجًا باردًا لكنه كان مليئًا بالحنان. كانت حياتهما دون أطفال وتشكّلت لبكثال آراء كئيبة تجاه الزواج. كان مرتابًا من الحب العاطفي، وبعد أن اعتنق الإسلام - في منتصف حياته الزوجية التي بلغت أربعين عامًا - أعلن مرارًا أن أيًا من الزوجين لا يمكنه، ولا يجب عليه، الاعتماد على الآخر. «الزوجة عابدة حرة للّه، وكذلك زوجها.»[١] إلا أن ميورل ذهبت مع زوجها إلى تركيا ولبنان والهند. كان يراسلها كتابيًا عندما يكون أحدهما بعيدًا عن الآخر، وتبعته إلى الإسلام بعد سنوات قليلة من اعتناقه له،[٢] وكتبَت بعد موته مذكرات

(١) *IRM* I, October 1919, VII, p.380

(٢) *IR*, February 1922, X, p.43

مختصرة عنه في مجلة الثقافة الإسلامية (*Islamic Culture*). انطباعنا أنها كانت زوجة مخلصة غير متذمّرة، متقبّلة بصدر رحب زوجًا ناشطًا في جولاته البدنية والفكرية. لم يكن للزوجين منزل ثابت، وفي إنجلترا سكنا في العديد من المنازل المستأجرة في سَفُك وسَسِكس ولندن.

ذهب العروسان الشابان إلى باريس لأسبوع عسل. صادفت إقامتهما زيارة القيصر، ويتذكّر بكثال أنه «شاهد في شارع ريفولي رايةً مدوّنًا عليها: 'حرية، مساواة، إخاء ـ والقيصر.'»[1] واصل العروسان طريقهما إلى جنيف لقضاء فصل الشتاء. كانت معاناة بكثال من آثار التيفوئيد مستمرة، ونصحه الأطباء بعدم قضاء الشتاء في إنجلترا. كان بكثال مولَعًا بجنيف وبحيرتها وبلداتها الجبلية، وكتب قصصًا قصيرة عن سويسرا. كان مفتونًا بإنجليز الطبقة الوسطى، وبخصامهم، وفرنسيتهم الركيكة، ونظامهم الاجتماعي الطبقي شديد التفصيل والتعقيد. وأحبَّ القرويين السويسريين بحياتهم القائمة على الاستقلال بالنفس والتفكر فيها. وفوق كل شيء، أحبَّ مناظر الجبال، ومشاهدة أنماط الضوء المتغيرة على سطح الماء، وتعلّم التزلّج، والكتابة.

سنوات ما بعد سوريا كانت بمثابة تراجع لوتيرة الأحداث نوعًا ما. حاول بكثال أن يستقر في حياة يكرسها للكتابة، وكانت أولى أعماله المنشورة قصة سويسرية عنوانها بالفرنسية، «السيد الرئيس»، وقد ظهرت في شهر يناير عام ١٨٩٨ تحت اسم مستعار سخيف هو إي. جريك (E. Greck)، في المجلة الأدبية تمبل بار (*Temple Bar*). لم يكن لبكثال وزوجته سكن ثابت حتى نهاية عام ١٨٩٩، وقد أمضى مرمدوك الساعات الطوال متجولًا في شوارع العاصمة لندن خلال شتاء ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨. في الشتاء التالي كان في سويسرا مرةً أخرى، وأقام في جنيف وفي بلدة شامبري. قابل السيدة سْكِين (Mrs Skene)، وهي أرملة قنصل بريطاني كان في حلب عام ١٨٦٠، حينما كان لبنان مضطربًا وكانت أحداث الشغب تمزق دمشق.

---

(١) *NA*, 6 January 1916, XVIII, p.224

كان همّ بكثال الأكبر الكتابة والنشر. أول قصة قصيرة له عن المشرق، «كلمة رجل إنجليزي» («The Word of an Englishman»)، نشرت في مجلة تمبل بار في شهر يوليو عام ١٨٩٨. كانت حكاية بليغة عن قرية غير ودود على ساحل سوريا. كانت القصة في مجملها وفق ما كان منتظرًا من أفضل كتاباته المشرقية: عين على التفاصيل والألوان، وكذلك منظور السوريين والإعجاب بالأسباب البارزة لعدائية القرية السورية تجاه الغرباء. نُشرت هذه القصة الشهر اللاحق في مجلة ليتل ليفنغ إيج (*Littell's Living Age*)، وهي مجلة أدبية أسبوعية تصدر في بوسطن بولاية ماساشوستس الأمريكية.

في عام ١٨٩٩ لم يتمكن الزوجان بكثال حتى من اتخاذ خادم، واقتصر طعامهما على «الخبز والجبن والحليب.»[1] عادت إليهما الرفاهية واستأجرا منزلًا، بخمسة وستين جنيهًا سنويًا، في قرية هولتون (Holton) التي تبعد مِيلًا عن هَيلزورث شمال شرق سَفُك. كان المنزل، واسمه «آش كوتيج» (Ash Cottage) أو «كوخ الرماد»، صغيرًا لكن ألحقت به أرض واسعة مساحتها ثمانية أفدنة، وتتألف من «حديقة خلّابة، وغابة صنوبرية متعرجة، ومرعىً للخيل، وساحة للعربات، ومجموعة صغيرة من المباني الزراعية، وملعب للتنس، وغابة أشجار صنوبر أخرى، ومَرْج جميل ممتدٌّ تقوم عليه طاحونة هوائية رائعة.»[2] أقام بكثال في آش كوتيج خمسة أعوام، ولا يخفى أنه حولها إلى قرية لاركميدو (Larkmeadow) في الرواية التي تحمل اسمها. كان لبكثال دور فاعل في القرية، إذ كان رئيس مجلس الأبرشية، وداعمًا للأنشطة المحلية، فقد أخرج عرضا مسرحيا قدمته القرية لأوبرا ميكادو (*The Mikado*).

خلال أواخر القرن (التاسع عشر) كان بكثال يكتب كتابين في الوقت نفسه ـ وكلاهما مبنيان على تجاربه الذاتية. أراد تسمية أولهما «كتاب الأرنب» («The BunnyBook»)، ولكن أصبح عنوانه جميع الحمقى (*All Fools*)، وهو عبارة عن رواية هزلية مستوحاة من الحياة في مؤسسة تعليم خصوصي في

---

(١) Fremantle, p.108.

(٢) Ibid., p.110

كينزنغتون. أما الكتاب الآخر فكان أكثر جدّية وتأمّلًا وحمل عنوان سعيد السمّاك (*Saïd the Fisherman*).

وفي هولتون أيضًا كتب بكثال روايتين عن سَفُك هما إنيد (*Enid*) وبرندل (*Brendle*).

روايته الأولى جميع الحمقى رفضها ناشران، هما دار (John Lane) و(Fisher Unwin)، قبل أن تقبلها دار (Swan Sonnenschein). صدرت الرواية في شهر مارس عام ١٩٠٠، وطبع منها ستة آلاف نسخة بيعت النسخة بست شِلِنات. بعد نجاح روايته الثانية، سعيد السماك، اشترى بكثال جميع النسخ الباقية من روايته جميع الحمقى وأتلفها وتخلّى عنها، إذ لم يرد ذكر هذه الرواية في المصادر المرجعية التي وافاها بمعلومات عن أعماله.

بعد سنتين وجد بكثال صعوبة في إيجاد ناشر لروايته سعيد السماك، فقد رفضها الناشر (Fisher Unwin) وكذلك دار نشر أمريكية. تمكن وسيط من تسليم الرواية لدار النشر ميثيون (Methuen) في نهاية عام ١٩٠٢ ونُشرت الرواية في شهر يوليو عام ١٩٠٣، وكان ثمن النسخة ست شلنات أيضًا. في بداية شهر أغسطس كتب أي. دجيه. دوسون (A. J. Dawson)، وهو كاتب وروائي، تقريظًا متحمسًا للرواية نُشر في المجلة الأدبية (*Athenaeum*)، حيث شبّه بكثال بالروائي جم موريير (James Morier)، مؤلف رواية حجي بابا الأصفهاني (*Hajji Baba of Asfahan*). «لأكثر من اعتبار، تُعد الرواية كتابًا مرموقًا؛ إذ تنتمي إلى مدرسة روائية قلما تُطرق، وهي واحدة من أفضل الروايات التي مررنا بها لتلك المدرسة الراقية.»[١] الكاتبان جيمز باري (James Barrie) وإتش. دجي. ويلز (H. G. Wells) انضمّا أيضًا إلى تقريظ الرواية. لاحقا في العام نفسه، نُشرت سعيد السماك في الولايات المتحدة الأمريكية، وأعلنت إحدى المجلات الأدبية أنه فيما يتعلق بإنجلترا، فإن مرمدوك بكثال قد «وصل.»[٢]

(١) *Athenaeum*, 1 August 1903, no 3953
(٢) *Critic*, May 1904, p.390

خلال السنوات القليلة اللاحقة كان بكثال ينشر روايةً كل عام. روايته الأولى عن سَفُك، إنيد، نشرتها دار كونستبل (Constable) عام ١٩٠٤. وعلى الرغم من تقريظ مجلة (*Athenaeum*) لها فإنها لم تلق النجاح الذي حققته رواية سعيد السماك. في نهاية عام ١٩٠٥ ترك بكثال آش كوتيج وانتقل إلى فوردنجبردج بمقاطعة هامشير. يبدو أنه كان يعاني من الاكتئاب ربما بسبب الإحباط لفشله في مواصلة الزخم الذي حققته رواية سعيد السماك. كانت والدته أيضًا على فراش الموت بسبب مرض السرطان.

روايته الثانية عن سَفُك، بريندل، صدرت في شهر سبتمبر عام ١٩٠٥ عن دار ميثيون. وبعد نشر الرواية انتقل بكثال إلى لندن واستأجر شقة في حي (Maida Vale) طوال عام ١٩٠٦. وفي شهر سبتمبر عام ١٩٠٦ نُشرت له رواية عن الشرق الأدنى، بعنوان دار الإسلام (*The House of Islam*)، ولكنها كانت خيبة أمل محزنة بعد رواية سعيد السماك، إذ بدا بكثال وكأنه رجل الرواية الواحدة. خلال عام ١٩٠٦، تلقّى بكثال رسالة من شخصية غريبة، الليدي فالدا ماشَل (Lady Valda Machell). عند مولدها كان اسم هذه السيدة (Victoria Alice Leopoldine Ada Gleichen)، وهي ابنة الأمير فيكتور من مقاطعة (Hohenlohe Langenburg) الألمانية. كان زوجها، بيرسي، ضابطًا في الجيش البريطاني في «بعثة جوردون الإغاثية»، وقد التحق بالجيش المصري عام ١٨٨٦، وبعد عشرين سنة من خدمته في مصر عُيّن مستشارًا لوزير الداخلية في القاهرة عام ١٩٠٦. عندما كان بيرسي وزوجته في إجازة، دعت الليدي فالدا بكثال إلى حفلة شاي في قصر سينت جَيمز (بلندن)، نشأت صداقة دافئة بينهم، تبعها دعوتهم بكثال لزيارتهم والإقامة معهم في القاهرة.

لم يعد بكثال إلى الشرق الأدنى طوال عشر سنين، بعد أن ألغى خطّته لزيارة المشرق عام ١٩٠٤ بسبب مرض والدته. في أوائل عام ١٩٠٧ أبحر من مرسيليا إلى الإسكندرية؛ وكانت الأشهر التالية التي قضاها في مصر وسوريا حافزًا جديدًا لإبداعه.

وصل بكثال القاهرة كضيف لمسؤول بريطاني. خلال عام ١٩٠٧ قابل موظفين ومؤيدين للإمبراطورية، ومنهم من أصبح صديقًا له مثل أوبري هربرت وجورج هورنبلور. كما تعرّف على آخرين لا يتفق معهم مثل جورج لويد ومارك سايكس وفالنتاين تشيرول. كان بيرسي ماشَل ابن عم للسيد توماس رسّل (رسّل باشا) حين كان في بداية عمله الذي استمر أربعين سنة في سلك الشرطة.

يتوقع المرء أن يكون بكثال، من خلال تعاطفه مع شعب سوريا ومن خلال مهنته فيما بعد، ناقدًا للحكم البريطاني للمشرقيين. لكن على النقيض من ذلك، كان بكثال ويقي طوال حياته معجبًا كبيرًا باللورد كرومر (Cromer) وعمله. في عام ١٩٠٧، كان كرومر في نهاية حكمه الذي استمر عشرين عامًا كمندوب سامٍ بريطاني في مصر، والذي وصفه بكثال بأنه «حُكْم استبدادي، لكن رحيم وقويم.»[١] زار بكثال كرومر وأشار عليه بأن تكون الإمبراطورية العثمانية ذات صلة وثيقة بالحكم البريطاني. فهذا، برأيه، سيرضي الشعب المصري ويقلّص نفوذ الخديوي. كان جواب كرومر ـ بحسب رواية بكثال بعد وفاة كرومر، «أعتقد أن الأمور ستؤول إلى ذلك.»[٢]

جمع بكثال بين الاحترام لحكم كرومر الصارم والازدراء لشعارات الوطنيين. في السنوات اللاحقة، رأى بكثال كرومر ونفسه شاهدَين على زوال إسلام غابر: «تلك البنية القائمة في البلدان الإسلامية آنذاك، بما فيها الاستبداد والانتهاكات والانحرافات الكثيرة، ولكن مع وجود بعض الصفات البطولية التي جعلتها كريمةً، وبعض الصفات الإسلامية الحق التي جعلتها محببةً»[٣] كان كرومر، كما كتب عنه بكثال عام ١٩٠٤، «جنديًا أصلًا؛ لكنه امتلك فهما للأمور يحسده عليه حتى أذكى السياسيين، إضافة إلى نزعة متأصلة للعمل بأمانة وجد. لم يكن لديه أدنى تظاهر بفهم المصريين، أو استشارتهم، لكنه كان يفعل ما يعتقد هو ومستشاروه أن مصر بحاجة إليه أو أنه لخيرها.» وذلك مردّه أن بكثال

(١) *Athenaeum*, 14 February 1914, no 4503, p.222

(٢) *NA*, 17 April 1919, XXIV, p.390

(٣) *IC*, January 1927, I, p.100

لم يكن يتعاطف مع الأفكار الغربية الحديثة بخصوص الحكم الدستوري، بل كان يفضّل الحكم الاستبدادي العطوف والرحيم والرقيق، ضمن نظام أخلاقي وسياسي. كان كيتشنر (Kitchener) صارما أكثر من اللزوم كمندوب سامٍ قبل عام ١٩١٤. كان تعيينه مثل «تحريك مدفعية ثقيلة ضد فراشات.»(١)

عند وصول بكثال مطلع عام ١٩٠٧، كانت مصر تضج بالحديث عن «حادثة دنشواي.» في شهر يونيه من عام ١٩٠٦ كان بعض ضباط الجيش البريطاني يصيدون الحمام بمحيط قرية دنشواي، الواقعة قرب مدينة طنطا بدلتا النيل. حدث هناك سوء فهم حول ما إذا كان لديهم إذن من سلطات القرية. عندما شاهد القرويون، الذين تعتمد حياتهم بدرجة كبيرة على الحمام، بيدرهم يحترق، أنحوا باللائمة على الضباط وهاجموهم. بدأ إطلاق النار، وقُتل قرويان، وسقط أحد الضباط ميتا. حسب الرواية الرسمية، توفي الضابط بسبب ضربة شمس وارتجاج بالمخ. تم إحضار القرويين وشُكّلت لهم محكمة خاصة أصدرت بحقهم أحكامًا قاسية: تم الحكم على أربعة قرويين بالإعدام شنقًا، وحُكم على اثنين آخرين بالأشغال الشاقة المؤبدة. وأما الآخرون فقد حكم عليهم بالسجن والجلد. وتم تنفيذ أحكام الإعدام والجلد بقرية دنشواي بحضور أهالي القرية.

صُدم الرأي الحر في مصر وبريطانيا. غير أن بكثال لم يشاطرهم الغضب، إذ تقبل قسوة العقوبة باعتبارها إجراءً رادعا. لم يكن مربّو الحمام، حسب دفاع بكثال، أُناسًا لطفاء كما يتوقّع المرء. الحمام يسبّب تلف المحاصيل، ومربّو الحمام «أكثر الناس تمردا وإثارة للمشاكل بين القرويين المصريين.» ظن بكثال أن وصول حكومة ليبرالية إلى الحكم في بريطانيا ـ ديسيمبر عام ١٩٠٥ ـ أدى إلى توقعات باضطرابات يثيرها الوطنيون. «كان معروفًا في مصر أن الحكومات الليبرالية البريطانية تطالب بحركات وطنية؛ ولهذا تم تدشين حركة وطنية على الفور.» جادل بكثال في أن الحكم البريطاني مفيد. «كان جيش الاحتلال يمثل

(١) *NA*, 29 October 1914, XV, p.616

الحكم البريطاني في مصر؛ والحكم البريطاني في مصر مثل آنذاك أشياء لم توجد في البلدان المجاورة ـ أشياء مثل التسامح الديني والأمان الشخصي وبعض المحاولات لتحقيق العدالة المنصفة.» ليس من المبالغة القول إن البزّة العسكرية البريطانية كانت تمثل «الأمان الشخصي لكل مسيحي في مصر. ولو أهينت تلك البزة بعنف مع حصانتها النسبية... فإن تبعات ذلك ستكون أكثر فظاعة بمراحل من عقوبة دنشواي.»[1]

كان لبكثال عقل مستقل إلى درجة لا يمكن التنبؤ به. كان أحيانا واقعيًا وغير عاطفي. لكن موقفه من مصر عام ١٩٠٧ توافق مع موقف المسؤولين البريطانيين ذوي العقلية الاستعمارية في القاهرة. لم تكن رومانسية أو واجبات الإمبراطورية ما شكّل موقفه، بل على الأرجح ذلك التعاطف الواعي مع مصير المصريين العاديين. خلال الأشهر التي قضاها في مصر، تجول بكثال بشكل مكثف في قرى ريف وشمال مصر، وجمع حكايات وانطباعات ومشاهدات كانت مادةً لروايتين، وللعديد من قصصه القصيرة الأكثر إدراكًا. كان على دراية بالهوّة التي تفصل بين الإنجليز والمصريين. كان الإنجليز يمثلون القوة والعدالة. هذان الرمزان كان يجب أن يُعمل بما يمثلانه. ومن ناحية أخرى قاد الرمزان إلى بعض التوقعات، وكانت خيبة الأمل التي تنشأ عن أي منهما تؤدي إلى الإحباط والبحث عن التنفيس في شعارات الوطنيين. اثنتان من قصص بكثال عن مصر تُظهر كيف يتشكل الوطنيون عبر هذه الطريقة.

عندما كان في القاهرة، تلقّى بكثال رسالة من جَي. أي. هانوير، الذي أصبح قسيسًا في دمشق، يدعوه فيها للإقامة معه. قبِل بكثال الدعوة وعمل الاثنان على مجموعة كبيرة من القصص وحكايات الموروث الشعبي التي جمعها القسيس، وأخذها معه بكثال إلى أوربا. قابل زوجته ميورل في مارسيليا، وتجول الاثنان في مدينة كورسيكا وإيطاليا قبل أن يصلا إلى إنجلترا حيث كان بكثال يُعدّ مجموعة هانوير للنشر.

---

(١) *NA*, 26 February 1914, XIV, p.520

صدرت مجموعة هانوير بعنوان حكايات الموروث الشعبي للأرض المقدسة (*Folklore of the Holy Land*)، عن دار نشر «دكوورث» (Duckworth) نهاية عام ١٩٠٧. كتب بكثال مقدمة للمجموعة أبان فيها رغبته في نهج الإخلاص في الأديان الرئيسة في فلسطين، وكذلك الموروث المشترك بين المسيحيين والمسلمين. كان عيسى (ﷺ) وأمه يحظيان بوافر التقدير والاحترام لدى المسلمين، تمامًا كما كان المسيحيون يحترمون الخليفة عمر (رضي الله عنه). وبالرغم من أن المسيحيين بعد الفتح الإسلامي، كما كتب بكثال، قد «حُرموا من أجراس الكنائس، إلا أنهم احتفظوا بكنائسهم؛ ولو اعتنق عدد كبير منهم الإسلام، فإن ذلك كان نتيجة رغبة شخصية (أو قناعة)، ولم يكن بحد السيف كما يُصوّر.»[١] وقد كتب بكثال هوامش عن الروايات التي وقعت في يده. اشتملت مجموعة هانوير القصصية على عدة حكايات استخدمها بكثال في لقاءات مشرقية (*Oriental Encounters*).

لم يكن لبكثال علاقة مستمرة مع ناشر واحد. صدرت رواياته الثلاث الأولى عن ثلاثة ناشرين مختلفين. دار نشر ميثيون (Methuen)، التي أصدرت رواية سعيد السماك أصدرت أيضًا رواية بريندل عام ١٩٠٥، ودار الإسلام (*The House of Islam*) عام ١٩٠٦. وفي شهر نوفمبر عام ١٩٠٧ نشرت رواية قصيرو النظر (*The Myopes*) عن دار جون مري (John Murray)، الذي نشر أيضًا رواياته الثلاث التالية.

فيما بعد، بين عامي ١٩١٢ و١٩١٧، ظهرت ستة كتب لبكثال بواقع كتاب واحد سنويًا، صدر كل منها عن دار نشر مختلفة أيضًا. بعد عام ١٩١٧ فقط، لزم بكثال ناشرًا واحدًا هو وليام كولنز (William Collins)، ورغم ذلك تولت دار آلن وأنون (Allen and Unwin) نشر ترجمة معاني القرآن الكريم (*The Meaning of the Glorious Koran*) في بريطانيا. لاقت روايته قصيرو النظر قبولًا

(١) J.E. Hanauer, *Folklore of the Holy Land* (Duckworth, London, 1907), p.xv

ضعيفًا، لكن بعد عشرة أشهر ظهرت روايته **أبناء النيل** (*The Children of the Nile*) ولاقت قبولا أفضل. زيارة بكثال لمصر على ما يبدو أنعشت إبداعه التخيلي.

في شهر سبتمبر من عام ١٩٠٨، عاد بكثال إلى مصر، مصطحبًا هذه المرة ميورل، وأقاما لدى جورج هورنبلوَر ستة أسابيع. في هذه الأثناء تقاعد كرومر، ولم يكن بكثال معجبًا بتردد خلفه، السير إلدون جورست (Sir Eldon Gorst)، المعتل صحيا. بينما كان بكثال في القاهرة سمع بقيام النمسا بضمّ مقاطعتي البوسنة والهرسك التابعتين للدولة العثمانية. حدث هذا بعد أشهر قليلة من ثورة حزب تركيا الفتاة (Young Turks)، وشاطر بكثال العثمانيين شعورهم بالغدر. لقد وجهت الثورة الإمبراطورية العثمانية إلى النماذج الأوربية. لماذا، إذن، سمحت بقية أوربا للنمسا بضمّ جزءٍ من الإمبراطورية في انتهاك لمعاهدة برلين الموقعة عام ١٨٧٨؟.

في شهر ديسمبر غادر الزوجان بكثال إلى لبنان، وأقاما في البداية لدى أصدقاء إنجليز في بيروت، ثم في فندق، قبل أن يستأجرا منزلًا في جبل لبنان أقاما فيه خمسة أشهر. كانت تلك أطول فترة عاشتها ميورل في الشرق الأدنى. أمضى بكثال وقته في دراسة اللغة العربية مع مدير مدرسة القرية، ومشاهدة الناس، والاستماع لمحادثاتهم وتدوينها على عجل، وتجميع مواد للمزيد من قصصه القصيرة. اصطحب بكثال ميورل معه عدة مرات إلى القدس حيث قابلت مرشده السياحي، سليمان، بعد أن فقد بصره. إقامة بكثال وزوجته في لبنان كلّفَتهما كل مدّخراتهما وعاد الزوجان إلى إنجلترا بعد رحلة إلى دمشق لمقابلة هانوير.

في شهر مايو من عام ١٩٠٩ استأجر الزوجان منزلًا كبيرًا اسمه «المداخن الخمس» (The Five Chimneys) في قرية بكستد بمقاطعة سَسِكس، وأقاما فيه ست سنوات. كان الزوجان يتقنان الرقص الريفي، وقامت ميورل بتدريب القرويين على الرقص. كان للزوجين حديقة كبيرة، وكتب بكثال روايته القصيرة عن فلسطين، **وادي الملوك** (*The Valley of the Kings*)، التي صدرت عن دار مري (Murray) في شهر نوفمبر عام ١٩٠٩.

ظهرت مجموعته القصصية الأولى، بعنوان طبق حار (*Pot au Feu*)،(*) عن دار نشر «مري» في شهر فبراير عام ١٩١١. كما صدرت في شهر أغسطس عام ١٩١٢ روايته الأخيرة عن سَفُك، لاركدميدو (*Larkmeadow*)، وتدور أحداثها حول سنوات إقامته في قرية هولتون. ظهرت أيضا روايته نسوة محجبات (*Veiled Women*)، في شهر يناير عام ١٩١٣، وتصور حياة حريم مصر. بالإضافة إلى كتابة القصص، كان بكثال يكتب مقالاتٍ عن موضوعات الشرق الأدنى لعدة مجلات منذ عام ١٩٠٩. كسب بكثال، من كتاباته، ما يكفيه من المال لقضاء عطلاته بعيدًا عن سسِكس. في شتاء ١٩١١ كان في مقاطعة سينت سيرجي (في سويسرا) للتزلج مع عائلة ماشل. وفي سنوات أخرى كان يمارس رياضة صعود جبال خفيفة في سويسرا، وركوب الدراجة في فرنسا، وقام برحلات أقل إجهادًا في كل من بلجيكا وإيطاليا. كانت حياته عادية.

لكن اهتمامه بالسياسة المشرقية، كما تُظهر كتاباته الصحفية، كان يزداد باطراد. شعر بكثال بالغضب لتعرض تركيا الثورية لهجوم معادي من الدعاية التبشيرية؛ ولأن القوى الأوربية كانت تستغل تركيا. وقد استطاع بكثال جعل الدفاع عن الامبراطورية العثمانية قضية مشتركة لدى نظرائه المهتمين بالشأن العام في بريطانيا، وكان يستقل القطار إلى العاصمة بشكل مستمر، مستفيدا من خدمة القطارات الجيدة بين قرية بكستد ولندن.

قدّم بكثال مقالاته أساسًا إلى مجلتي أثينيوم (*Athenaeum*) ونيو إيج (*The New Age*). المراجعات التي كتبها بكثال لمجلة أثينيوم كانت عادةً عن روايات معاصرة أو كتب عن تركيا وفلسطين ومصر. استعرض كثيرًا من الروايات التي لا تستحق الذكر، بعناوين مثل هل كان كيوبيد مهمًّا؟ (*Did Cupid Count?*) وهالة القداسة المحطمة (*The Broken Halo*). في مراجعاته للكتب عن الشرق الأدنى، كان غالبًا متكلفا في استخدام عربية الرحالة والمستشرقين. انتهز الفرصة للمبالغة في إطراء كتاب هانوير عن الموروث الشعبي لفلسطين. وتناول العديد

(*) اسم طبَق فرنسي مكون من اللحم والخضار والتوابل الحارة اكتسب مع الزمن معنى حسيًا (م).

من الروايات عن الشرق الأدنى، لكن كثيرًا ما كان يرى أن الكاتب لم «يتعمق في فهم عقلية الأهالي»[1] - أي على عكس رواياته هو، وإن لم يقل ذلك. في عام ١٩١٣ كتب استعراضًا لطبعة جديدة من كتاب إي. دبليو. كينغليك (A. W. Kinglake) إيوثن (*Eothen*) الصادر عام ١٨٤٤، ولاحظ بكثال من خلاله «التغيرات الجذرية التي حدثت في حكومة تركيا والحياة الاجتماعية فيها منذ تأليف الكتاب؛ بينما الحياة في مصر، على مستوى السياحة والمستوى الرسمي، بقيت على حالها تقريبًا.»[2]

بدأ بكثال منذ عام ١٩١٢ ارتباطًا بمجلة نيو إيج (العصر الجديد) استمر حتى غادر إنجلترا إلى الهند عام ١٩٢٠. كانت **العصر الجديد** مجلة أسبوعية يرأس تحريرها أي. آر. أوريج (A.R. Orage)، وهو صحافي يتميز بالمهارة والدهاء. كان يقنع كتابًا متمكنين وناجحين أمثال آرنولد بينيت (Arnold Bennett) وجون غولزوورذي (John Glasworthy) بالكتابة للمجلة دون مقابل. أما جورج برنارد شو (George Bernard Shaw) فلم يكتب للمجلة لكنه ساعد في الإبقاء على استقرار وضعها المالي. في الوقت نفسه، نشر أوريج أعمالًا مبكرة لكتّاب شبّان ذاع صيتهم لاحقًا - وهم جي. دي. كول (G.D.H Cole) وسي. إي. إم. جود (C.E.M. Joad) وتي. إي. هلم (T.E. Hulme) وأي. إس. نايل (A.S. Neil) وعزرا باوند (Ezra Pound) وريتشارد آلدنغتون (Richard Aldington) وروث بيتر (Ruth Pitter) وكاثرين مانسفيلد (Katherine Mansfield). سياسيًا، كان خط مجلة **العصر الجديد** راديكاليًا، وحتى اشتراكيًا - كان أوريج آنذاك فابيا(*) يمر بطور خيبة الأمل [المعهود في أوساط اليسار] - لكن المجلة كانت منتدىً لمقاربات مستقلة ومعارضة حول شؤون العالم. كتب بكثال فيها عن «موضوعات مشرقية» وكرّر موضوعاته المؤيدة لتركيا طوال الحرب العالمية الأولى: وهي شهادة بليغة للطبيعة المتسامحة - في هذا السياق - للرقابة البريطانية.

---

(١) *Athenaeum*, 10 September 1910, no 424, p.290

(٢) *Athenaeum*, 11 January 1913, no 4446, p.39

(*) الجمعية الفابية (The Fabian Society) وهي منظمة طوباوية اشتراكية تأسست في بريطانيا عام ١٨٨٤.

كانت مقالات بكثال الأولى في مجلة العصر الجديد عن مصر، لكن في عام ١٩١٢عندما اندلعت حرب دول البلقان مع تركيا، مثيرة مشاعر تعاطف مع بلغاريا وعداء تجاه الإمبراطورية العثمانية والإسلام، بدأ بكثال يبثّ مشاعره الداخلية، تلك المشاعر التي قادته في السنوات القليلة اللاحقة إلى إعلان نفسه مسلمًا.

في شهر نوفمبر من عام ١٩١٢ كتب بكثال سلسلة مقالات تحت عنوان، «الحملة الصليبية السوداء»، نشرتها مطبعة العصر الجديد فيما بعد على شكل كتيّب. في هذه المقالات، أظهر بكثال قوة مشاعره في عرض صوابية تركيا وأخطائها. كما استهجن التعاطف المفترض لمسيحيي أوربا تجاه البلغار والصرب واليونانيين. قد يكون هناك مطالب مشروعة للمسيحيين البلقان، يعترف بكثال، لكن «عندما يسمع المرء (كما سمعتُ مؤخرًا) في كنيسة إنجليزية تشبيه الأتراك بالشيطان، وتقدّم البلغار بتقدم الأرواح المسيحية في مسيرتها الظافرة إلى الفردوس، فلا يمكنه إلا أن يشهق باستغراب.» كان الأمر «كما لو أن الدم المسلم يمكن إراقته بسهولة واستخفاف أكبر (قد لايعبرون عنه بتلك الطريقة، لكن مؤدّاه كذلك).»[١]

في نفس الوقت، كتب بكثال مقالةً أكثر اعتدالًا للمجلة المرموقة القرن التاسع عشر وما بعده (*The Nineteenth Century and After*)، جادل فيها بأن ثمة تقليد تسامح راسخًا في الإمبراطورية العثمانية. «قديما، عاش بسطاء المسلمين والمسيحيين حياة تسودها المساواة، يمازح بعضهم بعضًا بكل أريحية في موضوع الدين، كما تشهد بذلك حتى الآن كثير من دعابات حكايا الموروث الشعبي.»[٢] إنه التدخل الأجنبي ـ المنصّرون والقنصليات ـ في القرن التاسع عشر (وما بعده) التي منحت امتيازات ومنافع للمواطنين المسيحيين، مما أثار استياء المواطنين المسلمين. كما أشار بكثال إلى أن الأتراك عام ١٩٠٨ «وحدهم من بين المحمديين قد خرجوا من العصور الوسطى إلى الحياة

---

(١) *NA*, 7 November 1912, XII, p.8

(٢) *The Nineteenth Century and After*, December 1912. LXXII, p.1142

الحديثة.»[1] مقالته هذه أثارت ردًا سريعًا في المجلة نفسها للكاتب السير إدوين بيرز (Sir Edwin Pears) الذي كان مقيمًا بالقسطنطينية قبل مولد بكثال.

كان بيرز هو الذي أثار الفزع عام ١٨٧٦ حول «فظائع بلغاريا،» فحرك مشاعر سياسية وعاطفية ضد الأتراك بقيت مستعرة طوال نصف قرن من الزمن. «اللعنة على تلك الكلمة المفضلة للكثيرين هذه الأيام، 'بلغاريا،» كان تعليق بكثال. «أصبحت تخرج من الأفواه آليا، كخروج العصفور من الساعة؛ أصبحت إحدى العبارات الببغاوية الدراجة، مثل «إخواننا المسيحيون»، و«الفظائع الرهيبة»، و«جولدستون المقدس»، و«الأتراك الذين من غير اللائق ذكرهم» - مجموعة كاملة من عبارات التقوى الزائفة التي صارت غير مناسبة للصراع الحالي،شأنها شأن عبارات [عنصرية]مثل «عبد اللّه الملعون.»[2]

ثورة تركيا، حسب بكثال، مكّنت المسلمين التقدميين من الوصول إلى السلطة، وهم رجال بحثوا عن الإلهام والدعم من إنجلترا. نشأ بكثال كعضو في حزب المحافظين، و«ضمن الأشياء التي تربيتُ على الإعجاب بها»، كما تذكر قبل موته بقليل، «هي سياسة دزرائيلي (Disraeli) في المشرق، والتي من خلالها أصبحت إنجلترا مستشار العالم الإسلامي، ترعاه وتساعده في نهضته، مستخدمة تركيا ترجمانًا ووسيطًا.»[3] كان التعاطف المشترك بين تركيا الفتاة وبريطانيا نتيجة طبيعية، لا سيما أن معاهدة برلين، التي وقّعها دزرائيلي، كان من المفترض أن تصون وحدة الأراضي التركية. أُلزمت تركيا باحترام التزاماتها في المعاهدة، لكن القوى الأوربية لم تبد اعتراضًا فعّالًا حينما ضمّت النمسا أراضي البوسنة والهرسك، وأعلنت بلغاريا استقلالها، وغزت إيطاليا مقاطعة طرابلس (ليبيا)، وهاجمت دول البلقان المسيحية الجزء الأوربي من تركيا.

(١) *The Nineteenth Century and After*, December 1912, LXXII, p.1147

(٢) *NA*, 14 November 1912, XII, p.31

(٣) *Journal of the Central Asian Society*, April 1936, XXII, p.221

الإصلاح في تركيا، كما جادل بكثال، كان خطرًا على مسيحيي الإمبراطورية العثمانية، الذين «كانوا يكرهون فكرة تقدم المسلمين.»[1] وكانت تداعيات الهجوم على تركيا عالمية، حيث «شاهد مسلمو العالم أفعال سطو صريحة تشجعها القوى الأوربية ضد دولة مسلمة، في حرب وحشية وغادرة يحتفى بها كحرب صليبية تشنها أوربا المسيحية.»[2]

كانت هذه آراء بكثال بنهاية عام ١٩١٢ عندما قرر الذهاب لتركيا للوقوف على الوضع بنفسه.

(١) *NA*, 14 November 1912, XII, p.31

(٢) *NA*, 14 November 1912, XII, p.32

٢

قلبٌ منكسر

بكثال وتركيا

«شعب لطيف يقاد إلى مصرعه
من قبل أوربا لأن فيه من العزّة
ما يمنعه من الاستعطاف،
ولا يمكنه الاستجداء.»
بكثال ١٩١٤[١]

عاشت تركيا عام ١٩١٣ وفق دستور مؤقت لمدة خمس سنين. كانت ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ ثورة سياسية، جاءت تتويجًا للتطوّرات في الإمبراطورية العثمانية خلال قرن من الزمان. كانت السلطة المطلقة في السلطنة تتآكل تدريجيًا عبر جيلين أو ثلاثة. ولكي تكون فعّالة، احتاجت هذه السلطة المطلقة إلى ابتكارات وأدوات صناعة القرن التاسع عشر. كما تطلّبت هذه الاختراعات تقنيين وجيلًا متعلمًا يستلهم من أوربا الغربية مقرّراته وطرق تدريبه وأفكاره عن الكفاءة. في شهر يوليه من عام ١٩٠٨ أجبرت منظمة سرية، اسمها جمعية **الاتحاد والترقي** (Committee of Union and Progress) ذات دعم واسع من الجيش، السلطان عبد الحميد على إحياء الدستور والبرلمان والحكومة المسؤولة وإلغاء الرقابة. الأشخاص الذين كانوا في المنفى عدة سنوات عادوا مواطنين مكرّمين.

---

(١) *Athenaeum*, 16 May 1914, no 4516, p.678

ولعدة سنوات بعد عام ١٩٠٨، بقيت السلطة في أيدي رجال، غالبًا كبار في السن، تلقوا تعليمهم في فرنسا، وكانوا عالميين في توجهاتهم، وليبراليين في آرائهم، وأرستقراطيين في خلفيتهم، ونخبويين بفطرتهم.

في السنوات التي أعقبت ثورة ١٩٠٨ واجهت تركيا الحرب أو تهديدات بالحرب مع معظم جاراتها، وفي عام ١٩١٢ قام اتحاد دول البلقان بغزو الجزء الأوربي من تركيا بناءً على مطالبات جشعة بأجزاء من أراضي تركيا. الأشهر الأخيرة من عام ١٩١٢ وأوائل عام ١٩١٣ كانت حاسمة للأتراك. في الثامن من شهر نوفمبر، سقطت سالونيك. وفي شهر ديسمبر كانت مدينة أدرنة، أول عاصمة للأتراك في أوربا، وذات أهمية وطنية ودينية واستراتيجية، كانت تحت الحصار. وفي الثالث والعشرين من يناير قام الضابط في الجيش إنفر (Enver)، وهو أكثر ضباط تركيا الفتاة تأثيرًا، قام بانقلاب. اقتحم جلسة مجلس الوزراء وأجبر رئيس الوزراء كامل باشا على الاستقالة، وهو كبير في السن ومحب للإنجليز. كما تم إطلاق النار على وزير الدفاع ناظم باشا. قام عسكري من كبار الضباط، وهو محمود شوكت باشا، بتولي منصب رئيس الوزراء. هيمن على وزارته أعضاء من جمعية الاتحاد والترقي، وهم المعروفون بالاتحاديين. ومن هنا كانت حكومة ذات خط متشدد تسعى وراء الحرب. قام وزير داخلية الاتحاديين بفرض حظر التجوال ورقابة أشد على المطبوعات.

ابتهج بكثال بالثورة التركية، وأراد مشاهدة العاصمة المحاصرة بنفسه. سلّم الناشر (Eveleigh Nash) لبكثال دفعةً مقدمةً من حقوقه عن نشر روايته **نسوة محجبات** (*Veiled Women*) التي نشرت في شهر يناير من عام ١٩١٣، وسافر بكثال إلى اسطنبول مرورًا ببرلين ثم مدينة كوستانزا (رومانيا) ومن ثمّ عبر البحر الأسود إلى حي غلطة (Galata) في اسطنبول. وصل بكثال في شهر مارس ومعه خطابات تعريف من أوبري هربرت (Aubrey Herbert) (إضافة إلى اتصالاته الشخصية. أقام لمدة أسبوعين بفندق قصر پيرا (Pera Palace Hotel)، ومنطقة پيرا التاريخية تُعرف اليوم باسم بايو غلو (Beyoğlu)، لكنها تخلو من التردّي (الأخلاقي) الطاغي على النمط الفرنسي لپيرا. «وبيرا وجارتها غلطة، هما على

النقيض من القيم الأخلاقية الصارمة والحشمة الزائدة لدى الأتراك، وتُعتبران بؤرة وباء ـ مثل نمو بكتيري يهدّد تركيا بالفساد (الأخلاقي).»(١)

تمكن بكثال عن طريق صديق تركي من استئجار مسكن في قرية إرنكوي (Erenköy) عل الجانب الأناضولي من مضيق البسفور. كانت إرنكوي قرية سكنية مزدهرة، وساكنوها شخصيات ثرية. أقام بكثال بمنزل سيدة ألمانية، اسمها (Fraülein Kate Eckerlein)، وقد عاشت في تركيا لعدة سنوات. قام الأتراك بتغيير اسمها إلى ميسكَت هانم (وهو اختصار لـ Hanum Miss Kate) وجد بكثال بيئة إرنكوي مختلفة تمامًا عن بيئة پيرا. «هنا أصوات مشرقية حقيقية هبّت على بعد من ذلك الطريق. لقد شعرتُ بالارتياح التام ولأول مرة منذ غادرت منزلي الريفي بمدينة سَسِكْس.»(٢)

أشغل بكثال وقته بتعلم اللغة التركية. بدأ دراسة اللغة مع عربي مسيحي كاثوليكي من ديار بكر، وهو مدرّس بمدرسة غلطة سراي (Galataserai). وكان مدرّسه الثاني إمامًا بمسجد غوزتبه (Göztepe)، وهو إمام تقدّمي ومؤيد للعصرنة دون أن يكون ذلك بأي حال من الأحوال على حساب معتقداته الإسلامية. بدأ بكثال في التحدث باللغة التركية وكانت بلكنة عربية في البداية. وقبل أن يغادر كان قادرًا (باللغة التركية) على مناقشة الموضوعات السياسية وقراءة الصحف.

صديقاه التركيان المقربان منه كانا مهتمين عن قرب بالشأن العام. أولهما هو حيدر بِك، وهو ابن مدحت باشا، رئيس الوزراء الإصلاحي في سبعينيات القرن التاسع عشر، الذي اصطدم بالسلطان عبد الحميد. والثاني هو وزير الخارجية، الأمير سعيد حليم باشا، حفيد محمد علي باشا والي مصر. في رسالةٍ إلى زوجته موريل، وصف بكثال انطباعاته الأولى عن الأمير سعيد حليم باشا. كان لديه «عينان زرقاوان حقًا، وخدّان بنّيان فعلًا، وياقة ناصعة البياض ومعطف طويل شديد السواد، وطربوش أحمر قانٍ كأنه قطعة من رأسه، وسيجارة في

(١) *With the Turk in Wartime*, p.13

(٢) Ibid., p.35

حامل لها بلون الكهرمان مثبتة بشكل مستمر في أحد خدّيه. كان أنيقًا جدًا وسويًّا، وتلقائيًا في حركاته ـ كالألعوبة.»[1]

كان بكثال يذهب من إرنكوي إلى اسطنبول مستقلًا القطار أو العبّارة. «كان هناك دومًا صُحبة من الناس من قريتي يستقلون نفس العربة في القطار، ونفس المكان في العبّارة. وأصبحتُ معروفًا لديهم بسرعة، وهم عبارة عن وزراء خارجية سابقين ومسئولين كبار، وضباط في مخازن الأسلحة أو وزارة الحرب، وأطباء وسادة وبعض الصحفيين.»[2] عند وصوله إلى جسر غلطة سراي[*]، عبّر بكثال عن المشهد بقوله: «كأي شخص آخر يقدم إلى المدينة من الأماكن الريفية حيث الطرق المكتسية بالتراب أو الطين، بحسب الطقس، كان عليّ أن أجد من ينظف حذائي.»[3] تناول غداءه في مطعم وطبقه المفضل محشي ورق العنب. قام بزيارة أصدقائه الأتراك ومراسل مجلة التايمز (*The Times*)، فيليب غرَيفز (Philip Graves).

لا يتوفر لدينا دليل على قيام بكثال بالبحث عن خصمه، السير إدون بيرس (Sir Edwin Pears)، الذي ما زال يقيم في اسطنبول وهو في الثامنة والسبعين من عمره. كان بكثال ناقدًا، بل ساخطًا، على البريطانيين المقيمين في تركيا ممن كانت لهم غالبًا علاقة بالمصالح التجارية الأوربية وهم كانوا يشكّكون بغير وجه حق في تقدّم المسلمين. كان من السهل شرح موقفهم المستفزّ والمتبرّم. كان لا يهمهم آراء أو تطلّعات جيرانهم المحمّديين[**]؛ كان هدفهم أن يؤمّنوا رغد العيش لهم وأن يعيشوا حياتهم على النمط

---

(١) Letter to Muriel Pickthall, 14 March 1913, in *IC*, July 1937, XI, p.421
رسالة إلى موريل بكثال (زوجة بكثال) في ٢٦ مارس ١٩١٣، نشرت في المجلة الإسلامية في عدد شهر يوليه ١٩٣٧، المجلد الحادي عشر، ص٤٢١

(٢) *With the Turk in Wartime*, p.42

(*) جسر يصل ما بين الضفة الشمالية والجنوبية من القرن الذهبي في اسطنبول.

(٣) Ibid., p.211

(**) في كثير من كتابات الغربيين خاصة زمن القرون الوسطى وما تلاها يسمون المسلمين بـ«المحمديين» أي أتباع محمد ﷺ.

الغربي. ولهذا وجدوا أنفسهم في صراع مع روح المشرق، وكانوا يطالبون بإزالتها أو إخضاعها لهواهم.

كان حلفاؤهم الطبيعيون هم مشرقيي بيرا الذين «تبنّوا وجهة نظر بيرا متجاهلين إجحافها المتطرّف. ذلك لأن بيرا متطفّلة على نحو متعصّب بلا حياء؛ شعبها يقتات على الإمبراطورية بنية قتلها؛ ونفس الكلام يمكن أن يقال بصدق عن الحي المسيحي في كل بلدة ساحلية تقريبًا في بلاد المشرق.»[١]

على النقيض من الزوار الأوربيين، كان بكثال يقصد المسلمين الأتراك ويسعى لمصادقتهم. كان شعوره تجاه تركيا أكثر حميمية من شعوره تجاه سوريا ومصر. تعرّف بكثال وهو شاب يافع على سوريا وفلسطين عن طريق المبشّرين. تبرّأ بكثال من هؤلاء الأشخاص وقام بالتعرّف بنفسه على أشخاص آخرين ولكن على نحو محدود. وصل إلى مصر ضيفًا على موظفين بريطانيين. وهؤلاء لم يتبرأ منهم. ولكن الأشخاص الذين تعرّف عليهم أولًا في تركيا كانوا من الأتراك المتحررين ذوي الاطلاع الواسع. مثل رحلاته السابقة، كان بكثال يندمج في الناس عن طريق اللغة واللباس.

كان الأتراك التحرّريون يرون أن عملية الإصلاح يجب أن يقوم بها أشخاص متعلمون ومثقفون وعلى دراية بأساليب الحياة الأوربية؛ رجال مثلهم. قاموا بمعارضة الحكم المطلق للسلطان عبد الحميد لأنه رفض إشراكهم في السلطة. كانوا سيقيمون سلطة القانون ونظام حكم عقلاني إذا وصلوا للسلطة.[٢] كان الاتحاديون أكثر وقاحة، وهم عادة من طبقة اجتماعية أدنى، وكان لهم تأثير عن طريق الجيش المبني على الجدارة بصفة متزايدة. ويتحدّث الاتحاديون عادةً اللغة التركية فقط. كانت إرنكوي قرية تحرّرية، وكان معظم أصدقاء بكثال من التحرّريين، «لكنّ هناك اثنين أو ثلاثة - وهم أفضل أصدقائي - من الاتحاديين.»[٣] السيدة مِسكت هانم كانت مؤيدة متحمّسة للاتحاديين.

(١) *The Nineteenth Century and After*, September 1913, LXXIV, p.472

(٢) Feroz Ahmad, *The Young Turks* (Clarendon Press, Oxfor9., 1969), p.161

(٣) *With the Turk in Wartime*, p.43

تهيّجت المشاعر الحزبية في الثالث والعشرين من شهر يونيه عام ١٩١٣ عندما اغتيل محمود شوكت باشا رئيس الحكومة التي يهيمن عليها الاتحاديون. بعض المراقبين في اسطنبول يرون أن الاغتيال كان انتقامًا لمقتل ناظم باشا(*) في شهر يناير من نفس العام. قام وزير الداخلية القوي، جمال باشا، باعتقال القتلة والمتآمرين بينما اختفى متهمون آخرون أو فرّوا خارج البلاد.

كان بكثال يجلّ محمود شوكت باشا ويرى فيه صفات من المسيح ﷺ. كان «أكثر الوطنيين عملًا جادًا وإخلاصًا،»[١] وكان «الرجل الذي عرفت أن لديه الإرادة والقدرة لإنقاذ بلده من مئات الأعداء الذين يهددون وجوده في الداخل والخارج، ولإنقاذ الإسلام من الإهانة غير المستحقة.»[٢] لقد سبّب الاغتيال فزَعًا لدى الشعب - «الأشخاص الذين يغلب عليهم الهدوء ولا ينتمون لأي من الحزبين، أصبحوا الآن اتحاديين.»[٣] تعاطفَ بكثال مع الإجراءات العقابية القاسية التي اتخذتها الحكومة. «شنُق اثني عشر متهمًا. وحتى أُريكم أهمية العقوبة التي أراها مجاوزة للحدّ: كان هناك تاجر سوري يقيم في اسطنبول، أعرفه وهو من الملتزمين بالقانون، ذهب لمشاهدة الجثث المعلّقة على المشانق، ولمس إحداها. قصّ عليّ الحكاية بارتياح واضح قائلًا: 'عندئذ شعرت بطمأنينة أكثر لأني عرفت أن لدينا حكومة.'»[٤]

أتى بكثال إلى تركيا متوقعًا أن يحب الأتراك - ولم يخب أمله. وعلى النقيض، لم يكن منصفًا أبدًا مع المسيحيين العثمانيين، الذين كان يراهم دائمًا متكبّرين، متملّقين ومخدوعين بأنفسهم. كانوا لا يعرفون متى يكونون أغنياء. هكذا كانت نظرة بكثال لهم. النظام العثماني كفل لهم الحكم الذاتي وقدرًا من

(*) والي بغداد بين عامي ١٩١٠ - ١٩١٢ ثم عُزل وعيّن وزيرًا للحرب واغتيل بعدها بعدة أشهر.

(١) Ibid., p.129

(٢) Ibid, p.136

(٣) Ibid., p.150

(٤) Ibid., p.151 14

الحرية. لم يكن في تركيا ساحات إعدام على غرار سميثفيلد في إنجلترا.(*) (السير إدوين (Sir Edwin) يختلف مع بكثال في هذا الأمر). المزاعم عن تعصّب المسلمين تدحضها الحقائق، ليس من جانب العلاقات الاجتماعية فحسب بل على مستوى الممارسات الرسمية أيضًا. في خضم حروب البلقان، حدث أن مطران الكنيسة اليونانية في اسطنبول توفي، ودُفن هناك في احتفالية شعائرية كاملة، وكان الجنود الأتراك يحرسون الطريق لمرور الموكب. افترض أنّ جيشًا للكاثوليك الرومان هدّد مدينة بلفاست ـ نفس الشيء ذكره لي رجل إنجليزي عاد للتو من شمال آيرلندا ـ وفي نفس الوقت توفي أسقف الكاثوليك الرومان، هل كان سيسمح له بإقامة جنازة علنيّة؟»[1]

في أحد كتاباته لموريل تهكّم بكثال بالمسيحيين بطريقة فيها هزْل لطيف ساخر. «كان هناك صف مهيب في الكنيسة اليونانية في بيرا يوم جمعة الآلام أو الجمعة العظيمة؛ كان هناك أربع فِرَق تتصارع أيهما يحمل الصليب الكبير، وكان الأسقف يضرب يَمنة ويَسْرة بصولجانه على رؤوسهم. أصيب كثير من الناس بجروح؛ وكان النساء بين كرٍّ وفرّ. اضطرت الشرطة التركية إلى التدخّل لإيقاف المزيد من إراقة الدماء.»[2]

كان المسلمون الأتراك هم الذين أبدوا التسامح، تسامحًا أكثر من محاربيهم الأوربيين. التقت السيدة مسكت هانم في إحدى المناسبات بعض الضباط الأتراك القادمين من الجبهة في إجازة. سجّل بكثال دهشته «لأنه وجد أن ذمّها للبلغار لم يجد له صدىً ولا هتافًا لدى هؤلاء المقاتلين الحقيقيين.»[3] تركيا الإصلاحية، التي تبنّت التسامح كمَثَل رسمي أعلى، شعرت بالمرارة لأنها

(*) بلدة شمال غرب لندن شهدت شنق المناضل الاسكوتلندي وليم والاس، وزعيم ثورة الفلاحين وات تايلر، والكثير من المواطنين الكاثوليك.

(١) Ibid., p.15

(٢) Letter to Muriel Pickthall, 26 March 1913, in *IC*, July 1937, XI, p.432
رسالة إلى موريل بكثال (زوجة بكثال) في ٢٦ مارس ١٩١٣، نشرت في المجلة الإسلامية في عدد شهر يوليه ١٩٣٧، المجلد الحادي عشر، ص٤٣٢

(٣) *With the Turk in Wartime*, p.106

تعرّضت لمزيد من الأفعال العدائية. حماسة بكثال للأتراك تزايدت كلما بقي في بلدهم لمدة أطول. كان ناقدًا لعدم مبالاة الأتراك بالأقاليم العربية، وكان يحتقر فكرة برلمان لسوريا («بلا برلمان! بلا بطيخ!» كان يجادل معترضًا.)[1] دوّن بكثال عن الأتراك أنهم يمكن أن يكونوا متمسّكين بالشكليات، متحذلقين، وغير مرحين لكنه كان يرى أن تركيا أمل العالم الإسلامي.

ثورة عام ١٩٠٨ بشّرت بعهد من الإصلاح. ومن هنا توقّعَ بكثال إسلامًا متطورا مبنيًا على العلم. لم يكن التعصّب جزءًا من الإسلام، وكان التعليم، كما أكّد بكثال بكل تفاؤل، كفيلًا باستئصال التعصّب. شعر بكثال بالكثير من الرضا لمقابلة رجال دين من التقدميين المجاهرين بذلك. الحثّ على التسامح في القرآن الكريم يفوق تأييد عدم التسامح. إضافةً إلى ذلك، الأتراك متّبعون للمذهب الحنفي، «وهو المذهب الوحيد في الإسلام الذي يقدّم العقل على النقل.»[2] وهكذا فإن تركيا لديها دورٌ تلعبه. «تركيا في الوقت الحاضر هي الرأس لحركة تقدّمية تنتشر في أنحاء آسيا وإفريقيا. وتركيا هي الأمل الوحيد للعالم الإسلامي.»[3] يجب على تركيا أن تعي إرثها الإسلامي عوضًا عن سعيها لتتكلّف مظهر الأوربيين. يجب أن تكون لغتها الثانية العربية لا الفرنسية.

ذهبت ميورل إلى تركيا في شهر يونيه بعد فترة قصيرة من اغتيال محمود شوكت باشا ومكثت هناك بضعة أسابيع قبل أن تعود مع بكثال بحرًا في شهر يوليه. وصف بكثال مغادرتهم الأخيرة:

انحسر المرسى ببطء وعلى نحو غير ملحوظ. كانت جموع الناس المتكدّسين عليه تبدو كضباب خفيف، وهتافات الوداع لم يعد من الممكن سماعها؛ فقط كان يمكن تمييز التلويح بالمناديل. حتى ذلك المشهد اختفى، وخطفت المدينة أبصارنا. رُميت حبال القطر؛ وبدأت الباخرة تنبض بالحياة. مشهد القرن الذهبي المهيب، القصر القديم والفنار ومسجد السلطان أحمد

(١) Ibid., p.122
(٢) Ibid., p.198
(٣) Ibid., p.170

كلها انسلّت بعيدًا عنا لنراها فقط في عرض البحر في منظر بانورامي مع تلال آسيا. جلسنا على ظهر المركب نشاهد المنظر حتى غروب الشمس.[1]

ذهب بكثال إلى تركيا كمراقب. إقامته بها عززت مناصرته لإصلاح المسلمين الأتراك. رأى، كما رأى الأئمة التقدميّون، أن لا تعارض بين التجديد والإسلام. في سنوات لاحقة بسط الأمير سعيد حليم باشا القول عن فلسفةٍ محافظةٍ عن الإسلام السياسي الحديث. كان بكثال متفقًا بوجه عام مع هذه الآراء، وقام بشرحها بعد أربعة عشر عامًا في محاضراته عن الإسلام التي ألقاها في مدراس.

التأثر الشخصي بالغ الأهمية الذي تعرّض له بكثال خلال الأربعة أشهر التي قضاها في تركيا، مع التأكيد على كل تحيّزاته، هو أنه أصبح مسيّسًا أكثر من أي وقت مضى. كان بكثال شديدًا ومخلصًا دائمًا، وعاد إلى إنجلترا بقناعات مبنية على العاطفة عن محاسن القادة الأتراك، والحاجة إلى دعم الحكومة البريطانية لهم إضافة إلى ـ ولو كانت العبارة ليست غير مناسبة ـ تسيير حملة صليبية ضد تشويه تركيا والأتراك.

إبّان عودته، نشر بكثال مقالة في عدد شهر سبتمبر من مجلة **القرن التاسع عشر وما بعده** (*The Nineteenth Century and After*) عن المصلحين الإسلاميين الأتراك. بين شهر سبتمبر ١٩١٣ وشهر يناير ١٩١٤ نشر بكثال سلسلة مقالات في مجلة **العصر الجديد** (*The New Age*) عن حياته في تركيا. حملت سلسلة المقالات هذه عنوانًا معبّرًا: **'رحلة (الحج) إلى تركيا في زمن الحرب.'** وفي شهر مارس عام ١٩١٤ نشرت دار (J.M. Dent) تلك المقالات في كتاب بعنوان **مع الأتراك في زمن الحرب** (*With the Turks in Wartime*).

من هنا فصاعدًا، أصبح بكثال ناشطًا أكثر فأكثر في حضور الاجتماعات واللجان. وعند اقتراب الحرب كان بكثال يكتب بانتظام في مجلة (*The New Age*) عن التهديدات الروسية لتركيا. لم تكن نشاطاته مقصورة على الكتابة الصحفية.

---

(١) Ibid., p.216

انخرط في مجموعة من الساسة والمهتمين بالشأن العام الذين أرادوا ضمان عقد جلسة سماع غير تقليدية لصالح تركيا. تم تأسيس الجمعية البريطانية العثمانية (Anglo-Ottoman Society) في شهر يناير من عام ١٩١٤، وكان بكثال من المسؤولين النشطاء، وكان من أنصار الجمعية السفير البريطاني السابق في القسطنطينية، السير لويس ماليه (Sir Louis Mallet)؛ العضو المحافظ في البرلمان، أوبري هربرت (Aubrey Herbert)، صاحب العقل المستقل والذي كان كثير الأسفار في أرجاء الإمبراطورية العثمانية؛ البروفيسور إي. جي. براون (E.G. Browne) من جامعة كامبردج؛ والأرستقراطي الاشتراكي والرومانسي الاسكتلندي آر. بي. كننغهام غراهام؛ والشخص الأكثر صراحة رئيس حزب العمال جَيمس كير هاردي. وقبل أن تبدأ الحرب حاول بكثال مرّتين أن يحصل على وظيفة في تركيا لكن كلا المحاولتين باءت بالفشل.

دخلت بريطانيا الحرب ضد ألمانيا في شهر أغسطس عام ١٩١٤. دافع بكثال بقوّة عن حيادية واستقلال تركيا. لم يكن معارضًا للحرب وكان على أهبة الاستعداد للقتال مالم يكن عليه قتال الأتراك. في فصل الخريف تسارعت الأحداث بشكل متعنّت، وفي الخامس من شهر نوفمبر أعلنت بريطانيا الحرب ضد تركيا، حليفة ألمانيا. أعلن بكثال نفسه «كسير القلب بسبب ما آلت إليه الأحداث.»(١)

هذه الأحداث لم تزحزح بكثال عن ولاءاته. طوال فترة الحرب ظل بكثال يكتب مقالًا تلو الآخر في مجلة (*The New Age*) داعيًا لأخذ قضية تركيا في الاعتبار. تبنّى موقفًا ثابتًا شريفًا وإن كان غير عملي في الوقت الذي أصيب فيه العالم بالجنون. كان هناك أربعة موضوعات ثابتة في مقالات بكثال. الأول أنه كان يدّعي التزامه بالسياسة الخارجية القديمة لبريطانيا. الثاني، أنه حذّر مما رآه تأثيرًا خبيثًا للسياسة الروسية. الثالث، أنه رفض فكرة طلب المسيحيين البلقان حماية خاصة من بريطانيا لكونهم مسيحيين. والرابع، أنه شدّد على

(١) *NA*, 12 November 1914, XVI, p.35

المزايا الإيجابية للأتراك، وعلى ثورة ١٩٠٨ المجيدة وما تبعها من تجديد قادم للعالم الإسلامي.

في الأشهر الثلاثة بين إعلان الحرب على ألمانيا وإعلان الحرب على تركيا، كتب بكثال سلسلة مقالات بعنوان، «استقلال تركيا.» في هذه المقالات برهن على أنه منذ أيام الملكة إليزابيث كانت هناك سياسة متنامية لبريطانيا تجاه عقد حلف متين مع الباب العالي، كانت تعتبر تركيا المستقلّة الصديقة حصنًا متينًا للإمبراطورية البريطانية في الشرق. كان دِزرائيلي (Disraeli)[*] ـ ذلك العبقري العظيم ـ يعمل على هذه السياسة القديمة ونشأ عنها أفضل خطة لصالح الإمبراطورية (البريطانية) والتي ألقت بها كثير من الدول جانبًا.[١]

أحب دِزرائيلي، كما يؤكد بكثال، كلًا من إنجلترا والمشرق كما رغب أن تصبح إنجلترا صاحبة فضل على المشرق، وقائدته إلى حياة أكثر حرية ذات مؤسسات مستنيرة. رأى بحكمته أن هذا العمل الجبّار يمكن تحقيقه فقط عبر دولة مشرقية قويّة ومستقلة. ولا أفضل لتحقيق هذا الغرض من الإمبراطورية العثمانية لريادتها للعالم الإسلامي.[٢]

بتأثير من غلادستون (Gladstone)[**]، رفضت بريطانيا هذه السياسة، ما آلم الأتراك أنفسهم. في الوقت الذي تم فيه إجهاض هذه السياسة الأنجلو إسلامية، «حين ألقت بريطانيا بنهج دزرائيلي جانبًا، تبنّتها ألمانيا على الفور.»[٣] الأتراك توجّهوا إلى ألمانيا «فقط عندما خذلتهم بريطانيا.»[٤]

(*) بينجامين دزرائيلي سياسي بريطاني. تولى رئاسة الوزارة في بريطانيا مرتين: من ٢٧ فبراير إلى ١ ديسمبر ١٨٦٨. ومن ٢٠ فبراير ١٨٧٤ إلى ٢١ أبريل ١٨٨٠.

(١) *NA*, 15 October 1914, XV, p.568

(٢) *NA*, 21 January 1915, XVI, p.305

(**) وليام غلادستون سياسي بريطاني. تولى رئاسة الوزارة في بريطانيا أربع مرات: من ٣ ديسمبر ١٨٦٨ إلى ١٧ فبراير ١٨٧٤، ومن ٢٣ أبريل ١٨٨٠إلى ٩ يونيو ١٨٨٥، ومن ١ فبراير إلى ٢٠ يوليو ١٨٨٦، ومن ١٥ أغسطس ١٨٩٢ إلى ٢ مارس ١٨٩٤.

(٣) *NA*, 15 October 1914, XV, p.568

(٤) *NA*, 27 August 1914, XV, p.392

إحلال ألمانيا مكان بريطانيا تم بسبب مكائد روسيا التي أصبحت «القوة العظمى في دول الوفاق الثلاثي(*).»[1] كانت روسيا خلف مشروع حرب دول البلقان على تركيا. كانت المصالح الروسية تهديدًا لوحدة أراضي تركيا وكذلك، على المدى البعيد، الإمبراطورية البريطانية في الهند. شاهد بكثال التواطؤ على الصمت تجاه الفظائع التي ارتكبها أهالي دول البلقان بحق الأتراك والمسلمين. ألمح بكثال إلى أن صحيفة التايمز (*The Times*) كانت تخضع لرقابة وزارة الخارجية. كان للمقالات المنشورة عن تركيا «نبرة تهديد معادية ومغلّفة بغشاء خفيف من التظاهر ببذل النصح للأجيال القادمة.»[2]

استغلت روسيا شعورا مصطنعًا بالأخوة المسيحية. لمّا كانت غالبية شعوب دول البلقان مسيحيين، كانت الصحافة البريطانية مهتمة فقط بتصيّد الجُنح والمظالم التي يرتكبها الأتراك والمسلمون. يتذكّر بكثال أنه كان في ألمانيا في شهر فبراير من عام ١٩١٢ وكيف أن الصحف مليئة بتقارير تتحدث عن الفظائع التي يرتكبها المسيحيون. مثل هذه التقارير «كان يتم التهكم بها آنذاك في إنجلترا بينما تحظى النشرات الإعلامية عن هذا الموضوع بالاحترام في ألمانيا.»[3]

وعلى النقيض من هذا أجهد بكثال نفسه في معرفة طبائع الشبان الأتراك. قبيل الحرب كتب عنهم في مجلة (*Athenaeum*) أن «الشبان الأتراك يصعب فهمهم. هم لا يتحدثون عن أنفسهم، وأنهم يرفضون بازدراء فضول الصحفيين الغربيين.»[4] وفي نهاية عام ١٩١٤ بدأ بكثال سلسلة أخرى من المقالات تحت عنوان «ست سنوات» يتعقب فيها التحوّلات التي شهدتها الإمبراطوريّة العثمانية منذ عام ١٩٠٨ ومؤكّدًا على الوعد الذي تحمله هذه التغيّرات لجميع العالم

(*) الوفاق الثلاثي كان عبارة عن اتحاد عسكري بين بريطانيا وفرنسا وروسيا. تأسس عام ١٩٠٧ من خلال معاهدة سانت بطرسبرغ.

(١) *NA*, 27 August 1914, XV, p.392

(٢) *NA*, 15 October 1914, XV, pp.580- 1

(٣) *NA*, 20 August 1914, XV, p.366

(٤) *Athenaeum*, 16 May 1914, no 4516, p.678

الإسلامي. حُكْم السلطان عبد الحميد، الذي صوره المراقبون الأوربيون بكل حقد، لم يكن أيضًا محبوبًا لدى الأتراك.

لم يكن التبرّم واضحًا؛ يقيم كثير من الأوربيين في تركيا ... ولكن يفصلهم عن الحياة التركية خليج لا جسر له، بل كانوا لا يشعرون بوجودها ... ولهذا فاجأت الثورة التركية أوربا على حين غفلة. لكن تيار الثورة كان يتزايد على مدى السنين دون أن يلحظه أحد. كان التيار محمّديًا ووطنيًا، ولم يكن له قواسم مشتركة مع حركة مجموعة أتراك باريس.[١]

خلال سنوات معدودة، جميع أوجه الإصلاح تم القيام بها. كان هناك توسع في التعليم، إضافة إلى قمع عمليات السطو، وظهر شعور بالفخر بكل ما هو تركي. يتذكّر بكثال صاحب الورع محمود شوكت باشا الذي كانت له حياة منزلية رائعة يتشوّق إليها دائمًا، معتبرًا كل جهوده في الشأن العام مجرد فواصل مرهقة. كان يعتقد صادقًا أن هناك رجالًا آخرين، تعدادهم بالمئات، أفضل منه بكثير لشغل مناصب عالية في الدولة. ولهذا كان دائم الترفّع عن فرص كثيرة يغتنمها كثير من الرجال. كانت روحه الحقيقية هي روح جمعية الاتحاد والترقّي، تلك الروح التي تنظر إلى الطموح الشخصي على أنه وهم باطل.[٢]

عند وصول أخبار مذبحة الأرمن إلى إنجلترا ابتداءً من خريف عام ١٩١٥ واجهت بكثال تحديات لولاءاته. في شهر نوفمبر عام ١٩١٥ كتب بكثال مقالة لم يشكّك فيها بوقوع المذبحة لكنه وجّه اللوم إلى الجميع عدا الحكومة.

دعونا نحاول فهم ما حدث فعلًا. قام بعض الأرمن، في أرمينيا، وهم من رعايا تركيا، حملوا السلاح وخانوا بلدة فان (Van) وسلّموها للروس. حين انتشر خبر الحادثة في أرجاء الإمبراطورية، قام عوام الناس بأحداث شغب ضد الأرمن، تمامًا كما فعل الناس في أقصى شرق لندن

(١) *NA*, 26 November 1914, XVI, p.90

(٢) *NA*, 31 December 1914, XVI, p.215

ضد الألمان عند سماع خبر إغراق عبّارة لوسيتينيا (Lusitania)(*)، لكن مع هذا الفارق، وهو أن الغوغاء العرب والأكراد، وهم متأخرون عن حضارة غوغاء لندن قرابة ثلاثمئة سنة، فعلوا ما كان ليفعله رعاع لندن قبل ثلاثمئة سنة وقتلوا ضحاياهم. إثر هذه الاضطرابات أمرت الحكومة التركية بنقل جميع السكان الأرمن من مناطق الحرب إلى أماكن شبيهة بمعسكرات الاعتقال؛ من منظور توفير حماية لهم، ويبدو أن الأقرب للصواب هو منع حوادث أخرى لغدرهم. حينما استعادت القوات التركية بلدة فان، حدثت مذبحة للأرمن في تلك المقاطعة على يد الأكراد، أعدائهم القدامى، الذين كانوا مسلحين ببنادق روسية قبل الحرب، في الوقت الذي كان الأتراك يرغبون نزع سلاحهم... لكن لا فرق عند أعداء الإسلام، وهم الآن أقوياء في بريطانيا، ما دام أن الأكراد مسلمون من هذا القبيل... الأرمن أعداء للحكومة التركية وقت السّلْم، وأصدقاء غير مناسبين ولا يوثق بهم وقت الحرب. ولا بد من تذكّر أن الأرمن، في موطنهم الأصلي، بعيدون كل البعد عمّا يتم تصويرهم به أحيانًا أنهم الحمل الوديع المسالم. وقت الحرب هم أيضًا يرتكبون فظائع.[1]

الشاب أرنولد توينبي (Arnold J. Toynbee) كتب كتيّبًا في ذلك الخريف عن الفظائع التي ارتكبها الأرمن. كتب بكثال عن ذلك الكتيّب في مجلة (*The New Age*) في الخامس والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩١٥. ومرة أخرى لم ينف بكثال حقيقة الفظائع (المرتكبة ضد الأرمن) لكنه وجّه الانتباه من الخصوص إلى العموم وإلى مضامين خط النقاش لدى توينبي. كتب توينبي عن إهانة بعض الفتيات الأرمن. «هؤلاء الفتيات هن نساء مسيحيات، متحضرات ولطيفات كنساء غرب أوربا وقد تم بيعهن إلى المهانة.» وفي المقابل وجّه بكثال سؤالًا:

(*) لوسيتينيا هي سفينية بريطانية مدنية فجّرت من قبل غواصة ألمانية عام ١٩١٥، وتعد أكبر سفينة في العالم في ذلك الوقت، وكانت قادمة من أمريكا إلى مدينة ليفربول ببريطانيا وراح ضحية الهجوم ١٢٠٠ شخص، وعلى إثر ذلك دخلت أمريكا الحرب.

(١) *NA*, 4 November 1915, XVIII, p.5

ما ذا يعني توينبي بذلك؟ هل يعني أن الفتيات والنساء القرويات الأرمن متحضرات وراقيات مثل السيدات الإنجليزيات من الطبقات الثريّة، أو كفتيات ونساء قرية سَفُك، أو مثل العجائز المشاكسات في حي الفقراء في لندن، أم كعاهرات لندن وباريس؟ هذه العبارة لا داعي لها، وهي تبدو لي مؤسفة، لأنها تنطوي على إثارة التعصب الديني، حيث إنها مبنية على افتراض متعصب وخاطئ وهو أن المسيحيين جوهريًا أفضل من المحمديين، وأن حياتهم أكثر استحقاقًا. ذلك الافتراض، المترسخ في عقلية الأجنبي، سواء كان مبشّرًا أو مندوبًا لحكومة أجنبية، هو أساس كل المشكلات في شرق الأناضول، حيث يوجد فيها أقلية مسيحية رُبّيت على أن تعتبر نفسها ذات أهمية أكبر من الأغلبية المحمدية، وتم تحريضها على العصيان وممارسة الفوضى والثورة على أساس تصوّر أن المسيحيين يجب أن يحكموا المحمديين، كونهم أسمى في جوهرهم.[1]

في الدوائر الرسمية أثناء الحرب، اعتُبِر أن بكثال يشكّل خطرًا أمنيًا. مواهبه كلُغوي بارع في اللغات، واعتباره مرجعًا عن سوريا وفلسطين ومصر، كانت ستتيح توظيفه، إلا أن سمعته كـ 'محب مندفع للأتراك' حرمته من الحصول على وظيفة في المكتب العربي في القاهرة، ونال الوظيفة عوضًا عنه تي إي لورنس(*) (T.E. Lawrence).[2]

---

(١) *NA*, 25 November 1915, XVIII, p.81. Toynbee seems to have been persuaded, in time, of the validity of the criticism, for in 1922 he referred to his own wartime anti-Turkish work as an example of western prejudice, 'of the wrong attitude towards the «Eastern Question'». Arnold J. Toynbee, *The Western Question in Greece and Turkey* (Constable, London, 1922), p.382

مجلة العصر الجديد عدد ٢٥ نوفمبر ١٩١٥، المجلد الثامن عشر ص٨١. يبدو أن توينبي تم إقناعه في ذلك الوقت بصحة النقد، لأنه أشار عام ١٩٢٢ إلى كتابه العدائي عن تركيا زمن الحرب كمثال على انحياز الغرب، 'المتمثل في الموقف الخاطئ تجاه «القضية المشرقية»' آرنولد توينبي، القضية الغربية في اليونان وتركيا (دار كونستابل، لندن ١٩٢٢)، ص٣٨٢

(*) لورنس العرب الشهير.

(٢) H.F.V. Winstone, *The Illicit Adventure* (Jonathan Cape, London, 1982) p.434

في عام ١٩١٦ حاول بكثال، بطريقة غير متّبعة إطلاقًا، أن يصنع مبادرات دبلوماسية شخصية. الدكتور فليكس فالي، رئيس تحرير مجلة مراجعات سياسية دولية (*La Revue Politique Internationale*) التي تصدر من دولة سويسرا المحايدة، كان على اتصال بالحكومة التركية. رغب بكثال في السفر إلى سويسرا لبناء جسور بين الحكومتين البريطانية والتركية. لم يكن مفاجئًا أن يتم رفض طلبه إصدار جواز سفر. كان بكثال واضحًا في نشاطاته، ويرسل صورًا من خطاباته إلى السير مارك سايكس(*)، عضو البرلمان، وهو مستشار الحكومة آنذاك لسياسة الشرق الأدنى. كتب سايكس لبكثال زاجرًا إياه بنبرة استعلائية: «لا أعتبر مناسبًا أن تتبنّى صداقة مطلَقة لدولة معادية... إضافة إلى أن تتحدث بعدائية واضحة عن حكومتك.»[1] ارتأى سايكس أن على فالي التواصل مع الملحق العسكري البريطاني في مدينة بيرن.

هذا الزّجر حال دون مواصلة بكثال نشاطاته الدولية غير أنه لم يمنع حملته المستمرة للتوصّل إلى سلام خاص مع الأتراك. كان يتحدث في التجمّعات العامة وأصبح ناشطًا في عامي ١٩١٧ و١٩١٨ في الجوانب السياسية للمسلمين في لندن. في شهر يوليه من عام ١٩١٧ ألقى خطابًا أمام اجتماع في قاعة كاكستون (Caxton Hall). مقترح بكثال بأن يكون هناك بعثة سلام خاصة مع الحكومة التركية أفزعت أحد الحاضرين وهو من الفرْس الأرمن واسمه ملكوم خان، وهنا تآمر مع الزعيم الصهيوني حاييم وايزمن. كلا الرجلين خاف تبعات حيادية تركيا على طموحات الأرمن والصهاينة، وكلاهما قدّم اعتراضًا إلى مساعد وزير الحرب، ويليام أورمزبي ـ غور (William Ormsby-Gore). أي نية ربما كانت موجودة لإرسال بكثال أو أوبري هيربرت في بعثة سلام تم التخلّي عنها.[2]

(*) مارك سايكس هو والدبلوماسي الفرنسي فرانسوا بيكو وقعا اتفاقية سايكس ـ بيكو الشهيرة عام ١٩١٦ لاقتسام دول الهلال الخصيب بين بريطانيا وفرنسا بعد سقوط الخلافة العثمانية.

(١) Anne Fremantle, *Loyal Enemy* (Hutchinson, London, 1938), p.276

(٢) Christopher Skyes, *Two Studies in Virtue* (Collins, London, 1953), pp. 207-8

في أواخر أشهر الحرب تم استدعاء بكثال (للخدمة العسكرية) وأصبح جنديًا في الكتيبة السابعة عشرة في هامبشير وثُبّت في ساوثولد على الساحل الشرقي لسَفُك. وجد بكثال في خشونة المعاملة مع رفاقه في الرتبة نمط حياة مقبولًا بعد التوترات والإحباطات التي وجدها من أبناء وطنه من الطبقة الوسطى المغتاظين حينما وجد نفسه على خلاف مع كثير منهم. كان بكثال قد أعلن إسلامه مؤخرًا. ولكن «أُقتلعت، إن صح الكلام، في الثالثة والأربعين من عمري، من بين كل أجناس الناس،» وجدَ بكثال «وجهة نظر المسلمين هبة من اللّه، جعلتني راضيًا حيث كان من المفترض أن أكون تعيسًا جدًا.»[1] في نهاية السنة - مع نهاية الحرب - تم ترقيته إلى رتبة عريف ومسؤول عن مشفى عزل للإنفلونزا. أصبح بكثال مدنيًا مرة أخرى في شهر مارس عام ١٩١٩.

لم يكن لنشاطات بكثال الشعبية زمن الحرب أي تأثير ومُنيت بفشل ذريع. ليس من الصعب إيجاد الخلل في بعض كتاباته الصحفية. كان في بعض الأحيان يكتب، كما أقرّ هو بذلك، «في خضم الأحداث وبدون إشارة مرجعية صحيحة لكتُب الأدلّة (الكتب الزرقاء) والموسوعة البريطانية.»[2] كان يكتب لإحدى المجلات الأسبوعية الأسبوع تلو الآخر غالبًا وهي تصدر في وقت ثابت. كان يمكن أن يكون بكثال متعجرفًا لدرجة متعِبة مثل المقيمين البريطانيين الذين قابلهم في فلسطين حينما كان شابًا متلهفًا. مثلهم، كان يزعم أن له مرجعية خاصة نتيجة خبرته الخصوصيّة. ومثلهم أيضًا، قاده هذا إلى إظهار صور نمطية عرقيّة. «قد أزعم أني أعرف قليلًا عن الشخصية المشرقية، وأعرف أن الشّرقيّ يعشق المسؤول الحريص والمتحمّس حتى ولو كان سيئ المزاج أو وحشيًا أو ضابطًا حازمًا. لم تعجب بكثال الطريقة الواهنة المتوانية (في الحياة) التي تجعل الأشياء تأخذ مجراها بنفسها أو التي تقوم بواجبها فقط، كان بكثال يرى كثيرًا من هذا.»[3] دفاع بكثال عن الحكومة التركية عام ١٩١٤ كان مبنيًا على معرفته

(١) *Friday Sermons*, p.43
(٢) *NA*, 3 February 1916, XVIII, p.334
(٣) *NA*, 8 October 1914, XV, p.544

الشخصية بأعضائها. كان مستعدًا أن يجعل دفاعه مبنيًا على الإشاعة، لكن لو استخدم الآخرون نفس الطريقة في أعمدة القرّاء في مجلة (*The New Age*)، كان بكثال سيطالبهم بالدليل (على صحة كلامهم). وفي إحدى المناسبات، عندما تمت مواجهة بكثال للاعتراف أن تركيا خرقت شروط حياديتها، قبل حربها مع بريطانيا، اعترف على استحياء أن هناك «أخطاءً من الجانبين.»[1]

الكتابة الصحفية المتسمة بالانفعالية الجدلية لبكثال سرعان ما أصبحت بالية، وليس أقلّها خطأ ما تنبّأ بوقوعه. قبل خلع خديوي مصر بوقت قصير، تنبّأ بكثال أن لو كانت بريطانيا ستخلع خديوي مصر، «ستكون قد هيّجت مشاعر الهلع والثورة» ذلك «لأنه هو وذريته سيصبحون على الفور أمل الإسلام.»[2] بعد أن تم خلعه، تم احتواء مشاعر الثورة، وتوارى الخديوي المخلوع سريعًا عن أماكن التأثير. لم يكن ثمة شيء أكثر كرهًا، كما كان يتوقّع بكثال، من القول بأن الأتراك «سيتركون الطربوش ويستبدلون به القبعات.»[3] التغيير في لباس الرأس، وإن لم يكن مألوفًا، قوبل باعتراض ضئيل. بعد أن حصل التغيير هذا، دفع بكثال بقوله إن هذا الموضوع «غير مهم.»[4] بقي ولاؤه لجمعية الاتحاد والترقي أكثر مما بقيت هي. في عام ١٩١٩ غربت شمس الجمعية للأبد. ومع هذا فإن بكثال اعتقد أن الجمعية، «رغم أنها الآن في أفول إلا أنها لم تنقرض بعد. إنها اليوم أعظم مما كانت في أوج نفوذها، لأنها الآن أكثر شعبية. وزراء تركيا الفتاة، بما حل بهم من مِحَن، لهم أتباع في نصف العالم. المشرق، الذي ازدريناه، هم معهم؛ ويبدو لي أن كل المشرق سيثور ضدنا.»[5] أصبح بكثال معجبًا بشخصية أتاتورك لكنّه كان حريصًا أن يبيّن أن نهضة تركيا عام ١٩٣٢ لا تُنسب لمصطفى كمال وحده بل أيضًا لجمعية الاتحاد والترقي.[6]

(١) *NA*, 12 November 1914, XVI, p. 34
(٢) *NA*, 5 November 1914, XVI, p. 9
(٣) *NA*, 10 December 1914, XVI, p.145
(٤) *IC*, April 1932, VI, p.326
(٥) *NA*, 19 June 1919, XXV, p.129
(٦) *IC*, April 1932, VI, p.326

هناك تهمة أخلاقية خطيرة توجه ضد بكثال وهي العنصرية العِرقية. في خضمّ حنقه، لم يكن بوسعه تقبّل أي استحقاقات لدول البلقان المسيحية. كان رد فعل النمسا ضد صربيا عقب اغتيال الدوق فرانز فرديناند في شهر يونيه عام ١٩١٤ مسموحًا به تمامًا. «أعلنت النمسا الحرب ضد الصرب جادعي الأنوف، وقد استعدت ألمانيا لدعمها في الحرب، بنفس الروح تقريبا التي كنا سنرسل بها حملة عقابية ضد سفاحين أو آكلي لحوم البشر، على افتراض أنهم قتلوا أميرا إنجليزيًا.»[١] عنصرية بكثال صارت أكثر قبحًا عنما كتب عن الأرمن أنهم «شعب من الخونة والجواسيس، والمقامرين، وشهود الزور، والمتملّقين والكذابين، وليس لهم من الحياء أو الشرف نصيب. هذا هو شعب الأرمن في عيون آسيا في الوقت الراهن. قتلهم عملٌ حسن كقتل العقارب. يدنّسون الكرة الأرضية. ليس من اللطف كتابة هذا الكلام لكنها الحقيقة.»[٢]

رأى بكثال نفسه متحدثًا عن آسيا. العواطف التي ألهبتها الحرب خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة أفرزت كلمات مماثلة في الكراهية العرقية. لم تكن هذه الكلمات لتعتق بكثال. من الممكن القول إن بكثال كان ثابتًا في مواصلة منطق ولائه للحكومة التركية إبّان الحرب. من الممكن أيضًا تقديم بكثال على أنه أظهر شجاعة في مواجهة هذه القضية وإبراز وجهة النظر التركية. لكن مثل هذه التبريرات لا تقلّل من عدم الإحساس المفرط الذي أبداه بكثال تجاه الأرمن في وقت معاناتهم الإنسانية غير المسبوقة. المؤهِّل الوحيد لهذه التعبيرات الوحشية (سالفة الذكر) أن كتابات بكثال الأكثر تقديرًا، رواياته وكتاباته الدينية، تُظهِر إحسانًا كبيرًا، ووعيًا وكرامة.

---

(١) *NA*, 20 August 1914, XV, p.376. He had derived the notion of 'nose-cutting Serbs' from the account of an incident in the *The Struggle for Scutari* by Mrs M. Edith Durham, which he reviewed on 20 June 1914 in the *Athenaeum*, no 4521, p.849

مجلة العصر الجديد، عدد ٢ أغسطس ١٩١٤، المجلد الخامس عشر. استمدّ فكرة «الصرب جادعو الأنوف» من رواية لحادثة في كتاب الصراع من أجل سكوتاري لمؤلفته السيدة إم إديث دورهام، والتي كتب عنها في ٢٠ يونيه ١٩١٤ في مجلة أثنيوم، العدد رقم ٤٥٢١، ص٨٤٩

(٢) *NA*, 29 May 1919, XXV, p.19

على الرغم من أن كتابات بكثال الصحفية زمن الحرب اعتراها الخلل، إلا أن كتاباته عمومًا لها أهمية تاريخية. لفت بكثال الانتباه في كتاباته إلى الإمبراطورية العثمانية التي لم تَنَل التقدير على الإطلاق في بريطانيا. توقعاته قصيرة المدى تحديدًا كانت خاطئة بشكل محزن، لكنه تقديراته على المدى الطويل كانت أدق. كان ينافح بقوّة عن وحدة أراضي الإمبراطورية العثمانية. توقّع تقسيم السلطة في المناطق المختلفة ثقافيًا في سوريا وبلاد الرافدين، وكردستان. في عام ١٩١٥ تساءل: ماذا يمكن أن يحل محل الإمبراطورية التركية «عندما تتحوّل هذه المناطق فجأة إلى دول مستقلة؟ ستحل الحرب القَبلية في سوريا لمدة خمسين عامًا، وسيتم نهب بيروت وحرقها عدة مرات قبل أن تتحوّل، بحسب سنن الطبيعة، إلى دولة مستقلّة، وعندئذٍ ستتحوّل لا إلى دولة واحدة بل عدة دول.»[1]

هناك موضوعان بارزان في كتاباته قبل سبعين عامًا وبقيت عبر الزمن حتى يومنا هذا. أولاهما ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨، وكيف أنها كانت محاولة لإنقاذ مؤسسة سياسية ـ الإمبراطورية العثمانية ـ وكيف كانت تلك الثورة إسلامية. كان للإمبراطورية العثمانية حيويّتها الخاصة بها، وإجراءاتها الخاصة، وأنظمتها السياسية للتعامل مع الأقليات العرقية والدينية والثقافية. هناك أشخاص غربيون آخرون، ممن رحبوا بثورة ١٩٠٨، رحبوا أيضًا بالسمات الأوربية في تركيا الحديثة. يبدو أن الأتراك، كما يفترضون، أصبحوا أكثر تحضّرًا كلما شابهوا الفرنسيين أو الإنجليز. الإمبراطورية العثمانية، في اتساعها واستقرارها، كانت أنجح إمبراطورية إسلامية على مر التاريخ. كان الإسلام أساس الإمبراطورية التركية ورأى بكثال، كما رأى غربيون آخرون قلائل، أن الأتراك الشبان كانوا ملهمين بإصلاح الإسلام الذي يتطلب التعليم، والإصلاح الاجتماعي وتحسين وضع المرأة. كل هذا كان وفق تعاليم النبي (ﷺ).

والموضوع الثاني هو عالمية الإسلام. كانت سنوات الحرب سنوات اضطراب عاطفي لبكثال. أعلن إسلامه عام ١٩١٧. كانت قضية تركيا واحدة

(١) *NA*, 11 March 1915, XVI, p.503

فقط من السياسة الإسلامية. النبي (ﷺ) استهجن الشعوبية. الهوية يحددها الانتماء للإسلام وليس للوطنية. حتى عام ١٩١٤، كانت تجربة بكثال المباشرة مع المسلمين كانت مع السوريين، والمصريين والأتراك. ولكن خلال الحرب أصبح لدى بكثال وعي بأن قضية تركيا تهم المسلمين في كل مكان. أصبح عليه أن يتعرف على مسلمين من الهند. سقوط الإمبراطورية التركية كان بمثابة تهديد للخلافة التي يتمسك المسلمون بأهميتها السياسية أكثر من قضية السلطة القضائية للسلطان أو الخليفة. قضية الخلافة ارتحلت ببكثال إلى الهند.

خلال الحرب وبعدها مباشرة، كانت فترات إجهاد شخصي واضطراب لبكثال، وكتب خلالها روايتين هما من أفضل كتاباته على الإطلاق. إحداهما هي رواية **فرسان الجزيرة العربية** (*Knights of Araby*)، نُشرت في شهر إبريل عام ١٩١٧، وتحكي قصة جندي تركي بين عامي ١٩٠٨ و١٩١٣. الرواية تغطي الأساس الجدلي لكتاباته الصحفية ولكن تتجنّب الأخطاء المحرجة. كانت كما لو كان بكثال وجد سلوانًا في الهروب من الواقع المرير إلى عالمه القصصي الخاص. السياسة والكتابة الصحفية المُهلكة تؤدي إلى خلق الصور النمطية. تلك الصور النمطية تلاشت عندما استطاع أن يعطي جسمًا وهويّة للأتراك والأرمن وأن يضعهم في مزارع الزيتون في تراقيا(*) أو في مكاتب مدينة اسطنبول الثورية.

(*) تراقيا هي منطقة تاريخية وجغرافية في جنوب شرق البلقان تضم شمال شرق اليونان وجنوب بلغاريا وتركيا الأوروبية.

٣

انعطافُ التيّار
بكثال والإسلام

وَٱلضُّحَىٰ
وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ
مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ
وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ
وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ
القرآن الكريم (سورة الضحى)

في خلفية بكثال كان الأساس هو التمسّك بكنيسة إنجلترا، ولم يكن أساسًا فقط بل التزامًا. كان والده وجدّه لأبيه كاهنين. اثنتان من أخواته لأبيه كانتا راهبتين في جنوب إفريقيا. وأخت أخرى، اسمها غرَيْس، كانت حتى وفاتها عام ١٩٦٢ تزور بانتظام كنيسة تشيلَزفورد حيث كان أبوها رئيس الكنيسة.

زيارة بكثال الأولى للمشرق تمت من خلال اتصالات الكنيسة. لكنه كان غير معجب بالجالية الأوربية المسيحية في فلسطين، ذلك أنه وجدهم متكبّرين وطائفيين. حينما كان الفتى بكثال يتحدث بالعربية العامية مع الخدم، كان يبدو شاذًا عن التبشيريين المنتسبين للطبقة الوسطى المستقرّين هناك. الإرساليات التبشيرية في الشرق الأدنى كانت مادة لروايته وادي الملوك

(The Valley of the Kings) (١٩٠٩) ورواية دار الحرب (The House of War) (١٩١٦). بحلول الحرب العالمية الأولى، رأى بكثال أن المبشّرين يشكلون تهديدا مضلّلا، وهم بغطرستهم الروحية وحماقتهم السياسية يبعدون المسيحيين من رعايا الإمبراطورية العثمانية عنها، وبهذا يفتّون في عضد الإمبراطورية نفسها. «الأمر برمّته يبدو لي، كما بدا لي دائمًا، أنه أمر فاحش على نحو لا يحتمل.»[(١)] وفي نهاية الحرب يتذكر بكثال أنه حتى في الأيام التي كنت أفترض فيها نفسي مسيحيًا، كان يبدو لي مشينًا ما يفعله بلدٌ متنوّرٌ مثل بلدي، كما يدّعي، من السماح بل التشجيع، كما يظهر، للحملات التبشيرية لمضايقة غير المسيحيين عن طريق صرفهم عن دينهم داخل حدود الإمبراطورية الإنجليزية، هذه الإمبراطورية التي تعلّمتُ أنها مأوى بل مدرسة الحريات المدنية والدينية.[(٢)]

خلال العامين اللذين قضاهما في فلسطين وسوريا رُغّب في اعتناق الإسلام. لكن شيخ العلماء بالجامع الأموي بدمشق صَرَفه عن اعتناق الإسلام. نصحه الشيخ قائلًا: «انتظر إلى أن يكبر سنُّك، وتعود إلى بلدك. أنت هنا وحيدٌ بيننا، كما أبناؤنا بين المسيحيين. اللّه يعلم كيف يكون شعوري عندما يتعامل معلّم مسيحي مع ابني بغير طريقتي هذه التي أعاملك بها.»[(٣)]

في السنوات الأولى من مرحلة الرجولة التي قضاها في إنجلترا وسويسرا، واصل بكثال دوره الذي يتماشى مع خلفيته الأنغليكانية. تزوج في الكنيسة، وكان يتناول بانتظام العشاء الرباني. كان عضوًا في الكنيسة الأنغليكانية العالية[(*)]، مؤيدًا للخلافة الرسولية[(**)] ووجوب الصيام. أحد أصدقائه، وهو معاصر لأخيه، واسمه تي دبليو هايكس (T.W. Hickes)، تم ترسيمه شمّاسًا. شعر بكثال بنوع

---

(١) *Friday Sermons*, p.16

(٢) Ibid., p.15

(٣) *NA*, 10 December 1912, XII, p.103

(*) الكنيسة العالية كنيسة أنغليكانية تمزج المعتقدات البروتستانتية بتقاليد وطقوس المذهب الكاثوليكي.

(**) الخلافة الرسولية هي تتابع تسلسل الكهنوت في الكنيسة، مُنحدرًا من القديس بولص الرسول مُؤسس الكنيسة.

من الغيرة تجاه تعيين هايكس، وبخاصة «المحاسن التي تجعل من مهنتك مهنة صادقة. حياة الكاهن، كما أعتبرُها، أو كما هي ببساطة، الحياة الأكثر جمالية وتتقبّلها حياتنا المعاصرة.»(١)

في كتاباته القصصية التي أخرجها في العشرينيات والثلاثينيات من عمره، صوّر شريحة من رجال الدين. يمكن أن يكونوا شاردي الذهن لكن رحماء كما في رواية (*The Myopes*)، أو مغرورين وحاقدين كما في رواية (*Brendle*). ليس هناك أزمة ضمير. الالتزامات الدينية والتأمل الروحي غائبان.

في سنوات ما قبل الحرب مباشرة، استمر بكثال في إيمانه بالأنغليكانية. كان على وفاق تام مع وكيل الكنيسة في بَكْستِد. خلال زيارته لتركيا عام ١٩١٣ تعبّد في كنيسة القرم التذكارية في اسطنبول. لكن استغلال العاطفة المسيحية من أجل التعاطف مع رعايا لسلطان (العثماني) المسيحيين أثار اشمئزازه. وفي عام ١٩١٤ حضر بكثال تجمّعًا في كنيسة إنجلترا، وفيه أنشدت ترنيمة تشارلز ويزلي التي تنادي:

أنقذوا
الأرواح التي يقودها الدجّال:
لصُّ العرب، بذيءٌ كالشيطان
وهو الذي دمّر كليًا جماعتكم الآسيوية،

لم يكن بإمكان بكثال المشاركة بعد هذا. فـ «انسلّ بهدوء من الكنيسة ومن المسيحية أيضًا.»(٢) لكنه لم يدخل في الإسلام على الفور وعلى نحو مُعلن.

تجاذب بكثال ولاؤه لإمبراطوريتين، البريطانية والتركية، إلى حدّ الانكسار عندما نشبت الحرب بينهما. أصيب بكثال بصدمة عصبية وروحية. في السنوات الأولى من الحرب، كان بكثال منهمكًا في جهوده لشرح (وجهة نظر) الحكومة التركية. أولى الروايتين التي نُشرتا خلال تلك الفترة،

(١) Anne Fremantle, *Loyal Enemy* (Hutchinson, London, 1938), p.105
(٢) Ibid., p.227

دار الحرب (*The House of War*)، عَرَضت بأسلوب قصصي القضايا التي كان يطرحها في مقالاته الدورية لمجلة (*The New Age*). أما الرواية الثانية **فرسان الجزيرة العربية** (*Knights of Araby*) فكانت رواية أكثر إشراقًا وتعبّر عن العصور الوسطى ولم يكن بها شخصيات أوربية. على النقيض من كتاباته الصحفية، هناك الهدوء وروح الدعابة في رواية **فرسان الجزيرة العربية**، إضافةً إلى أن كل شخصياتها مسلمون.

مع حلول العام ١٩١٧ هناك تحوّلات طفيفة في محتوى كتابات بكثال الصحفية. زادت الإشارات إلى المعتقدات الإسلامية، وكذلك الاقتباسات من القرآن الكريم. كتب في يناير عام ١٩١٧ لأول مرة لمجلة **النّشرة الإسلامية والهند الحديثة** (*Islamic Review and Modern India*). كانت مقالته الأولى لهذا المكوّن الرئيس للإسلام البريطاني(*) عبارة عن أنشودة نثرية في مدح النبي (ﷺ) كشخصية تاريخية، «أدق تفاصيل تعامله وسلوكه حفظها ونقلها لنا صحابته.»[١] «كان حتى وفاته (ﷺ) مسلمًا تقيًّا، بسيطًا في عاداته، منتظمًا في صلواته، ذا عزيمة وبعد نظر في شئون الدولة، حسَن المعشر ورحب الصدر في تعاملاته الخاصة مع الناس، وصديقًا وفيًّا (مع صحابته)، وعدوًّا نبيلًا (مع أعدائه)، وأمينًا في كل الأعمال التي قام بها.»[٢]

في الصيف والخريف ألقى بكثال سلسلة محاضرات عن 'الإسلام والتقدم' أمام الجمعية الأدبية الإسلامية في نوتينغ هيل (Notting Hill) غرب لندن. خلال المحاضرة الأخيرة من هذه السلسلة في ٢٩ نوفمبر ١٩١٧، أعلن بكثال إسلامه أمام الملأ. كانت قاعة المحاضرات مكتظة بالحضور. نافح بالحجة والبيان عن الإسلام على أساس أنه الدين الوحيد المتجدّد. وأضاف أن الأديان الأخرى غير مؤهلة في ادعائها أن عقائدها تشجّع على التجديد. كان يقتبس من القرآن الكريم بالعربية كثيرًا. تلاوته، بحسب كلام أحد الحاضرين:

(*) باعتبار الهند مستعمرة بريطانية.

(١) *IRMI*, January 1917, V, p.35

(٢) *IRMI*, January 1917, V, p.37

نقلت من لم يتعودوا على الاستماع لمثل هذه التلاوات من حنجرة شخص غربيّ إلى الانتشاء. شدّ بكثال مستمعيه من البداية حتى النهاية كما لو كان معه سحر نظرًا لسعة اطلاعه، وتفكيره العميق، وأخيرًا بسبب إيمانه الحقيقي والراسخ الذي نبعت منه تلك الكلمات مبيّنة عظمة الإسلام وخيريّته. الطريقة التي ختم بها هذا الكلام الرائع ما تزال تتحرّك في داخلي. كانت يداه مقبوضتين إلى صدره، وتعلو وجهه السكينة والرضا وهو يتلو الدعوات المشهورة في أواخر سورة البقرة. حينما جلس، شعر كل واحد من المستمعين أنهم عاشوا خلال تلك الساعة القصيرة أروع وقت في حياتهم رجلًا كان أو امرأة.(١)

اتخذ بكثال اسم محمد، وأصبح أحد أعمدة الجالية المسلمة في بريطانيا.

قبل عام ١٩١٤ كانت المراكز الرئيسة للإسلام المنظم في بريطانيا تقع في كل من ليفربول ولندن ووكنغ.(٢)

في عام ١٨٨٧ هناك محامٍ من مدينة ليفربول من أصل مانكسي(*)، واسمه دبليو إتش كويليام (W.H. Quilliam)، اعتنق الإسلام بعد زيارته للمغرب. في عام ١٨٨٩ أصبح رئيس جالية صغيرة واستأجر منزلًا، في بروتون تيرَس في غرب ديربي(**)، ابتداءً من عام ١٨٩١ لإقامة الصلوات. كانت عائلته من أوائل الناس الذين جذبهم للإسلام، ومنهم والدته هارِيَت. نشر عددًا من الكتيّبات (عن الإسلام) منها **دين الإسلام والمتعصّبين والتعصّب**. من عام ١٨٩٣ إلى عام ١٩٠٨ أصدر مجلة أسبوعية بعنوان **الهلال**. زعم أن لديه ١٥٠ بريطانيًا

---

(١) *IRMI*, January 1918, V, p.4

(٢) The next few paragraphs are based primarily on early numbers of *Muslim India and the Islamic Review* and the typescript of a chapter of a forthcoming book on Islam in Britain by Mashouq Aly of the Islamic Foundation, Leicester, to whom I am much indebted.

الفقرات القليلة التالية مبنية بشكل أساسي على الأعداد الأولى من مجلة الهند الإسلامية والمجلة الإسلامية، والنسخة المطبوعة من فصل من كتاب قيد النشر عن الإسلام في بريطانيا لمؤلفه معشوق علي من المؤسسة الإسلامية بمدينة ليستر، وأنا مدين له بالكثير

(*) شعب مانكس ينحدر من جزيرة مان الواقعة في بحر إيرلندا شمال أوربا.

(**) ضاحية شمال مدينة ليفربول.

ملتزمًا بالإسلام، وأنه قام بنشاط اجتماعي لنشر الإسلام. جعل بيت المدينة مأوىً للُّقطاء والعناية بهم وتنشئتهم ليكونوا مسلمين. أسّس كويليام علاقات للتواصل مع المسلمين في العالم، وأصبح قنصل الدولة الفارسية في مدينة ليفربول وتلقى هدية شخصية من أمير أفغانستان. اشترى بهذه النقود مباني في غرب دربي استخدمت كمعهد إسلامي وسكنٍ له ولعائلته. سافر كويليام في أرجاء بريطانيا محاضرًا عن الإسلام مستخدمًا شبكات غير إسلامية مثل نوادي مانكس (Manx Clubs) وجمعيات تمبرانس (Temperance Societies). فقد بعضًا من شعبيته عام ١٨٩٦ عندما أصدر بلاغًا إلى الجنود المصريين، الذين كانوا على وشك غزو السودان لإعادة السيطرة عليها، يحثّهم على الترفّع عن حمل السلاح ضد إخوانهم في الإسلام. غادر كويليام إنجلترا عام ١٩٠٨ وباع ابنُه، بلال، تلك المباني في غرب دربي. يبدو أن حركة ليفربول تلاشت بعد ذلك.

في جيل ما قبل ١٩١٤، كانت الجالية الإسلامية العابرة في لندن، ومعظمها من الطلاب الهنود، تتزايد. تكوّن مجتمعٌ إسلامي بدءًا من عام ١٩٠٧. خلَفَ هذا المجتمعُ الجمعية الإسلامية الأم التي هي أيضًا تولت الأمور من جمعية أنجمان إسلام التي تأسست عام ١٨٨٦. في سنوات ما قبل ١٩١٤ كانت الصلوات تقام في منازل خاصة أو في قاعات مستأجرة - في قاعة ليندسي، نوتينغهام هيل غيت، وفي قاعة كاكستون. أما الاجتماعات الأكبر فكانت تقام من حين لآخر في ميدان ليستر، وفي ركن هايد بارك أو في ساحة بيكهام راي. أصدرت الجمعية مجلة شهرية بعنوان **نور العالم** (*Light of the World*)، وأعادت نشر كتاب د. ستَبْ (Dr. Stubbs) **نهضة وتقدم الديانة المحمدية**(*) (*Rise and Progress of Mohammadanism*). في عام ١٩٠٤ زعم خالد شيلدرَيك (Khalid Sheldrake) أنه «الإنجليزي الوحيد» بين المسلمين الذي استوعب الهنود والمصريين ورعايا الإمبراطورية العثمانية.[1]

(*) ألف المؤلف هذا الكتاب عام ١٦٧١، وعنوانه الفرعي: وتبرئته ودينه من وشاية المسيحيين، ولكنه لم يستطع نشره لأن فيه تعاطفًا مع عقيدة الإسلام، وكان يُتداول سرًا.

(١) *Muslim India and the Islamic Review*, January 1914, II, p.31

في ثمانينيات القرن التاسع عشر، (١٨٨٠ وما بعد)، قام مستشرق هنغاري، اسمه ليتنر (Leitner) ويعمل رئيسًا للتسجيل بجامعة البنجاب، بإقناع حاكم ولاية بوبال الهندية بتخصيص بعض الأموال لبناء مسجد في إنجلترا. تم بناء المسجد في مدينة ووكينغ بمقاطعة سري عام ١٨٨٩ وتمت تسميته باسم الحاكم شاه جهان. أيضًا تم إلحاق فندق للطلاب بمبنى المسجد. بحلول عام ١٩١٣ كان المسجد والمباني الملحقة به في حالةٍ من الإهمال.

في ذلك العام حدثت ثلاثة أحداث أعطت دفعة قوية للجالية المسلمة في بريطانيا.

في العام السابق لذلك العام ترك خواجة كمال الدين، وهو محامٍ ناجح من لاهور، مدينتَه وعملَه الناجح وقدِم إلى إنجلترا بهدف تصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام لدى العقلية الغربية، والعمل على دعوة الناس إلى الدخول في الإسلام. أصبح الشخصية القيادية للحركة الإسلامية في بريطانيا لمدة عشرين سنة قادمة.

ولد كمال الدين عام ١٨٧٠ في عائلة نبغ منها علماء وشعراء، وتلقّى تعليمه في الكلية المسيحية الرسمية في لاهور. أصبح أستاذًا ثم مديرًا للكلية الإسلامية في لاهور قبل أن يَدْرُس القانون. عند وصوله إلى إنجلترا سكن كمال الدين في ريتشموند بمقاطعة سري، وكان يعقد اجتماعاته في ركن هايد بارك قبل أن ينتقل إلى ووكنغ في صيف عام ١٩١٣ ليبدأ دعوته الإسلامية في ووكنغ. كان خواجة كمال الدين يتمتع بشخصية قوية وطاقة كبيرة ومقدرة في اللغة الإنجليزية الصارمة. كما أوتي بسطة في الجسم وتمكن بذلك من السيطرة على تلك المجموعة الصغيرة من العبّاد وإمامتهم في الصلاة. اعتبره بعض المسلمين في بريطانيا شخصًا مثيرًا للجدل. كانت له علاقة بالحركة الأحمدية، وبعضهم ينكر ـ حتى ـ أنه كان مسلمًا. ومع ذلك لا يمكن إنكار أنه كان بارعًا في تكوين صداقات، وإبراز الوحدة الموضوعية للإسلام حيث كانت تنقص مسلمي بريطانيا. تشبيهًا له بـ الحاخام الأكبر، كانت الصحافة البريطانية تسميه نيافة

خواجة كمال الدين. كان بكثال، الذي لم يره مباشرة، يسميه «سفير الإسلام.»[1] تحت قيادة كمال الدين أصبحت ووكنغ مركزًا اجتماعيًا للمسلمين في بريطانيا، ومركزًا لدعوة الشخصيات الإسلامية الأجنبية. كان من الزوار أمراء هنود، وفيما بعد كان الأمير فيصل من المملكة العربية السعودية، والأمير عبد الله من إمارة شرق الأردن، ممن زاروا مسجد ووكنغ. عانى خواجة كمال الدين من اعتلال في صحته سافر على إثره إلى الهند في رحلة علاج طويلة. كان يغيب عن ووكنغ لعدة أشهر في المرة الواحدة ـ ومرة لأكثر من عام ـ يزور خلالها الأجزاء البعيدة من الإمبراطورية البريطانية بينما يكون على اتصال مع المسلمين.

في خريف عام ١٩١٣ أصدر كمال الدين العدد الأول من مجلة **الهند المسلمة والمجلة الإسلامية** (*Muslim India and the Islamic Review*). في السنوات اللاحقة تم تغيير اسم المجلة إلى **المجلة الإسلامية والهند الحديثة** (*Islamic Review and Modern India*) إلى أن استقرت تسميتها عام ١٩٢١على **المجلة الإسلامية** (*Islamic Review*). عناوين المجلة السابقة تشير إلى المصدر الرئيس للإلهام تجاه الإسلام في بريطانيا. خلال ترؤس كمال الدين تحرير المجلة كان لها ثقل المجلة الفيكتورية الرُّبعية ومجلة الأبرشية. كانت المجلة الإسلامية تنشر أخبارًا عن اعتناق الإسلام وتقارير عن الإسلام من الصحافة. كانت تبقي قرّاءها على اطلاع بالفعاليات الدينية والاجتماعية. كانت المقالات تشرح موضوعات عن المعتقد الإسلامي والفقه الإسلامي. نصف صفحة في كل عدد تحوي الشهادتين باللغة العربية ومكتوبة بالحروف اللاتينية (مُنَقْحَرَةً)(*)، ويُدعى القراء لإعلانها والتوقيع عليها وإرسالها إلى ووكنغ. كان هناك متحمس يكتب بانتظام مقالة عن الإسلام بلغة الإسبرانتو.(**) من خلال الأعداد الأولى للمجلة يتجلى للمرء تصورٌ عن نشاطات الجالية. الصور الشخصية أو الجماعية لرجالٍ من الطبقة الوسطى يرتدون ملابس جيدة، ولنساء في مقاهي

---

(١) *IR*, April 1933, XXI, p.141

(*) أي منقولة حرفيًا transliterated.

(**) الإسبرانتو (Esperanto) لغة مصطنعة سهلة، اخترعها لودفيغ أليعازر زامنهوف كمشروع لغة اتصال دولية عام ١٨٨٧ (م).

لندن العصرية يمكن أن تكون للكويكريّين(*) أو العقلانيين. مِثْل الفابيين وعلى خلاف الماسونيين، كان هناك نساء بارزات وناشطات في هذه الحركة. تنتهي المقارنات حين نلاحظ الاهتمام الدولي (على مستوى الأفراد) بفعاليات الإسلام في بريطانيا والأعداد الكبيرة من الهند ومصر المشاركة فيها.

الحدث الثالث لعام ١٩١٣ والذي يمثل أهمية للإسلام في بريطانيا كان في شهر ديسمبر حينما أقدم عضو من مجلس اللوردات على إعلان إسلامه، وهو البارون الحادي عشر هيدلي (Baron Headley). لم يكن هيدلي الشخصية المرموقة الأولى لتفعل ذلك. اللورد ستانلي من بلدة ألديرلي (Lord Stanley of Alderley)، اعتنق الإسلام قبله بنصف قرن، وهو عم (الفيلسوف الشهير) برتراند رسل. كان هيدلي مهندسًا مدنيًا وقد عمل في الهند. ألقى بنفسه في نشاطات حركة إسلام بريطانيا. كان يكتب بانتظام في **المجلة الإسلامية** وقد حج مع كمال الدين عام ١٩٢٣. اعتناق هيدلي للإسلام جلب انتباه محبي الاطلاع من الشعب البريطانيين نحو الإسلام، ليس كدِين همجي للملالي والمهديين أنصاف المتحضرين، لكن كدِين يمكن أن يكون له معنىً للأفراد البريطانيين.

هذه الأحداث الثلاثة هي التي دفعت الإسلام في بريطانيا وأعطته مؤشرًا لقبوله. نخبةٌ من البريطانيين المتحولين إلى الإسلام، ومعظمهم من الطبقة الوسطى، كانوا على اتصال فيما بينهم، وكانوا يؤدون الصلاة مع بعضهم في الأعياد بحسب التقويم الإسلامي. عمل كثير منهم في الخارج، في بلاد إسلامية وخاصة الهند، وكانوا معجبين بإيمان وسلوك زملائهم المسلمين. وحول هذه النخبة كان العدد الأكبر من أفراد الجالية من الزوّار العابرين لبريطانيا، وهم في الغالب طلاب من بلدان إسلامية، وبخاصة الهند وأيضًا من شبه جزيرة الملايو وغرب إفريقيا. في عام ١٩٢٤ تم إحصاء عدد المنتظمين للصلاة في مسجد ووكنغ وبلغ ثلاثين، وهناك ألف مسلم بريطاني منتشرون في أنحاء بريطانيا وعشرة آلاف مسلم من الخارج. من بين المسلمين البريطانيين العلّامة البروفيسور هنري

(*) جمعية الأصدقاء الدينية أو الكويكرز، والتسمية الأكثر شيوعًا الكويكرز، هي مجموعة من المسيحيين البروتستانت أُنشئت في القرن السابع عشر في إنجلترا على يد جورج فوكس.

مارسيل ليون (Professor Henri Marcel Leon) الذي ألّفَ بلغات مختلفة منها التركية، في عدة موضوعات ـ النوم، الزواحف، ولغة المانكس. هناك مسلمون نشطاء آخرون ومنهم الدكتور أمين نَفيل جَي وايمِنْت، والبروفيسور نور الدين ستيفن، ويحيى جون باركنسون والنقيب آر ليق وزوجته وأبناؤهم أحمد وصافية وسليم وجميل.

إعلان بكثال إسلامه في شهر نوفمبر عام ١٩١٧ كان نقطة التحوّل في حياته. حين اقترب بكثال من إعلانه إسلامه لملم حطام حياته العاطفية والشخصية التي مزقتها الحرب. ربط هوّيته بمسلمي العالم وبنهاية عام ١٩٢٠ ذهب إلى الهند.

صفاءٌ جديدٌ دخل حياة بكثال. نجد هناك في كتاباته، كفاحًا أقل للتأثير. لم يعد يستخدم كلماتٍ غامضة. أصبح الهدوء الشخصي والحماس جنبًا إلى جنب فيما يكتب. في شهر ديسمبر عام ١٩١٩ نشر رواية السير ليمبدوس (*Sir Limpidus*)، وهي آخر رواياته الإنجليزية. وفي شهر مارس عام ١٩٢١، ظهرت روايته التركية، **الضُّحى** (*The Early Hours*). عندما كان في الهند نُشرت له آخر مجموعة قصصية في شهر أكتوبر عام ١٩٢٢. بعد ذلك نشر قصتين قصيرتين. كل ما كتبه ونشره بعد ذلك كان مرتبطًا بالإسلام بطريقة أو بأخرى؛ وعلى الرغم من أن الإسلام غيّر اتجاهه، لا نجد تباينًا في جودة ما كتبه. رواية السير ليمبدوس تُقرأ ولكنها ليست أسوأ من رواياته الإنجليزية الأخرى. رواية **الضّحى** جيدة مثل أفضل رواياته عن المشرق.

بعد إعلانه إسلامه أمام بعض الشهود تبوأ بكثال مكان الريادة بين المسلمين البريطانيين. خلال أشهر معدودة أصبح إمامًا للصلاة بمسجد لندن. في شهر إبريل عام ١٩١٨ ألقى خطبة عن «مملكة الرب.» في أوائل عام ١٩١٩ كان يؤم الناس في صلاة الجمعة في لندن. كتبت **المجلة الإسلامية** في تقريرها عن ذلك أن:

خُطَب بكثال اتصفت بسعة اطلاعه ومعرفته الواسعة، كما تميزت بشرحه البارع والمتمكّن لموضوعات مألوفة في القرآن الكريم. وكان

ترتيله للنصّ العربي للقرآن الكريم الأكثر تأثيرًا. نحن واثقون أن أصدقاءنا الإنجليز قد سرّهم رؤية أحد أبنائهم يؤمّ الصلاة باللغة العربية في جماعة من مختلف الأجناس.[١]

خلال عام ١٩١٩ كان خواجة كمال الدين خارج بريطانيا في إجازة مرضية مطوّلة. كان بكثال، باعتباره عارفًا باللغة العربية، يقوم بعمل الإمام في مسجد لندن وفي مصلّى المسلمين في شارع كامدن هيل بمنطقة نوتنغ هيل (Notting Hill) حتى وصول مساعد (لكمال الدين) في فصل الخريف. الخُطب التي تُلقى كانت تُنشر في ووكنغ باسم **خُطبُ الجمعة**. أمَّ بكثال الناس في صلاة عيد الفطر في شهر يونيه عام ١٩١٩. كان بكثال رئيسًا بالإنابة لتحرير **المجلة الإسلامية** لعدة أشهر. وفي الوقت ذاته، كان يواصل اهتماماته السياسية الإسلامية، وفي شهر أكتوبر ١٩١٩ تزعّم يوم الدعاء للخليفة في مصلّى المسلمين. هاجم بكثال في خطابه القوى الغربية لتجرُّئها على تقرير من يكون الخليفة. «قضية الخلافة ليست من اهتمام المسيحيين إلا إذا اهتم المسلمون بتقرير من سيكون بابا روما... قَبِل العالمُ الإسلامي السلطانَ العثماني ليكون خليفتهم بكل حماس وتعاطف جيّاش.»[٢]

في ثنايا خُطَبه وخطاباته، كان بكثال يتلو آياتٍ من القرآن الكريم باللغة العربية. ويترجم معانيها إلى اللغة الإنجليزية. هذه الترجمات تدريجيًا أصبحت الأجزاء التي كوّنت عمله الجوهري الأخير (ترجمة معاني القرآن الكريم). شعر بمسئولية خاصة كزعيم للمسلمين في بريطانيا. كانوا، كما قال، «في وضع يشبه المسلمين الأوائل في مكة، في الأيام التي كان يُنظر فيها إليهم كضعفاء ومُهمَلين.» كانت لديهم مهمة إزالة المعتقدات الخاطئة. «اجعلوا إسلامكم محترمًا ويمكن الإيمان به في دوائركم، وكذِّبوا من يقول أشياء مغلوطة عن الدِّين.»[٣]

---

(١) *IRMI*, April 1919, VII, p.122

(٢) *IRMI*, November 1919, VII, p.407

(٣) *Friday Sermons*, p.40

اضطلع بكثال بأسلوب مندفع بمسؤوليات الرعاية الدينية لإرشاد جماعته، بل زجرِها أحيانًا. في عام ١٩٢٠ كان ناقدًا لسلوك الطلاب المسلمين الأجانب في إنجلترا. لكنه سلّم بأن:

لديهم أعذارًا. منها التغيير من مجتمع يغطّي فيه النساءُ البالغات وجوههن، ويعتبر ظهور شكل أجسادهن محظورًا. كذلك المغريات التي تنهال على القادمين الجدد من المشرق من كل ركن لا يمكن تصوّرها من قِبل الأوربيين. لكنّ الضرر الذي يحدث للإسلام بسبب سوء سلوك المسلم هنا في إنجلترا لا يمكن قياسه. هذا يعطي الشعب الإنجليزي فكرة خاطئة تمامًا عن المفاهيم الإسلامية للأخلاق. المسلمون متشدّدون كثيرًا فيما يخص العلاقة بين الجنسين؛ إنهم يرفضون كل أشكال التراخي في السلوك تجاه النساء. من يفكّر هكذا، أنا أسألكم، وهو يشاهد سلوك بعض المسلمين هنا؟»(١)

كان بكثال يتفهّم الصعوبات التي تواجه «مجموعة صغيرة من المسلمين ذوي الأصول البريطانية الخالصة، خلال شهر رمضان. يتوجّب على المسلم الصيام خلال الشهر القمري من شروق الشمس (هكذا) حتى غروبها. في الأعوام ١٩١٨ و١٩١٩ و١٩٢٠ كان الصيام يَحلُّ في فصل الصيف حيث كان على المسلم في بريطانيا أن يصوم ثمانيَ عشرة ساعة. لا يمكننا تغيير ذلك، قال بكثال. تبقى الصعوبات على حالها، ولذلك يتعين علينا بذل أقصى طاقتنا لصيام شهر رمضان... إذا عوّدتَ نفسك أحيانًا على الإمساك عن الأشياء المسموحة، والأشياء الضرورية للحياة، أنت تتعلّم أن تراها نِعَمًا كما هي حقيقة، وتصبح راضيًا بها؛ وتفقد اشتياقك للأشياء الضارة وغير الضرورية.»(٢)

كان بكثال عمليًا في نصيحته للذين لم يصوموا من قبل. ينبغي عليهم «تناول القليل الذي يحافظ عليهم من الشعور بالإغماء، ولنقل كوب من الشاي

(١) *IRMI*, November 1920, VIII, p.406

(٢) *IRMI*, December 1920, VIII, p.458

مع شريحة من الخبز حينما تستيقظ، وعند الساعة الثانية أو الثالثة (هكذا). إذا فعلتَ هذا طوال الشهر ستجد نفسك في العام التالي تستطيع الصيام بالكامل.»[١]

كتب بكثال بغزارة عن جوانب مختلفة من الإسلام خلال التسعة عشر عامًا من إعلانه إسلامه أمام الملأ حتى وفاته. عانق هوّية المسلمين في العالم وكان يقول «نحن المسلمين.» كان دقيقًا في أداء واجباته الدينية، حيث كان يصلي بانتظام وغير مكترث تمامًا بالمقتنيات الشخصية وحتى حياته الخاصة. كان يصوم رمضان رغم صعوبة ذلك الفرض. يجب على المسلمين ألا يدخّنوا خلال نهار رمضان، وكان بكثال مدخّنًا شرهًا وكان يدخّن السيجارة أو الغليون حتى وهو يكتب. «أستطيع أن أبقى بدون طعام أو شراب،» كما كتب عن نفسه، وهو يتفكر في كثير من المسلمين غيره، «لكن لا أستطيع البقاء بدون دخان.»[٢] لم يتمكن من أداء فريضة الحج. كلّ الخطط للحج التي رتّب لها بعناية لم يكتب لها التوفيق.

جميع المسلمين الذين عرفوه يقولون إنه كان «مسلمًا جيدًا.» كما كانت هناك أمانة وصدق في كتاباته القصصية، كانت هناك أمانة وإخلاص في حياته الدينية. كان شاهدًا بنفسه على إيمانه. كان يقوم بالوعظ والكتابة والشرح والتشجيع. اضطلع بالمهمة العظيمة لنقل معاني القرآن الكريم إلى صيغة ميسّرة للمسلمين الناطقين بالإنجليزية.

بين عامي ١٩١٧ و١٩٢٠ ظهرت معظم كتاباته عن الإسلام في **المجلة الإسلامية والهند المسلمة**. بعض كتاباته كانت عبارة عن سلسلة مقالات وخُطَب تمت طباعتها منفردة في كتيّبات. بالإضافة إلى نشرة **خُطب الجمعة**، هناك سلسلة كلمات ألقاها عام ١٩١٩ عن الحرب تمت طباعتها بعنوان **الحرب والدّين** (*War and Religion*)، طُبعت في ووكنغ عام ١٩١٩ وتُرجمت إلى اللغة الإندونيسية ونُشرت في باندونغ. الكلمات التي ألقاها عام ١٩١٧ نُشرت بعنوان **الإسلام والتطوّر** (*Islam and Progress*) في مدينة لاهور عام ١٩٢٠. كان

---

(١) *IRMI*, December 1920, VIII, p.459

(٢) Anne Fremantle, p.381

يكتب بانتظام وبسرعة. عصارة فكره الإسلامي ظهرت في سلسلة محاضرات ألقاها في مدينة مدراس عام ١٩٢٥. جميعها تم نشرها في مجلة الثقافة الإسلامية، وبعد ذلك نُشرت عام ١٩٢٧ في كتاب بعنوان الجانب الثقافي للإسلام (*The Cultural Side of Islam*). حظي نشر الكتاب بتاريخ حافل. أُعيد نشره عام ١٩٥٨ بواسطة دار فيروز وأبنائه في لاهور بعنوان الثقافة الإسلامية (*Islamic Culture*)، كما أعادت نشره دار كتاب بهافان في نيو دلهي عام ١٩٨١ بعنوانه الأصلي ولا يزال ضمن الكتب المنشورة.

كان بكثال مسيحيًا ملتزمًا خلال النصف الأول من حياته الراشدة، ومسلمًا ملتزمًا فيما تبقى من حياته. من خلال كتاباته يمكننا رؤية جوهرٍ مشتركٍ بين الديانتين. الشهادة هي إعلان الدخول في الإسلام ولفظها «أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمد رسول اللّه.» الجزء الأول منها هو نفسه ما يؤمن به المسيحي. جاء في موعظة لبكثال عام ١٩١٩: «إذا أمعنت النظر في الديانات العالمية المختلفة، تجد أنها جميعًا أتت أساسًا لنشر حقيقة واحدة، وحفظ أثرها بعيدًا عن ركام الخرافات. تلك الحقيقة هي وحدانية اللّه الأزلية.»[1] إن قبول قدرة اللّه المطلقة هي حقيقة مشتركة في دين بكثال كمسيحي وكمسلم. ذلك هو واجب الجميع لتعظيم اللّه وتقديره وإخضاع أنفسهم له. «حين نخدم أصدقاءنا أو قرابتنا، أو بلدنا أو جاليتنا الدينية بدون إخلاص أنفسنا للّه الذي هو واجب كل واحد منا، أو بدون التفكر في الغاية الكونية للّه، فإننا نكون قد عظّمنا قرابتنا أو بلدنا على حساب قرابة الناس الآخرين وبلدانهم، ونكون قد ألحقنا بهم الضرر عوضًا عن نفعهم فيما يتعلّق بالإنسانية.»[2]

رأى بكثال في كلمة 'مسلم' أنها ليست (فقط) وصفًا للملتزم بعقيدة 'الإسلام'، بل ما تعنيه الكلمة باللغة العربية 'الذي أسلم نفسَه بالكلية' للّه. كان إسلام بكثال عالميًا وشموليًا. كان إبراهيم (عليه السلام) مسلمًا «والمسيح عيسى (عليه السلام)

---

(١) *Friday Sermons*, p.33

(٢) Ibid., p.5

سيقف معنا، نحن المسلمين، يوم يقوم الحساب.»[1] بالنسبة إلى موقف النبي محمّد (ﷺ) فإن النصارى الموحّدين كان بوسعهم... أن يكونوا مسلمين؛ كذلك اليهود الذين يرفضون كهنوت وخرافات الأحبار كان بوسعهم مثل ذلك.»[2] وفي الحقيقة يمكن أن «يصبح الرجل في بعض الظروف مسلمًا دون أن يعرف ذلك.»[3]

هناك موضوع ثابت في كتابات بكثال الدينية وهو أن الخلاص يعتمد على السلوك: سلوك المرء، وإن كان ليس أساسيًا، إلا أنه مهم للمسيحي. قال بكثال في إحدى مواعظه: «من عمل صالحًا سيؤجَر، ومن عمل سيئًا سيحاسب، ولا يوجد إيمان بأي معتقد سينقذ المرء، أو المرأة، من عواقب السيئات.»[4] هذا الجانب الإيماني جعل لبكثال تسامحًا واسعًا لوجهات النظر. بعد ست سنوات من ذلك تحدث بكثال إلى جمع من المستمعين في مَدْراس قائلًا: «في مملكة اللّه لا تفضيل لأحد. القانون السماوي واحدٌ على الجميع، وغير المسلمين الذين يسيرون على هذا القانون هم أكثر حظًا من المسلمين الذين يهملون أو يعصون مفاهيمه.»[5] سلوك الشخص يغطي كافّة مناحي الحياة. إنه «سلوك المرء في كل تفاصيل حياته؛ سلوك المرء تجاه أخيه الإنسان، وتجاه نفسه وتجاه الحيوانات والنباتات وكل حياة على وجه الأرض.»[6]

ذلك لأن اللّه خالق كل الخلائق. وسنّة اللّه هي السنّة الطبيعية. قبل أن يصبح بكثال مسلمًا، سرد قصة مقتبسة من الجبرتي، المؤرّخ المصري، لاحتلال مصر من قبل جيش نابليون. أراد نابليون إخافة الناس المضطربين:

«عن طريق تطيير منطاد كبير مملوء بالهواء. ضحك الناس عليه قائلين: «انظروا إلى ذلك المخلوق ينسب إلى نفسه فعل شيء لم يكن بإمكانه فعله

(١) *Friday Sermons*, p.5
(٢) *The Cultural Side of Islam*, p.101
(٣) *IRMI*, January 1918, VI, p.8
(٤) *Friday Sermons*, p.10
(٥) *The Cultural Side of Islam*, p.23
(٦) *IC*, January 1927, I, p.106

لولا إرادة اللّه!» وأضاف بكثال «اقرأ سنن اللّه الطبيعية التي عُرفت أو يمكن معرفتها أو التي لا يمكن معرفتها، وسيكون لك تصور واضح عن إيمان المسلمين». «تفاخُرُ الأوربي باختراعاته، وإهمالُه شكرَ اللّه على ذلك، يصدم المسلمين تمامًا.»[1]

الإسلام يشجع على دراسة الظواهر الطبيعية، لأنها تدور حول عظمة خلق اللّه. في إحدى أوائل خُطَبه، تأمل بكثال تدمير مقاطعة فلندرز.[*] «إن أفعال الإنسان الأكثر وحشية لا يمكنها تغيير السُّنن الطبيعية. سينبت العشب مرة أخرى على ميادين المعارك، وستتفتح الزهور البرية في الحفر التي أحدثتها القذائف المتفجرة.»[2] إن أوامر الرسول (ﷺ) وتلك الواردة في القرآن الكريم ليست أكثر من حثٍّ على موافقة السنة الربانية. أولئك الذين يتبعونها سيفلحون، أما الذين يتركونها سيخسرون.»[3] لذلك فإن عواقب تحدّي القانون الإسلامي ستكون مصادمةً للقانون الفطري كتبعات تحدّي قانون الجاذبية.

إن الإيمان بالقدرة الخارقة للّه يقتضي الحاجة للاستسلام لإرادته، وإن مسئولية الفرد الأخلاقية والقانون الطبيعي الذي يُنظر إليه كسُنّةٍ إلهية؛ كل ذلك عبارة عن مبادئ دينية كثيرة كان بكثال يتمسك بها كمسيحي وكمسلم (فيما بعد).

الجزء الثاني من الشهادتين هو الشهادة للنبي محمد (ﷺ) أنه رسول اللّه، وهذه هي نقطة الخلاف مع المسيحية.

أحب بكثال «الرسول (ﷺ) كما يحب الرجل صديقه.»[4] كان للنبي (ﷺ) روح الدُّعابة التي تتميز بالحكمة والدماثة.»[5] وعلى الرغم من صفاته هذه (ﷺ)، كان لا يدّعي لنفسه درجة التقديس التي أضفاها المسيحيون المخلصون على

---

(١) *NA*, November 1912, XII, p.79

(*) تقع شمال بلجيكا اليوم، وذلك خلال الحرب العالمية الأولى.

(٢) *IRMI*, January 1918, VI, p.7

(٣) *IC*, April 1935, IX, p.370

(٤) *IRMI*, February/March 1917, V, p.57

(٥) *IC*, April 1935, IX, p.368

شخص المسيح عيسى (ﷺ). لم «يدّعِها النبي (ﷺ) لنفسه(*)، ولا طلبها المسلمون له»[1] وعلى النقيض من عيسى (ﷺ) الذي أعلن أن مملكة الرب ليست في هذه الدنيا، فإن النبي محمدًا (ﷺ) شدّد بوضوح على الحاجات الدنيوية ووضع لهم قوانين (تنظّمها).

كان هذا الجانب هو الذي جعل للإسلام السبق على المسيحية. إرشاد السلوك في هذه الحياة ورد في القرآن الكريم وفي أقوال النبي (ﷺ) الصحيحة وفي سنّته، وهي التقاليد الرسمية في الإسلام. «يعلن القرآن الكريم باستمرار أنه تأكيد لحقيقة كل الأديان.»[2] يقول بكثال «إن ما يحتاج إلى إضافة وتكملة في المسيحية ليس الجانب الروحي الذي أتت به تعاليم المسيح ببساطتها الأصلية؛ ولم تكن المسيحية ناقصة من حيث الجانب الإنساني... القرآن الكريم يكمّل تعاليم المسيح بتقديم قوانين ينبغي على المؤمن الحق مراعاتها في شئون مثل التجارة، الحُكم، السياسة الدولية، والحرب.»[3] ختَمَ النبي محمد كل مسائل الاعتقاد والأخلاق. وضع الإسلام مجموعةً متكاملةً من الأوامر والنواهي تجاه السلوك الاجتماعي والشخصي. أكّد بكثال على أهمية قبول هذه الالتزامات. «الدِّين يعني كلّ ما هو مُلزِم للإنسان. هل باستطاعة أحد القول إن تعاليم مسيح الناصرة ملزمة للمسيحيين بنفس معنى أن تعاليم النبي العربي ملزمة للمسلمين؟»[4] هذه الفرائض هي النطق بالشهادتين، الصلوات المكتوبة، إيتاء الزكاة، صوم شهر رمضان وأداء فريضة الحج. إضافة إلى ذلك، كل مسلم عليه جهاد النفس. الجهاد ليس العنف، لكنه العزيمة لعمل الأفضل، ومحاربة قوى الشر، «سواء أكانت في ضميره هو، أو في عمله، أو في السوق، أو في قاعة الشورى، أو في ميدان المعركة.»[5]

(*) هنا إشارة إلى الحديث الصحيح: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم...» الحديث.

(١) *IC*, January 1937, XI, p.154

(٢) *The Cultural Side of Islam*, p.96

(٣) *IRMI*, April 1919, VII, p.131

(٤) *IRMI*, August 1918, VI, p.335

(٥) *IRMI*, May 1919, VII, p.174

رغم أن بكثال كان يخاطب قرّاءه المسلمين عمومًا في كتاباته الدينية - في مجلة المجلة الإسلامية أو في محاضرات مدراس - إلا أنه كان عادةً ما يشرح ويفسر الإسلام من خلال تصورات غربية. كان يكتب كثيرًا عن الحاجة للتمييز بين التصوّر الإسلامي (دائمًا خير) والممارسة الفردية للمسلم (تكون شرًا في بعض الأحيان). عندما يتعامل مع شيء مستهجن في تصرفات المسلمين كان ينتقده من وجهة النظر الإسلامية. ولكنه كان يواجه اعتراضات مباشرة منصفة من غربيين ومسيحيين على الإسلام. عالج بكثال في مسار كتاباته بصراحةٍ حرية الإرادة، التسامح الديني، الرّق، مكانة المرأة، والحرب.

التسليم بمشيئة اللّه لا تعني نفي إرادة الشخص أو مسئوليته عن شروعه (في فعله). كان الجهاد، بالنسبة إلى بكثال، مفهومًا إيجابيًا تمامًا. كان يستشهد بأحد الأمثال العربية، «اعقلها وتوكّل»[1] السعي من أجل الثراء أو لغاية شخصية عمل منافٍ لروح الإسلام. لكن فرض الجهاد يعني المجاهدة المستمرة من أجل الوصول إلى الأفضل، وبذل الجهد «لتأكيد وترسيخ سلطان اللّه في عقول الناس، وأداء الواجبات الدينية كما هو مبيّن في القرآن الكريم - وهي مجاهدة يجب أن تستمر مع الشخص طوال حياته، كما يجب أن تَحْكُم كل فعل في حياته، وإلا لم يكن مسلمًا حقًا.»[2] أُعطي الإنسان حرية الإرادة لممارسة هذا الجهاد ولإظهار التزامه بأحكام اللّه من خلال سلوكه. يقرُّ بكثال بأن هناك الكثير من القدرية في تعاليم المسلمين وأفعالهم. لكنه تنحى جانبًا عن المسألة الفلسفية حول القدريّة بقوله إنها كانت «مسألة، مثل تعريف الأزلية، التي هي فوق فهمنا، وهي إحدى المسائل التي نبهّنا القرآن الكريم إلى تركها.»[3]

التسامح الديني بالنسبة إلى المسيحيين الأوربيين هو فضيلة علمانية. ولكن بحسب وجهة نظر بكثال، إن التسامح هو واجبٌ على المسلمين.

---

(١) *Islam and Progress*, p.28

(٢) *The Cultural Side of Islam*, p.125

(٣) Ibid., p.117

الإسلام يدعو إلى العدالة مع كل الناس، قبول كل الأفكار المخلصة، احترام كل الناس الطيبين أينما وجدوا.. أود أن ألفت أنظاركم بكل تأكيد إلى الحاجة لنشر وممارسة هذه الفضيلة بدون توقف، وهي فضيلة التسامح الإسلامي. نحن منهيون عن سَكْب إناء الخمر لغير المسلم. ومنهيون أيضًا عن الكلام عن دينه بطريقة تجرح مشاعره. التسامح الإسلامي عبر التاريخ أقوى داع لنا لمخاطبة العالم. التسامح الإسلامي كفيل مستقبلًا بتضميد جراح الإنسانية.[١]

حين أكد النبي (ﷺ) على السلوك الأخلاقي، فإنه في الوقت نفسه قلّل كثيرًا من أهمية الإيمان بالاعتراف (لدى المسيحية). وتبعًا لذلك؛ إن التسامح الديني هو «جوهر الإسلام حقيقةً. القرآن الكريم يبرز هذا، والنبي (ﷺ) في حياته كنبيٍّ وكقائدٍ بيّن كيفية ممارسته في الحرب والسلم. إنه كان أول من أعلن بعبارة لا تحتمل الالتباس أن اللّه يثيب عمل البر من كل دين وبلد. «ومع هذا، يقرّ بكثال أن من المسلمين مذنبين بعدم التسامح. لم يكن هذا صوابًا. «قطعًا لا، حينما نفعل هذا فإننا نقدم صورة خاطئة عن ديننا.»[٢]

لكن بكثال واصل حديثه ليرسم حدودًا للتسامح. «الشر ليس مساويًا للخير، والشر متى ما أطل برأسه يجب أن يُقمع، وبحزم.»[٣] وفي المقابل، يلفت بكثال الانتباه إلى أمثلة كثيرة للتسامح الإسلامي، وعلى رأسها الحرية المعطاة للجاليات المسيحية. وعندما أصبح العالم المسيحي بدوره متسامحًا، فإنما يتبع سياسة إسلامية. «القانون المدني في إنجلترا اليوم فيما يتعلق بعدالته مع جميع الديانات والأجناس أكثر إسلامًا من المسلمين ذوي التفكير الضيق.»[٤] التسامح رافدٌ للنجاح. عندما كان المسلمون متميّزين باستقامتهم، وبإيمانهم البسيط، وبتسامحهم، كانوا ناجحين جدًا على المستوى السياسي. وهناك تباين بين الموقف القمعي للعالم المسيحي تجاه المنشقّين والأقليّات، وتعامل الإسلام المنظّم تجاه الجاليات المسيحية.

---

(١) Ibid., p.192

(٢) *IRMI*, March 1919, VII, p.90

(٣) *IRMI*, March 1919, VII, p.94

(٤) *IRMI*, March 1919, VII, p.96

في العديد من رواياته الأخيرة، وصف بكثال وضع الموالي في البلدان الإسلامية. البيوت التي كانوا يعيشون فيها تعامِلُهم بالمودّة. كثير من الموالي أصلًا كان لهم شأن في التاريخ الإسلامي. الشخصية الرئيسة في رواية **أبطال الجزيرة العربية** (١٩١٧) هو ملك من نسل مملوك. الإسلام أباح استرقاق أسرى الحرب لكن النبي محمدًا (ﷺ) أمر بإطعامهم وكسوتهم. «كان المملوك أو الأمَة يعتبران مثل الابن أو البنت في المنزل، ويرثون في حال عدم وجود وارث.»[1] تحرير الأرقّاء يعتبر عملًا فاضلًا. «كانت تجارة الرقيق مثار ذعر وغير جائزة في الإسلام. لا أقول إنه لم تكن هناك إساءات في العالم الإسلامي، لكنّي أقول إنها لم تكن كما كان يتخيّلها الأوربيون، وليس هناك تشابه مع الأشياء التي كانت تُسمّى بأسماء شبيهة في العالم المسيحي.»[2]

خصّص بكثال، كغيره من شرّاح الإسلام، كثيرًا من اهتمامه بدور المرأة. جعل ذلك موضوع العديد من خُطبه ومقالاته. كما كان موضوع المرأة الموضوع الرئيس في إحدى رواياته، وعلى نحو أقل ومتكرر في رواياته الأخرى. كان استغراق بكثال في تناول هذا الموضوع دفاعيًا. في بلدان إسلامية، يحتكر الرجال النفوذ والسلطة والموارد، ولم تتغيّر تشريعاتُ تنظيم المِلْكية في القرآن الكريم. وبحقٍ، إن الحدّ من حقوق المرأة يعطي شرعيةً وديمومةً للانحياز نحو السلطة الأبوية، وخصوصًا أن الرجال هم الذين يحدّدون هذه الحقوق.[3] يقرّ بكثال في رواياته بحدوث مظالم فظيعة نابعة من عدم المساواة هذه. بكثال حسّاس تجاه حقوق المرأة لكنّ الأخطاء تنبع من ذنوب الناس وليس من الإسلام. في عام ١٩١٩ كتب بكثال عن «مكانة المرأة في الإسلام.» بعد ثمانية أعوام ألقى محاضرةً عن نفس المحتوى تقريبًا، ولكنّه أعطاها عنوانًا أكثر لباقة وهو: «العلاقات بين الجنسين،» وفي هذا تحوّل واضح عن نقطة الاهتمام.

---

(١) *The Cultural Side of Islam*, p.34

(٢) Ibid., p.35

(٣) A point made by Malise Ruthven, *Islam in the World* (Penguin Books, Harmondsworth, 1984), pp.165-6

هذا رأي ماليز روثفِن في كتابه الإسلام في العالم المنشور عام ١٩٨٤

قال بكثال أكثر من مرة إن نبي الإسلام (ﷺ) «ربما كان أعظم شخص عرفه العالم مُراعيًا للنساء، باعتبار البلد والعصر الذي عاش فيه.»[1] خلال القرن السابع كان على النساء في شبه الجزيرة العربية احتمال كثيرٍ من المهانة، وكانت الرضيعة يتم في بعض الأحيان دفنها وهي حيّة. لكن النبي (ﷺ) نظّم وضع المرأة. فقد تولّى حماية حقوقهن وحق تملّكهن، كما دعا إلى تعليمهن. ونهى عن ضرب الزوجات. وصان كرامة المرأة. «وجد محمّد قبله نهْجًا يأذن للرجل في الشهوات دون حد، فجعل منه نظامًا اجتماعيًا مهذّبًا،»[2] يعطي النساء حقوق مساوية لتلك التي للرجال في الشريعة. وقد بيّن القرآن الكريم أن النساء والرجال متساوون عند الله.[3]

إن استغلال المرأة ليس له ما يبرّره في الإسلام. «لا يوجد نص في القرآن الكريم، ولا من أقوال الرسول (ﷺ)، يمكن الاستناد إليها لتبرير حرمان النساء من المنافع الطبيعية التي جعلها الله لكل الناس ـ أشعة الشمس، الهواء الطلق، الحركة الصحّية ـ ولا سجنهن مدى الحياة مما يسبب سنويًا وفاة آلاف النساء، والله يعلم وحده كم مات من الأطفال، بسبب الإنهاك، أو فقر الدم.[4] في محاضراته بمدينة مدراس، استهجن بكثال وضع النساء المسلمات. «المرأة المسلمة بكل تأكيد ليست في المكانة التي أعطاها الإسلام... إن الوضع الذي أُقحم فيه الغالبية العظمى من النساء المسلمات في الهند إنما هو افتراء على الإسلام، إنه جريمة.»[5]

النساء مساويات للرجال في الجانب الروحي، ويجب أن يكونوا متساوين كذلك أمام القانون.

ما ذا يؤول إليه عدم مساواة الرجل بالمرأة في عالمنا الزائل؟ لنجب بصراحة أن المرأة هي الجنس الأضعف، وفي أي مجتمع يكون فيه الرجال

(١) *Islam and Progress*, p.28
(٢) Ibid., p.18
(٣) *The Cultural Side of Islam*, p.138
(٤) Ibid., pp.138-9
(٥) Ibid., p.135

عنيفين يجب حماية النساء بقوانين صارمة، كما يجب فصلهن قليلًا عن الرجال. قانون الإسلام في هذا الأمر وفي أمور أخرى كثيرة ليس جامدًا، كما يظن بعض الناس، لكنه متغيّر؛ وليس متشدّدًا، بل فيه من المرونة ما يجعله يستوعب حاجات كل عصر وكل مجتمع.(١)

هناك نقطة تتكرّر لدى بكثال، وهي أن الأدب الغربي ينظر إلى النساء نظرة عاطفية. يتم إظهار المرأة كموضع للفتوّة. كما يتم اعتبار الزواج على أنه الهدف الأسمى للنساء. يؤكّد بكثال أن المرأة المسلمة ليست عاطفية في نظرتها للزواج. إذا صاحب الحبُّ الزواج الذي يتم ترتيبه عادةً بين الأسر، كما لو كان عقدًا قانونيًا، فإن الحُبَّ حينئذ يصبح ميزة إضافية. النساء المسلمات في رواية نسوة محجبات (١٩١٣) وفي رواية دار الحرب (١٩١٦) أدهشن أخواتهن الغربيات بتعلُّمهن الواسع وبطلاقة حديثهن. أخبر بكثال تجمّعًا عام ١٩١٩ أن النساء المسلمات اللاتي عرفهن «كنّ يناقشن بحريّة تامة موضوعات كان يمكن أن تؤدي بالسيّدة المحترمة غرندي(*) إلى أن يقف شعر رأسها. كنّ يتحدثن عن الموت والميلاد وكل الحقائق بكل هدوء وأريحية.»(٢)

بالنسبة إلى بكثال، كان الزواج عملًا غير عاطفي. كان من الوهم تخيّل أنه يمكن أن يكون هناك اتحاد كامل بين روحين... الزوجة عابدة حرة للّه، وكذلك الزوج. العلاقة بينهما ينظمها بوضوح قانون مقدّس. فيما عدا ذلك فلكل منهما آراؤه وأفكاره الخاصة. كل منهما يعبد اللّه، ولكن بطريقة مختلفة عن الآخر. ذلك يبدو لي على نحو مثالي أكثر نبلًا وعقلانية من ذلك الذي يكافح من أجل تمزيق أغشية الشخصية، ويبحث عن شراكة هي مستحيلة فعلًا، وقد نال حميميةً ستكون على الأرجح مأساوية أكثر منها مُرْضية.(٣)

---

(١) *IRMI*, December 1919, VII, p.441

(*) Mrs. Grundy شخصية أدبية تخيلية وردت في إحدى مسرحيات توماس مورتون عام (١٧٩٨)، وهذه الشخصية ترمز إلى الشخص شديد الاحتشام والتحفظ أو التقليدي، كما ترمز إلى الرقابة التي يفرضها الرأي التقليدي.

(٢) *IRMI*, December 1919, VII, p.444

(٣) *IRMI*, October 1919, VII, p.380

هذه النظرة الباردة للزواج تُلمح إلى وحْدةٍ (كان يعاني منها) بكثال في حياته الخاصة. نفس وجهة النظر هذه عبّر عنها تعبيرًا عاطفيًا بليغًا في ثلاث روايات كُتبت قريبًا من اعتناقه الإسلام؛ وهي نسوة محجبات (١٩١٣)، فرسان من جزيرة العرب (١٩١٧)، ورواية الضُّحى (١٩٢١).

بحسب وجهة نظر بكثال، يتفوّق الإسلام على المسيحية فيما يخص إدراكه للتعامل مع المظاهر البغيضة في هذه الدنيا. تركيز المسيحية على العالم الآخر نهج هروبي. الصراع والحروب حقائق في الحياة نابعة من طبيعة الإنسان. النبي (ﷺ) وضع بأفعاله وأقواله قوانين للحرب.

لم يكن النبي (ﷺ) يحب الحرب. بدأ دعوته مسالمًا. وعندما يجد نفسه في زاوية ضيّقة، فإنه يلجأ إلى الهدنة لا إلى المواجهة. تبنّى لمدة طويلة عدم المقاومة ـ وهو موقف مسيحي ـ. «فقط عندما وقف أعداؤه ضده متعاهدين على ملاحقته في المدينة، وسحق أتباعه، واستئصال الإسلام، أمر المسلمين بخوض الحرب. «كثير من مؤيديه اعترضوا من منطلق أنه ليس من الصواب مقاومة العدوان. «وقد زال اعتراضهم فقط عندما نزل الوحي من السماء.»[1] بعد هذا أصبح القتال واجبًا. ومع ذلك، فإن النبي (ﷺ) فرض قيودًا صارمة على السلوك أثناء الحرب. ولم يمارس النبي (ﷺ) تلك الإجراءات القاسية التي سمح القرآن بها، «مبيّنًا أن تلك الإجراءات تمارس فقط في الحد الأقصى لمنع حدوث أفعال شنيعة لا يمكن ضبطها بطريقة أخرى.»[2] كان الأعداء المكشوفون يعاملون برفق أكثر من الحلفاء الغادرين. «قبل عهد محمد (ﷺ) ـ وعند غير المسلمين لقرون طويلة بعده؛ نعم بعده، حتى عصرنا الحاضر ـ هناك حقيقة واحدة وهي أن من يقع في الأسر من مجموعة من الناس لدى مجموعة أخرى فإن ذلك يعني فقدان الحقوق الإنسانية للأسرى، وأنهم يقعون كليّةً تحت رحمة المجموعة الغالبة، حتى لو كانوا معهم على دين واحد.»[3] النبي (ﷺ) غيّر كل هذا. جعل

(١) *IRMI*, April 1919, VII, p.143
(٢) *IRMI*, April 1919, VII, p.145
(٣) *IRMI*, April 1919, VII, p.146

للمهزومين حقوقًا، وسمح لهم بممارسة شؤونهم بما لا يخل بأمن المسلمين. كان السلاح الاقتصادي ممنوعًا. الأشخاص المسالمون، حتى من أتباع الديانات الأخرى، لم يُعرّضوا للأذى. كل ما يقيم شؤون الحياة لم يُسمح بتدميره. كما منع النبي (ﷺ) القروض الربوية، حتى ولو كانت فوائدها ستُستخدم في تمويل المقاتلين. «نحن مأمورون بإعطائها، عندما تتعرض الدولة لما يهدد وجودها نتيجة مخاطر الحروب. ذلك الأمر قلل من عمل المستغلّين.»(١)

وباختصار، فإن المسيحية أهملت الحرب بينما نظّمها الإسلام.

شاهد بكثال كيف أن الإسلام هو جماعة من المؤمنين يترفّعون عن الطبقية والجنس، وحتى عن الزمن. «الطموحات الشخصية، التطلعات الوطنية، التحاسد القَبَلي ـ كل المشاعر التي نسميها وطنية ـ نبذها النبي (ﷺ) وجرّمها. وعوضًا عن ذلك دعا إلى المؤاخاة بين المؤمنين.»(٢) وضع تصوّرًا لمجتمع إسلامي مثالي «حيث المؤمنون، أغنياء كانوا أم فقراء، جميعهم ينطبق عليهم تمامًا نفس المعاملة وذات القانون، كما يعبدون اللّه روحًا وحقيقةً، ولديهم وقت فراغ لتطوير شخصيتهم الكاملة، ولمساعدة جيرانهم، وليس استغلالهم.»(٣) العبادة في الإسلام ليست محدودة بزمن معين. اذهب إلى مسجد السلطان حسن في القاهرة، كما قال بكثال عام ١٩١٩، واذهب إلى المسجد الأقصى في القدس، بل قم بزيارة إلى «أي من الجوامع الكبيرة في العالم الإسلامي، أو اذهب إلى مسجد صغير بُنِي من الطين في قرية بوسط إفريقيا، تجد في كل مكان نفس العبادة؛ لم تتغير ولم يطرأ عليها زيادة منذ أيام النبي (ﷺ).»(٤)

كرجل إنجليزي، شاهد بكثال في الإسلام انعتاقًا من التحيّز الطبقي. أقرّ بكثال بأن التمييز الطبقي وعدم المساواة وُجدت، لكنّه وجد أن تصوّر المسلمين كان رصينًا، مما جعله يبتسم أمام تظاهر كل الأطراف، وجعله يتقبل الرجال بناء

---

(١) *IRMI*, April 1919, VII, p.148
(٢) *IRMI*, March 1917, V, p.59
(٣) *IRMI*, July 1918, VI, p.286
(٤) *Friday Sermons*, p.2

على محاسنهم، مع شعور أخوي نحو الأشخاص الذين يعجبه سلوكهم بغض النظر عن طبقتهم أو جنسهم أو لونهم.»[١]

في مجتمع المؤمنين انتشرت روح الأخوّة. كان من الكلمات الرنّانة في القرن التاسع عشر «الحرية» و«المساواة» وكانت هذه الكلمات بالنسبة لبكثال مثاليات وكلمات مجرّدة وبعيدة المنال. أما الأخوّة، بالمقابل، فكانت «شخصية، ويمكن تحقيقها عندما يتعاشر أشخاص ضميرهم واحد ويتحلّون بسلامة المقصد.»[٢] كرجل صاحب ضمير ونية حسنة، فإن بكثال نجح في تكوين مؤاخاة مع السوريين، والمصريين، والأتراك، والهنود وكذلك مع البريطانيين الذين يشاركونه نفس العقلية.

بعض جوانب إسلام بكثال شخصية على نحو بالغ، بل ذاتيانية. كانت هذه الجوانب انعكاسًا لخلفيّته هو في إنجلترا حقبة ما بعد داروين، أو أخلاقيات العصر الفيكتوري التي تنسجم معها بعض خصائص الإسلام. أربع من هذه الخصائص لا يحتاج المسلم في مهده التأكيد عليها وهي: الممتلكات أمانة؛ دور الناس الهادئين؛ الروحانية؛ والعاطفية.

الممتلكات أمانة. لم تكن هناك مزية للجري وراء الثراء. «المكابدة الشخصية البسيطة من أجل الكسب لم تكن تروق له (أي للمسلم) لأنها لا تستحق كل ذلك الجهد المتواصل. إنها، في الحقيقة، ممنوعة في الأخوة الإسلامية.»[٣] على الرجل «ألا ينغمس كثيرًا في أمواله الزائلة وأعماله حتى لا يُحرَم من إخوانه.»[٤] المِلْكية الشخصية تمتد حتى أعضائك. في إحدى المناسبات أبان بكثال وجه الاختلاف بين ما رآه إقرارًا مسيحيًا لبتر أعضاء الشخص ذاته («إذا آذتك عينك، اقلعها») وبين مفهوم الأمانة في الإسلام: كأن «أعيننا، أو أيدينا، أو أقدامنا، لنا لوحدنا نتصرف فيها كما نشاء، وكأنها ليست

---

(١) Ibid., pp.42-3

(٢) *Islam and Progress*, p.66

(٣) Ibid., p.33

(٤) *The Cultural Side of Islam*, p.129

للإنسانية جمعاء.»[1] الأملاك كانت لتُستخدم لتمويل الجهاد، لا لاستغلال الفقراء. «يجب علينا أن ننفق ما أعطانا اللّه، ليس فقط المال، بل كل ما وهبنا من نعم، في سبيل اللّه، وليس لمصلحتنا... بعد أن تلبّي حاجاتك وحاجات الذين تعولهم، وتدفع حق الفقراء (الزكاة) الزكاة وفي أعمال الخير» ـ فإنك تنفق الباقي، «بطريقة ما لتحقيق منفعة مباشرة لإخوانك، لكي تشجع استحقاقاتهم وتزيد من الشعور بالأخوّة الإنسانية.»[2]

كان بكثال يكتب عادةً عن «الناس الخلوقين»، وهم أحيانًا علماء ومدرّسون، وعادة يكونون فلّاحين عاديين وقانعين. الشخصيات الرئيسة في رواياته هم في الغالب غير بطوليين، ويختلفون عن صاحب النفوذ الذي يخطئ في إقحام الناس الخلوقين في خلافاته الشخصية.

إذا رغب حاكم في خوض حرب ضد حاكم آخر يجب أن يفعل ذلك على نفقته الخاصة، بمعاونة أرقّائه الذين اشتراهم بماله الخاص وبآخرين ينضمون إليه بمحض إرادتهم. ذلك الحاكم يجب ألا يمس حياة أو أعمال المسلمين المسالمين. أي خطأ يرتكب ضد المسلمين المسالمين؛ «الناس الطيبون»، كما يقال عنهم، تتم معاقبته عن طريق العلماء الذين يستطيعون إثارة جميع العالم الإسلامي ضد المعتدي. لهذا كانت مثل هذه الحروب لا تلحق أي ضرر لحضارة المسلمين أو تضامنهم.»[3]

يزعم بكثال أنه، عندما كانت الخلافة ضعيفة وفقدت السيطرة، فإن هذا ما حدث فعلًا: «ذهب الناس الطيبون إلى أعمالهم كالمعتاد. توقفوا ليشاهدوا الجموع المتأججة من العبيد المقاتلين وهم ذاهبون ليقاتلوا جموعًا أخرى من العبيد المقاتلين في مكان آخر. شاهدوا موكب هؤلاء وهم يهزّون أكتافهم لا مبالين ويدعون اللّه أن يغفر للمذنبين، وانصرفوا إلى أعمالهم.»[4] أبطال من

---

(١) *IRMI*, May 1919, VII, p.180

(٢) *The Cultural Side of Islam*, p.63

(٣) Ibid., p.121

(٤) *IRMI*, May 1919, VII, p.172

جزيرة العرب هي رواية عن الصراع بين حكام طامحين إلى السلطة. الناس الطيبون في منطقة زبيد دائمًا يحدّقون النظر بتحامل رزين في أصحاب السلطة، وإن كانوا يكنّون في قلوبهم ولاءً محدّدا لهم.

كان بكثال مهتمًا بالبحث الطبيعي (الفيزيائي). بالنسبة له، أي بحث علمي يتقبله المسلمون لأنه ببساطة يكشف عن قوانين الطبيعة، وبمعنى أصح السُّنن الربانية. لم يكن هناك حدود للتنقيب (عن الحقيقة)، كما لا ينبغي الإعراض عن تأمّلات الروحانيين بأي حال. على الرغم من العداء ضد الروحانية(*)، فإنها تجد قبولًا كما كتب بكثال في مقالة نشرت في مجلة الثقافة الإسلامية عام ١٩٢٧. «إنها ليست جديدة باستثناء أسلوب الصياغة، وكانت معروفة تمامًا لدى المسيحيين الروحانيين من قديم الزمان، وهي بقايا أولئك الذين وجدوا ملاذًا في الإسلام من اضطهاد الكنيسة وخُلّدت أفكارهم لدى المتصوفة.»[١]

اعتقد بكثال أن أخذ مزاعم الروحانية في الاعتبار وتطبيق نصوصها «إذا استطعنا، فإننا نصل إلى الاستنتاج بأن كامل القرآن الشريف إنما هو 'اتصال'، أو بالأصح سلسلة طويلة من 'الاتصالات' مع العالم الآخر.»[٢] البحث الطبيعي يجب ألا يُسخر منه؛ كما يجب ألا تُنكر استنتاجاته. إنه تأكيد للنص القرآني - ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾.[٣] الغربيون المعاصرون الروحانيون، على النقيض من علماء سبعينيات القرن التاسع عشر (١٨٧٠ وما بعدها)، يؤمنون بالمعجزات، على الرغم من أنهم يقْصُرون إيمانهم هذا على العنصر الإعجازي في الإنجيل. ولكن بحسب رأي بكثال، «فإنهم يقتربون من نظرية المسلمين عن النبوّة.»[٤]

(*) الصوفية.

(١) *IC*, July 1927, I, p.490

(٢) *IC*, July 1927, I, p.496

(٣) *IC*, July 1927, I, p.497

(٤) *IC*, July 1927, III, p.481

الوعي بالقوانين الطبيعية، وهي السنن الإلهية، يقود إلى منهجٍ غير عاطفي للحياة. كان بكثال يرفض العاطفية باستمرار في رواياته وخُطَبِه، حيث يعتبرها فشلًا غريبًا. العاطفية تتدرّج من موقف رومانسي متراخٍ تجاه العلاقة بين الجنسين إلى التحليق بعيدًا عن الواقع، وكذلك تفضيل التجريد على الواقعية. «أنت لا تستطيع أن تكون مسلمًا وعاطفيًا معًا. ذلك لأن الطبيعة ليس لديها عاطفة، ولأن المسلمين يُجِلُّون قوانين الطبيعة على أنها سنن من عند اللّه.»[1] من هنا فإن المسلمين لا ينسحبون، بل عليهم ألا ينسحبوا، من العالم. الإسلام يحثّ المؤمن على المشاركة في الأنشطة الجماعية، ومواجهة الحقيقة المرّة للحروب والموت.

---

(١) *IRMI*, May 1919, VII, p.181

٤

خادم الإسلام

الهند والقرآن الكريم

«أعتقدُ أنّ إزالة الرومانسية وإدخال (موسيقى) الجاز يمضي قدُمًا في جميع أنحاء العالم باستثناء المدينة العتيقة والعزيزة حيدر أباد.»

بكثال عام ١٩٢٩ [١]

تصادفَ تحوّلُ بكثال إلى الإسلام مع هزيمة تركيا في نهاية الحرب العالمية الأولى، وما تبع ذلك من سقوط الإمبراطورية العثمانية. ألغى مصطفى كمال، زعيم تركيا الجديدة، منصب الخلافة الذي ادعاه السلاطين العثمانيون منذ القرن الثامن عشر باعتبارهم «خلفاء»السلطة المتوارثة عن النبي محمد نفسه. في عام ١٩٢٣، كانت مسألة «الخليفة» لتوها قضية حيوية في كثير من البلدان ذات الأغلبيات والأقليات المسلمة، وخاصة الهند.

في عام ١٧٧٤ منحت معاهدة «كوتشوك كايناركا» روسيا السيادة على شبه جزيرة القرم. كما كان للقيصر الحق في التدخل في بعض شؤون الإمبراطورية العثمانية لصالح المسيحيين الأرثوذكس. في المقابل وكنوع من التعويض،

(١) Anne Fremantle, *Loyal Enemy* (Hutchinson, London, 1938), p.407

طالب السلطان التركي بولاء المسلمين التتار بحسب تعاليم دينهم.(١) في هذا الوقت، ظهرت في تركيا للمرة الأولى قصة كيفية انتقال الخلافة من الخليفة العباسي الأخير إلى السلطان سليم الأول في عام ١٥١٧.(٢)

ومع ذلك وبعد قرن من الزمان استخدم السلطان عبد الحميد الثاني التقنية الحديثة - التلغراف والطباعة - لتمكين مقتضيات الخلافة وللإشارة إلى بسط سلطته على جميع المسلمين. ناصر السلطانُ المسلمين في جميع أنحاء العالم وأرسل مبعوثيه إلى كل مكان. التمس هؤلاء المبعوثون الدعم للسلطان في إفريقيا، ومصر، والهند. وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر صدرت صحيفة في اسطنبول برعايته، وترأس تحريرها شخص من البنجاب تم تسريحه من الخدمة في الحكومة الهندية، وهاجمت الصحيفة الحكم البريطاني للهند.(٣)

قوبلت عقيدة السلطان عبد الحميد التوسعية بالتعاطف في الهند. بعد التمرّد نُفي السلطان المغولي(*) إلى بورما، وهو أصلًا لم يكن ذا تأثير منذ مدة طويلة، وبذلك تمت إزالة نقطة مركزية للحكم الإسلامي. بعض الشخصيات المسلمة النافذة اتجهوا غربًا، ومِثْل سيد أحمد خان، لبسوا الطربوش الذي هو رمز تركيا القرن التاسع عشر.(٤) كان الدعاء للسلطان عبد الحميد يرفع على منابر المساجد في الهند بصفة مستمرة. لم يزجر الإنجليزُ هذه المشاعر. عندما تم إرسال جنود هنود إلى منطقة البحر المتوسط عام ١٨٧٧ لردع القوات الروسية عن التقدم نحو العاصمة التركية كان يتم التأكيد عليهم بالولاء الإسلامي للسلطان عبد الحميد.

---

(١) Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey* (Oxford University Press, 1961), p.317

(٢) *Lewis, p.318*

(٣) Valentine Chirol, *Fifty Years in a Changing World* (Jonathan Cape, London, 1927), p.90

(*) هو السلطان بهادر شاه الثاني وهو آخر السلاطين المغول في الهند وسقط عام ١٨٥٧ بواسطة الإنجليز، ولم تقم لحكم الإسلام قائمة منذ ذلك الزمن في تلك البلاد الشاسعة.

(٤) Afzal Iqbal, *The Life and Times of Mohamed Ali* (Institute of Islamic Culture, Lahore, 1974), p.15

مع حلول القرن العشرين كانت سلطة الخلافة والقلق على سمعة (الدولة) العثمانية منتشرة بين المجتمعات الإسلامية. الحرب التي وقعت بين تركيا واليونان عام ١٨٩٧ أدّت إلى وقوع اضطرابات أو ثورات في الهند، ومدغشقر، وتركستان وجزر الهند الشرقية. في عام ١٩١٣ قام المربّي والكاتب الهندي، محمد علي، وهو إسلامي راديكالي، من خلال مجلته، الرفيق (*Comrade*) قام بتنظيم حملات إغاثة للأتراك في منطقة البلقان وروى قصصًا كاملة لفظائع ارتكبها مسيحيون.

لم تكن هناك غرابة في تحويل بكثال اهتماماته السياسية من تركيا إلى الهند بعد الحرب العالمية الأولى. خلال الحرب، كان على اتصال منتظم مع الشباب المسلم، وهم في الأغلب من الهند، وكانوا يصلّون في مسجد بلندن. في عام ١٩١٩ كان بكثال على علاقة مع مكتب الإعلام الإسلامي الذي كان يصدر مجلة أسبوعية بعنوان، المنظور الإسلامي (*The Muslim Outlook*)، بالإضافة إلى نشر معلوماتٍ بشأن الدفاع التركي عن الأناضول. وبحسب تقرير الشرطة فإن هذه الحملة الإعلامية «من شأنها إثارة الرأي العام حين تعرض حوادث مبالغًا فيها عن الفظائع المرتكبة من قِبَل اليونانيين في مدينة سميرنا[*] ولإحداث توجّس من إعلان أن العالم الإسلامي في حالة من الغليان بسبب التهديد بتقسيم الإمبراطورية العثمانية.»[١]

في أوائل عام ١٩٢٠ قدِم محمد علي إلى إنجلترا من أجل الدفع بقضية الخلافة لدى الحكومة البريطانية. تجاهلت الحكومة البريطانية محمد علي والوفد المرافق له لكن بكثال كان على اتصال به وأقام لهم حفل عشاء يوم ٩ فبراير.[٢]

(*) سميرنا هي مدينة إغريقية قديمة تقع على الساحل الغربي للأناضول على البحر الأبيض المتوسط، وهي مدينة إزمير حاليًا.

(١) P.C. Bamford, *Histories of the Non Cooperation and Khilafat Movements* (Government of India Press, Delhi, 1925), p.145

(٢) Iqbal, p.217

في عام ١٩٢٠ كان بكثال في حاجة للمال، ووظيفة وأمان. كانت صحيفة بومباي كرونيكل (*Bombay Chronicle*) تهدف إلى رعاية قضية تطوّر الهند. في عام ١٩٢٠ تم ترحيل رئيس تحريرها، بينجامين غاي هورنيمان، إلى سيلان، وقام مجلس إدارتها بدعوة بكثال، الذي أصبح مشهورًا في الهند، ليخلف هورنيمان. حُدّد راتب شهري لبكثال مقداره ١٤٠٠ روبية، وتم التفاوض على فترة تجريبية مدّتها ستة أشهر.

بعد أن أرسل بكثال روايته الأخيرة **الضُّحى**، (*The Early Hours*)، إلى دار كولينز للنشر، أبحر إلى الهند في شهر سبتمبر من عام ١٩٢٠. أصبحت الهند مأوىً له لمدة خمسة عشر عامًا. قضى أربعة أعوام في بومباي أما السنوات اللاحقة من عام ١٩٢٥ إلى ١٩٣٥ فقد استقرّ به المقام في حيدر أباد.

وصل بكثال وزوجته إلى بومباي وأقاما في فندق تاج محل. كان بكثال موضع ترحيب لدى المسلمين وكذلك في لجنة الخلافة في بومباي. كان تحرير الصحيفة عملًا استنفد وقته كما كان مرهِقًا أيضًا. كان عليه أن يواجه مشكلات العاملين، وإدارة الأشخاص كما لم يفعل ذلك من قبل. كانت حياته بكل تأكيد مرتبطة بالهنود، كما قوبل بشيء من المقاطعة من قِبَل الجالية البريطانية. لم يأبه بكثال بالأمر كثيرًا لأنه، كما يقول، «كنتُ أقابل أناسًا (أي الهنود المسلمين) يثيرون انتباهي أكثر.»[1] لكن زوجته ميورل لم تكن سعيدة، وعندما حصل بكثال على إجازة للعودة إلى إنجلترا بقيت ميورل ولم تعد للهند مدة عامين. أقرّ بكثال أن الهند تدين بالكثير لإنجلترا. وفي الحقيقة فإن الأفكار حول الحرية والهند الموحّدة أُستمدّت من إنجلترا. كتب بكثال في **المجلة الإسلامية** عام ١٩٢١ أن «الهند كانت نائمة وقد استيقظَتْ الآن. إن الكراهية التي أسمعُها هذه الأيام ضد الحُكْم الأجنبي، ومجرد فكرة أن الهند ـ نصف القارة تلك ـ كبلد لديه حقوق وشخصية اعتبارية، إنما هي بسبب التعليم الإنجليزي.»[2]

(١) Fremantle, p.330
(٢) *IR*, January 1921, IX, p.15

بينما كان بكثال مشغولًا بصحيفته، كان لديه متسع من الوقت للانهماك في الأنشطة السياسية والدينية. خلال عام ١٩٢١ كان غاندي يبني جسورًا بين الجاليتين الهندوسية والمسلمة من خلال دعم حركة الخلافة. كان بكثال قريبًا من غاندي خلال هذا العام، وقد شارك معه منابر خطابية. كان بكثال يرى في غاندي «قدّيسًا ومَلاكًا ـ أي شيء يحلو لك في هذا الاتجاه ـ سوى أنه ذلك الرجل القصير الأكثر عنادًا على وجه الأرض. إنّي أحبُّه وأعتقد أنه سينعش الهند، لكن أسلوبه المتسلط جلب له الأعداء.»[١] رأسَ بكثال مؤتمرًا للخلافة في السند في شهر يوليه من عام ١٩٢١، وقبِل برئاسة هندوسي لحركة إسلامية. في قبوله بهذا الأمر، كان يطبّق ما يعتقده صوابًا من وجهة نظر دينية، وهو أن السلوك، بغض النظر عن ولاء مذهبي شكلي، هو الامتحان الأسمى. «أعتقدُ أن قدّيسًا هندوسيًا يعيش في الأفق الأعلى أفضل لقيادة المسلمين من مسلم مذنب يعيش في المستوى المنحط، ذلك لأن هناك قانونًا واحدًا في الأفق الأعلى للمسلمين والهندوس والمسيحيين واليهود أو أي واحد، وذلك القانون هو القانون الربّاني الذي نزل به القرآن الشريف.»[٢]

دُعي بكثال إلى تجمعات للمسلمين في أرجاء الهند. ألقى موعظةً بمسجد في منطقة بيجابور، ومحاضرة في جامعة عليكرة الإسلامية. في عام ١٩٢٢ سافر إلى شرق الهند قاصدًا مدينة مظفر بور. وهناك أخذ يَدرُس اللغة الأردية.

أُعجب مجلس إدارة صحيفة **بومباي كرونيكل** ببكثال، وكان يجدّد عقده سنويًا حتى عام ١٩٢٤. في خريف عام ١٩٢١ قدِم بكثال إلى أوربا في إجازة لأشهر الشتاء. أعدّ بكثال مجموعة من القصص القصيرة لدار كولنز للنشر التي نشرتها عام ١٩٢٢ تحت عنوان **كما يرانا الآخرون** (*As Others See Us*)، ثم عاد إلى الهند عبر فرنسا ومصر. في باريس زار السيد يوسف كمال، حيث كان يرأس وفدًا من أنقرة، وفي بور سعيد شاهد «في رصيف المرفأ ضابطًا مُسِنًّا برتبة ملازم يرتدي زيّ شرطة قناة السويس، وبعد أن تفرّس بكثال في ملامحه لبرهة

---

(١) Fremantle, p.332

(٢) Iqbal, p.291

ذهب إليه وسأله إن كان هو راشد.»[1] نعم إنه هو راشد ذلك الجندي العثماني المفصول من الخدمة الذي رافق بكثال في سوريا خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر.

خلال العقد الثاني من القرن العشرين (١٩٢٠ وما بعد) نشر بكثال قصتين قصيرتين موضوعاتهما مستوحاة من الهند. وكانتا آخر ما نشر من أعماله القصصية، وإن كان قد عمل على رواية عن الإمبراطورية المغولية بعنوان **الغُبار وعرش الطاووس** (*Dust and the Peacock Throne*). كلا الأقصوصتين نُشرتا في مجلة **كورنهيل** (*Cornhill Magazine*) في لندن، وإحداهما أُعيد نشرها في مجموعة **أفضل القصص القصيرة لعام ١٩٢٥** (*Best Short Stories of 1925*).

كلا القصتين تحكي قصة طلاب هنود يبحثون عن الحقيقة. كلا القصتين تصف بإسهاب مَشاهدَ من الهند بحسب طريقة بكثال. في قصة «البحث» (The Quest) وصف متجرًا يقع على طريق واسع. هناك شجرةٌ استوائية ضخمة تنتصب بالقرب من «سرادق من نوع معين حيث جلس أُناس من مختلف المشارب كما راق لهم . كان هناك حلّاق يقف على شريط من السجاد يحلق شعر إبط فلاح.»[2] أصبح بكثال محبًا للهند لكنّ حبّه، مثل حبّه لعرب سوريا، لم يتأثر بغرام زائف أو عاطفة جوفاء. الطلاب في هذه القصص مشاركون في الحركة الوطنية ونحن نشاهد الشرطة والمؤسسات الإنجليزية بعيون الهنود الوطنيين من الهندوس من الطبقة الدنيا. هناك شخصيات بريطانية ظهرت لكنها غير مهمة في هذه القصص. جاء في ملاحظة لأحد الطلاب أن الإنجليز «يضعون القوّة الرياضية فوق المعرفة»[3] وهذا هو المثل الوحيد عن إقحام قِيَم بكثال.

آراء بكثال كانت تظهر بانتظام في صحيفة بومباي كرونيكل. كما كان يرسل مقالات إلى إنجلترا عن موضوعات تثيره. عندما ألغى الخلافةَ مصطفى كمال (عرف فيما بعد بـ أتاتورك) تناول بكثال الموضوع برمّته بأسلوب فلسفي

(١) Fremantle, p.374

(٢) *Cornhill Magazine*, September 1924, LVII, p.368

(٣) *Cornhill Magazine*, June 1926, LX, p.690

محض. كتب في المجلة الإسلامية عام ١٩٢٣ أنه كان من الأفضل للخلافة «ألا ترتبط على نطاق ضيق ومخالف بالجبروت العسكري ولا بالطموحات السياسية لبلد منفرد. علينا نحن المسلمين أن نعيدها مرة أخرى كما ينبغي أن تكون، مَثَلًا للإسلام، وشاهدًا على الخلافة العظمى ـ التي ينوب الإنسان بها عن اللّه ـ وتُري البشرية فقط سبيل تقدّم الإنسان.»[١] في نهاية حياته اعتقد بكثال أن حركة الخلافة التي بدت قوية قد «تقلّصت فجأة بفعل أتاتورك.»[٢] في عام ١٩٢٤ كتب بكثال عن الهند في **المجلة الإسلامية**. اندلع مؤخرًا عنف جماعي في حيدر أباد. بحسب بكثال، لم تكن هناك مشكلة حتى عام ١٩٢٤. أرجع بكثال الفتنة إلى التنامي العفوي لحركة «انطلقت من الهند البريطانية بعد إزاحة المهاتما غاندي عن التأثير الإنساني وعن كبح جماح الناس.»[٣] وفي عام ١٩٢٥ كتب بكثال في مجلة فورن أفَيْرز الراديكالية (*Foreign Affairs*) التي يُصدرها إي. دي. مورِل، معترضًا على التدخل البريطاني في دولة البحرين.

في أواخر عام ١٩٢٤ تم بيع صحيفة بومباي كرونيكل. أرادت الإدارة الجديدة من بكثال أن يتخذ نهجًا عدائيًا ضد غاندي لكن بكثال رفض. افترق بكثال عن الصحيفة واضطر للبحث عن عمل.

خلال الأربعة عشر عامًا التي قضاها بكثال في بومباي وطّد صداقته مع الكابتن غلادستون سولومون، وهو مؤرخ للفن من أصل جنوب إفريقي. كان السيد سولومون مديرًا لمدرسة الفن، وقد أقام بكثال لبعض الوقت في المدرسة في نفس المنزل الذي ولد فيه الشاعر الإنجليزي رُديارد كيبلنغ. كان السيد سولومون مؤرخا للفن المغولي، وقد أصبح بكثال مهتمًا بدرجة كبيرة بالإمبراطورية الإسلامية المستقلة في الهند والتي اضمحلت تدريجيًا مع تقدم الإنجليز في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. كثير من الولايات الإسلامية التي كانت فروعًا للإمبراطورية المغولية أو متحالفةً معها؛ تفادت الذوبان في

(١) *IR*, November 1923, XI, .p.391

(٢) *Journal of the Central Asian Society*, April 1936, XXII, p.227

(٣) *IR*, December 1924, XII, p.432

الإمبراطورية البريطانية وحافظت على استقلال صوري على النقيض من 'الهند البريطانية.' أكبر هذه الولايات هي دولة نظام المُلْك في حيدر أباد.

أراد بكثال أن يعمل مع نظام المُلك في عمل مناسب لقدراته، وعرَضَ وزيران كبيران عليه رئاسة الجامعة العثمانية. باء هذا العرض بالفشل، لكن تم تعيينه مديرًا لمدرسة شدرغات الثانوية للبنين.

وصل بكثال إلى حيدر أباد في شهر يناير عام ١٩٢٥. السنوات العشر اللاحقة كانت أسعد سنِي حياته من عدة جوانب. كان تعداد سكان حيدر أباد في ذلك الوقت يبلغ ٤٠٠,٠٠٠ نسمة وتقع على الضفة الجنوبية لنهر موسي. كانت عاصمة الدولة التي بلغ تعداد سكانها عام ١٩٢٥ اثني عشر مليونًا. مع أن العائلة الحاكمة كانت مسلمة، كانت الغالبية العظمى من رعاياها غير مسلمين. حكَمَ نظام المُلك منذ عام ١٩١١، وكان نصيرًا للعرب ـ خاصة الذين هم من حضرموت ـ كما كان راعيًا للعلوم الإسلامية. في عام ١٩٢٤ كتب بكثال أنه «في حيدر أباد اليوم كانت أوضاع الإمبراطورية المغولية يُعاد انتاجها بكل دقة، ذلك لأنها كانت جزءًا من تلك الإمبراطورية ونجت من الهلاك العام.»[(١)] كان نظام المُلك يتمتع بقدر عال من المكانة بين المسلمين والهندوس أيضًا لأن موظفي حكومته يتم اختيارهم من جميع أنحاء الهند ـ وما وراءها. كانت حكومة نظام المُلك متسامحة وأسهمت في بناء معابد للهندوس. كانت المشكلات الجماعية منتشرة في الهند كلها، لكن في حيدر أباد، كما كتب بكثال في عام ١٩٣٦، «كانت المشكلات إلى الآن تُحلّ بسعادة تامة عن طريق الموقف المغولي العريق في التسامح.»[(٢)]

كان نظام المُلك بنفسه، جلالة السيد عثمان علي خان بهادر، شاعرًا باللغتين الفارسية والأردية. كان موقف بكثال المحافظ والمؤيد للمَلكيّة قد لطّفَه حُكْم نظام الملك المعطاء. كانت المدينة (حيدر أباد) والدولة قد شهدت الكثير من التطوّرات في المرافق العامة إبّان حكم نظام الملك، وهنا شاهَدَ بكثال دولة

(١) *IR*, December 1924, XII, p.433

(٢) *Geographical Magazine*, April 1936, no 6, p.400

إسلامية مثالية في أرض الواقع. كان الإسلام بشكل واضح ـ وبالضرورة ـ دينًا متسامحًا. الأحاديث والتعاليم الإسلامية وضعت أصولًا للممارسة السياسية، وفي إطار هذه الأصول كانت تعمل حكومة نظام الملك. حوت هذه الأصول مبادئ للتعامل مع غير المسلمين، وهكذا لم يكن هناك مفارقات (أو إشكالات) في تلك الدولة ذات الغالبية الهندوسية ويحكمها مسلم.

كانت حيدر أباد مركزًا ثقافيًا، واعتقدَ بكثال في عام ١٩٣١ أنها «ستكون في القريب المركز الثقافي الرئيس في الهند.»(١) كما كانت مركزًا للغة الأردية، وهي اللغة التي بذل لها بكثال كل جهده ليتعلّمها. كانت اللغة الأردية لغة الدراسة في الجامعة العثمانية التي أسسها نظام الملك وسمّاها باسمه. بتأسيسه هذه الجامعة يكون نظام الملك بجَرّة قلم «قد جعل من حيدر أباد بدون جدال عاصمةً للغة الأردية.»(٢) كان هناك مكتب للترجمة نشط في ترجمة المقررات العلمية إلى اللغة الأردية، وهي اللغة ـ التي زعم بكثال عام ١٩٢٨ ـ أنها اللغة «التي يتحدث بها مائتا مليون شخص.»(٣)

كان بكثال مديرًا لمدة ثلاث سنين. كانت هذه وظيفة جديدةً له، بالإضافة إلى أنه أصبح مسؤولًا عن تدريب موظفين مدنيين للخدمة المدنية في حيدر أباد. في ديوان الخدمة المدنية بنى بكثال المكتبة واختار لها الكتب ـ ولم يختر كُتبَه هو. قام بتدريس الأدب الأوربي لطلابه. أحد تلاميذه السابقين، محمد سيف الدين، يتذكّر كيف جعل بكثال دراسة رواية دون كيخوته(*) دراسة «أكثر إمتاعًا وتسلية عندما قام بتمثيل حركة الإمالة عند مطحنة الهواء كما قام بذلك دون كيخوته نفسه.»(٤) يتذكّر التلاميذ تقوى بكثال وأداءه واجباته الدينية بدقة. كان لديه القليل من الوقت فقط لنفسه.

---

(١) *IC*, April 1931, V, p.337

(٢) *IC*, July 1928, II, p. 466

(٣) *IC*, July 1928, II, pp.464-71

(*) *Don Quixote* وتعرف أيضًا عند العرب بـ دون كيشوت، هي رواية شهيرة عالميًا للأديب الإسباني سيرفانتس.

(٤) Mohammad Shfiuddin to the author, 29 November 1983

كان يتحلّى بالحشمة أمام طلابه، كما كان ودودًا ومتواضعًا لهم. هناك طالب آخر، وهو حميد الدين أحمد، يتذكّر كيف كان الطلاب «لديهم فرصة ضئيلة لكسر صمت حضرة بكثال للحديث عن نفسه. كنا نقابله والسيدة بكثال كل ليلة على مائدة العشاء التي كانت تستغرق قرابة الساعة والنصف. كان الحديث عن موضوعات محليّة؛ وكنّا ننتشي دائمًا بالدعابة الفريدة والحديث الماتع لحضرة بكثال.»[1]

أثناء قيام بكثال بأعماله في حيدر أباد، وجد نفسه مضطرًا لتجنّب النشاطات السياسية، لكن مع مرور السنوات كان نظام الملك يسند إليه على نحو متزايد القيام بمهامّ سريّة لا علاقة لها بمهام وظيفته التعليمية. أصبح ملازمًا لبلاط الملك. وفي عام ١٩٣٠ كان في إنجلترا وقام بدور سكرتير لوفد حيدر أباد إلى مؤتمر المائدة المستديرة. وفي السنة التالية رافق ابنًا لنظام الملك في زيارة إلى أوربا. في شهر نوفمبر تزوج هذا الابن الأميرة دورّوهشفار، ابنة آخر سلاطين الخلافة، السلطان عبد المجيد الثاني (هكذا) في مدينة نيس (الفرنسية). في ثلاثينيات القرن العشرين (١٩٣٠ ومابعد) عُيّن بكثال مشرفًا على شاب من أقارب نظام الملك، واسمه صاحب زاده بسالت جنغ، ليكون له على ما يبدو مرافقًا ومعلّمًا.

لكن أهم ما قام به بكثال خلال سنوات إقامته في حيدر أباد هي تلك الأعمال التي اضطلع بها في خدمة الإسلام.

في عام ١٩٢٥ قامت هيئة المسلمين في مَدْراس بدعوة بكثال لإلقاء سلسلة محاضرات عن الجانب الثقافي في الإسلام. ألقى أول محاضرة في شهر أكتوبر من عام ١٩٢٥، ونُشرت المحاضرات في عام ١٩٢٧. عَرضت المحاضراتُ دين الإسلام بطريقة مقبولة لغير المسلمين. ظهر في المحاضرات الصراحة ووضوح العبارة، ولكن مع هذا أيضًا هناك موجز مُخصّص عن معتقداته الشخصية. الموضوعات العامة كانت تعرض في أول المحاضرات ـ مثل أهمية

---

(١) Hameeduddin Ahmed to the author, 13 February 1984

السلوك الشخصي، التقدّم، الوضع المُحزِن للمرأة خاصة في الهند، والحاجة لإسلام متطوّر ومسلمين متعلمين.

بعد سنتين أصبح بكثال رئيسًا لتحرير مجلة **الثقافة الإسلامية** (*Islamic Culture*)، وهي مجلة فصلية جديدة تنشر برعاية نظام المُلك. كانت المجلة تصدر باللغة الإنجليزية وضمّت مقالات لكبار المتخصصين ذوي المستوى الأكاديمي العالي من المسلمين وغير المسلمين. خلال العشر سنوات التي قضاها بكثال رئيسًا لتحرير المجلة نُشرت مقالات لعدد من معارفه القدامى مثل جورج هورنبلور، دبليو إي غلادستون سولومن، وأكاديميين بارزين مثل دي إس مرجليوث، وعلماء أحدث سنًّا ومستشرقين مثل محمد أسد، ومحمد حميد اللّه وفريا ستارك (Freya Stark). وفي كل عدد كان بكثال يقوم عادة بمراجعة ستّة كتب في موضوعات استثنائية شتّى. قام بمراجعة وضع الدراسات الإسلامية باللغة الإسبانية. كما كتب تعليقات عن الكتب الصادرة باللغة الألمانية والفرنسية والإيطالية والفارسية والأردية. كَتَبَ عن التاريخ الإسلامي، واللغويات السامية، والموسيقى الهندية، والسرطان، والروحانية. وتُعتبر مقالات بكثال مصدرًا نقديًا مفيدًا للأدبيات المنشورة في الهند باللغتين الأردية والإنجليزية حول الدراسات الإسلامية. من بين الكتب التي راجعها بكثال كتاب قديم عن اللهجات التركية من تأليف غونار يارنغ (Gunnar Jarring)، وكتاب السيّدة إيفلين كوبالد (Lady Evelyn Cobbold) عن رحلتها إلى مكة، وكتاب تي. إي. لورنس **أعمدة الحكمة السبعة**. شجّع بكثال الكُتّاب الهنود، سواءً في مجال الكتابة العلمية أو الإبداعية، لكنّه كان حازمًا في النقد نوعًا مّا وبالغ الدقّة في الترجمة الحرفية. العلماء «لا يريدون معرفة النطق الصحيح للكلمات في أي بلد، بل معرفة كيف تُكتب هجائيًا.»[١]

في بعض الأحيان كان عمله كمدير مدرسة يلقي بظلاله عليه. كان مغتبطًا من أجل عمل أنتجته جامعة مَدْراس. «يجب علينا أن نشيد بالترجمة الرصينة

(١) *IC*, July 1936, X, p.499

والصحيحة - وهي نادرة في الهند - وهي التي تبرهن، إذا ما احتيج إلى برهان، على تمكّن المترجِم. كانت الطباعة والإخراج ممتازة. فقط في بعض الأحيان نقع على كلمة غير معروفة في اللغة الإنجليزية أو مصطلح، مثل استخدام المترجِم للفظة «الخيول» وهو يقصد الفُرسان. نحن في اللغة الإنجليزية نشاهد كلمة «حصان» (ويُفهم منها الجنود) وكلمة «القَدم» (ويُفهم منها الجنود) كذلك.»[1] لدينا نحن من حين لآخر قليل من المرح الجاد. «في ورقة تصحيح الأخطاء يتوجب علينا إضافة: «اقرأ كلمة «Eratta» على أنها «Errata»»؛ لكن هذه أمثلة على متاعب الطباعة الهندية.»[2]

كان بكثال، كرئيس تحرير، على اتصال مع علماء مسلمين من مختلف أنحاء العالم. يتذكر بكثال قبل أشهر من موته: «مدينتنا حيدر أباد هي بمثابة عاصمة لجميع المسلمين. جميع الناس على اختلاف مشاربهم يأتون إلى هنا من بعيد، منجذبين إلى الثروة الأسطورية لجلالته. كان كثير منهم يأتون لزيارتي في مكتبي، أو للسلام عليّ في المسجد وإخباري ببعض الأشياء.»[3]

في عام ١٩٢٨ منح نظام المُلك بكثال إجازة مدفوعة الراتب لمدة عامين لأجل إكمال ترجمته لمعاني القرآن الكريم. هذا هو العمل الذي اشتهر به بكثال خلال الخمسين عامًا الأخيرة، كما اعتبره هو أبرز أعماله في حياته كلها. كانت هذه الترجمة أول ترجمة لمسلم لغته الأم اللغة الإنجليزية. الترجمات الأخرى، كما كتب بكثال عام ١٩١٩، كانت «لعلماء عرب مشتغلين بمعاني الكلمات المنفردة أكثر من المعنى الإجمالي، وهذا النهج لا يجلّي صعوبات (فهم المعنى).»[4]

بالنسبة للمسلمين، فإن القرآن كلام الله ولهذا لا يمكن ترجمته. تبنّى بكثال هذا الفهم وكتب في مقدمته: «لا يمكن ترجمة القرآن. هذا هو معتقد الشيوخ

(١) *IC*, January 1936, X, pp.164-5

(٢) *IC*, July 1931, V, p.683

(٣) *Journal of the Central Asian Society*, April 1936, XXII, P.230

(٤) *IRMI*, January 1919, VII, p.11

التقليديين وأيضًا وجهة نظر الكاتب.»[١] كان عنوان الترجمة التي نشرها بكثال أخيرًا عام ١٩٣٠ هو معانى القرآن الكريم. وهي تعتبر نقل مقاصد السُّور، سورةً سورةً، إلى اللغة الإنجليزية من نصها باللغة العربية. وبطريقة مماثلة، قام أي جَي آربري[*] مؤخرًا بتسمية ترجمته: القرآن مفسرًا (*The Koran Interpreted*).

ترجمة معاني القرآن الكريم كانت تشغل بال بكثال منذ اعتناقه الإسلام. قبل إعلانه إسلامه، كان بكثال يعتقد أن كل الترجمات إنما هي « شروحات نثرية ركيكة.»[٢] بُعيْد إظهاره إسلامه، ألقى بكثال موعظة عن القرآن الكريم يوم مولد النبي (ﷺ). «هذا المصحف لا يوجد له مثيل في العالم. ألمح المشكّكون في شروحاتهم إلى غموض وجوده، لكن لم يشرحه أحد. إنه يبقى أعجوبة العالم.»[٣] بكثال، الذي «قابل صعوبات كبيرة في تذكّر أقوال إنجليزية شهيرة بالنص»، وجد نفسه «قادرًا على تذكّر صفحات من القرآن الكريم، صفحة إثر صفحة، بدقّة تامّة.»[٤] في عام ١٩١٩ أفاض في وصف مشاعره تجاه إعجاز القرآن الكريم، وإلى خطورة الولَع بمظهر طبعات القرآن الكريم وليس محتواه. «انتبهوا لكيفية تبجيلكم للمصحف نفسه، الحروف والتغليف وشكل الكلمات، حيث تكون بهذه الطريقة عين الوثنيّة والرّدَى. لكن اجعلوا رسالة القرآن الكريم دائمًا في قلوبكم وعيشوا بها.»[٥]

حينما كان بكثال إمامًا بالإنابة في لندن عام ١٩١٩، لم يكن راضيًا عن ترجمات معاني القرآن الكريم التي كان يستخدمها ولذلك وضعها جانبًا وقال «قمتُ بنفسي بترجمة أي نص قرآني أودّ قراءته باللغة الإنجليزية.»[٦] كان بكثال يستخدم بشكل متكرّر ترجماته للنصوص (القرآنية) في خُطَبه وكلماته وكتاباته.

(١) *The Glorious Koran, p.vi*

(*) A.J. Arberry وله ترجمة منشورة لمعاني القرآن الكريم.

(٢) *Athenaeum*, 27 February 1915, no 4557, p.184

(٣) *IRMI*, February-March 1917, V, p.55

(٤) *The Glorious Koran*; p.705n

(٥) *IRMI*, January 1919, VII, p.16

(٦) Fremantle, p..389

لكن حياته بين المسلمين في الهند كانت المحفّز الذي دفعه لترجمة معاني القرآن الكريم كاملًا. كان واعيًا بالنهج المختلف تجاه القرآن الكريم بين العرب وغير العرب. رأى بكثال أن على المسلمين معرفة القرآن الكريم بطريقة آسِرَة للقلوب. حليفُ بكثال في حركة الخلافة، محمد علي، كان قد أصدر ترجمته لمعاني القرآن الكريم. ترجمة بكثال لا يمكن بأي حال أن تُعتبر بديلا (عن ترجمة محمد علي). كتب بكثال: «لا يوجد مسلم غير عربي، بحسب علمي حتى الآن، كانت لديه مجرّد فكرة أن يرتقي بترجمة الإنجيل بلغته هو إلى مستوى الترجمة الإنجليزية للإنجيل لدى المسيحيين البروتستانت المتحدثين باللغة الإنجليزية.»[1]

بحلول عام ١٩٢٧، كان بكثال منشغلًا جدًا بترجمته، وأثناء إجازته من حيدر أباد استشار علماء في أوربا. كمسلم تقليدي منصف، أراد بكثال أن يضمن مصادقة أعلى هيئة علمية في العالم الإسلامي وهي هيئة علماء الأزهر في القاهرة. في عام ١٩٢٨ قابل بكثال في لندن اللورد لويد (Lord Lloyd)، المندوب السامي لبريطانيا في مصر آنذاك (وحاكم بومباي سابقًا)، ورتّب لبكثال ذهابه إلى مصر واستشارة علماء الأزهر.

بقي بكثال في مصر لمدة ثلاثة أشهر بدءًا من شهر نوفمبر عام ١٩٢٩. أُعطي بكثال خطاب تعريف ليقدمه إلى الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر للمرة الثانية. كان لدى بكثال صديقان مهمّان في مصر. أحدهما هو فؤاد سليم الحجازي، الذي كان سفيرًا لتركيا في سويسرا خلال فترة الحرب وكان أحد معارف بكثال القدامى. والثاني هو محمد أحمد الغمراوي، وهو كيميائي يعمل بجامعة القاهرة، وله معرفة واسعة بالأدب العربي القديم.

تورّعُ بكثال سبّبَ له متاعب. أن تطلب إذنًا قد يؤدي إلى خيار رفض ذلك الطلب. مَن هم أقلُّ تورّعًا لا يواجهون مثل هذه المشكلات. شاهدَ بكثال في القاهرة ترجمتين لمعاني القرآن الكريم لغير مسلمين تباعان في محلات

(١) *IC*, July 1931, V, p.423

بيع الكتب، «إحدى تلك الترجمات تحمل على غلافها صورةً تمثّل نبيّنا (ﷺ) وجبريل (عليه السلام)»[1]؛ مثل هذه الصور يستنكرها المسلمون في كل مكان.

أثناء رحلته في مصر قابل بكثال العديد من كبار الكُتّاب المصريين في ذلك الوقت. استضاف الكاتب أحمد لطفي السيّد اجتماعًا ضم أربعةً من علماء الأزهر أُسندت إليهم مراجعة ترجمة بكثال. قدّم السيد رشيد رضا مساندته. طه حسين، الأستاذ الكفيف للأدب العربي في جامعة القاهرة العلمانية، أخبر بكثال أن الملك فؤاد، ملك مصر، «متأثر على نحو ما بفكرة أن ترجمة معاني القرآن الكريم خطيئة،»[2] وأنه قد يفصل من الأزهر أيَّ عالم يساند بكثال. وإذا كان هذا صحيحًا فإن اعتراض الملك يبدو غريبًا. كان يُظهر نفسه زعيمًا إسلاميًا، ويحدث نفسه بتولّي الخلافة.[3] وهو مع هذا لا يتقن العربية.[4] وجد بكثال طه حسين مُتعِبًا وعائقًا، وأكثر من ذلك أنه طلب من بكثال الذهاب للملك لاستصدار فتوى تسمح بالترجمة. أشار بكثال بهدوء أن لديه فتوى من الهند، وبالنسبة لرعاية الملك للترجمة أفاد أن لديه الدعم الكامل من نظام المُلك بحيدر أباد.

اعتصم بكثال بالصبر واشتغل بترجمته مع العلماء وضمن موافقتهم. لكن تقريرًا عن العمل نشرته صحيفة الأهرام اليومية، وكتب محمد شاكر، وهو أحد علماء الأزهر سابقًا، مقالة ندّد فيها ببكثال وترجمته والمتعاونين معه. ومما جاء في مقالة الشيخ أنه كان من الأجدر ترجمة تفسير الطبري. كانت ردّة فعل بكثال أن آراء كثير من المصريين تنمّ عن ضيق أفق. كتب بكثال فيما بعد ما يلي:

كان كثير من المصريين مندهشين مثلي من الجهل المطبق بأوضاع العالم الحالية لدى رجال يزعمون أنهم يفكرون في حاجات العالم الإسلامي؛رجال

---

(١) *IC*, July 1931, V, p.427

(٢) *IC*, July 1931, V, p.425

(٣) Elie Kedourie, *The Chatham House Version and other Middle-Eastern Studies* (Weidenfeld and Nicolson, London, 1970), p.183

(٤) Jacques Berque, *l'Egypte, Imperialisme et Révolution* (Gallimard, Paris, 1967), p.286

يعتقدون أن العرب ما زالوا «رعاة العالم»، وأن غير العرب هم «رجالهم المحرَّرون»؛ هؤلاء الرجال هم غير قادرين على رؤية أن الأوضاع تبدّلت، وأن العرب لم يعودوا مقاتلين، وأن غير العرب لم يبقوا من يجلس في البيت، بل غير العرب هم من يكابد مشقة الجهاد؛ وأن مشكلات غير العرب ليست مماثلة لمشكلات العرب؛ وأن ترجمة معاني القرآن الكريم لغير العرب ضرورة، وهي ليست للعرب طبعًا؛ وأن في الهند مسلمين متعلّمين ومخلصين، وهم قادرون على إصدار الأحكام وحريصون على مصلحة الإسلام كأي شخص في مصر.[1]

غادر بكثال مصر في شهر مارس عام ١٩٣٠ ونُشرت ترجمته تحت عنوان **معاني القرآن الكريم** نشرتها دار (A.A. Knopf) في نيو يورك في شهر ديسمبر عام ١٩٣٠. وفي العام التالي علِم بكثال أن شيخ الأزهر في نهاية الأمر لم يكن راضيًا عن الترجمة. سمع بكثال من الشيخ محمد أحمد الغمراوي أن «آخر الشائعات أن الأزهر قرّر أنّ كامل الترجمة يجب أن يُعاد ترجمتها كلمةً كلمةً إلى اللغة العربية وتُسلّم إليهم للحكم عليها، في تلك الصيغة المشوّهة، ذلك لأنّه لا أحد من علماء الأزهر يقرأ الإنجليزية.» خشي بكثال من أن هذا الموقف على الأرجح «سيجلب درجة من السخرية بالأزهر، وسأكون أول من يستنكر ذلك.» بعد ذلك علم بكثال من قصاصة من الصحافة أنه:

بعد تفحّص شيخ الأزهر لترجمتي في صيغتها المشوّهة المذكورة آنفًا، أعلن «أنه بالرغم من أنها أفضل الترجمات»، إلا أنه لا تصلح لإقرارها في مصر. والسبب المُعطى أنني قمت بترجمة العبارات الاصطلاحية والمجازية حرفيًا إلى اللغة الإنجليزية، وهذا يشير إلى عدم فهمي للمعنى الحقيقي.[2]

ترجمة محمد علي كان قد تم استنكارها كلّيًا. واسى بكثال نفسه على خلفية أن الموقف القائل بأن جميع الترجمات آثمة تمّ التخلّي عنه. «الترجمة

---

(١) *IC*, July 1931, V, p.427

(٢) *IC*, July 1931, V, pp.432-3

التي قام بها مسلمٌ تم فحصها وقُدّم سبب أدبي لرفضها.» واختتم بكثال حديثه متهكّما، «هذه خطوة كبيرة إلى الأمام.»[1]

لم يكن بكثال لينسى ما اعتقد أنه إعاقة من طه حسين لعمله. في عام ١٩٢٥ نشر طه حسين كتابه في الشعر الجاهلي وفيه شكّك في صحة الشعر الجاهلي. وفي نفس العام نشر البروفيسور دي. إس. مرجليوث، أستاذ اللغة العربية بجامعة أكسفورد، دراسةً في مجلة (*Journal of Royal Asiatic Society*) وفيها عبّر عن أفكار مطابقة (لما طرحه طه حسين). لا يوجد دليل على أن طه حسين اقتبس تلك الأفكار. تسبب كتاب طه حسين هذا في حدوث صدمة في المجتمع ولهذا سحبَه من أماكن البيع. كان الدكتور محمد أحمد الغمراوي من بين الذين تبرّأوا من أطروحات طه حسين. طبّق طه حسين مناهج النقد النصّي الحديثة على الشعر الجاهلي. هذا النهج، لو طُبّق على النصوص الدينية، ربما يبدو مشكّكا في مصدر القرآن الكريم. أُعيد إصدار كتاب طه حسين في نسخة منقّحة عام ١٩٢٩.[2]

بمجرد رجوع بكثال إلى حيدر أباد نشر مراجعات لبعض الكتب التي اشتراها من القاهرة. في إحدى هذه المراجعات أشار ساخرًا إلى

ذلك العالِم الذي لديه هوَس بآخر موضة فِكْر في باريس وهو... يشغل وظيفة أكاديمية مرموقة، وذائقته للأفكار الأجنبية تشمل النظريات غير المدروسة أو غير الناضجة كليًّا التي تتناول اللغة العربية والتاريخ والإسلام... من بين كل ما تلفّظ به المستشرقون الأوربيون، فإن هذا اللاقِط ينقضّ بكل نشوة على كل

---

(١) *IC*, July 1931, V, p.433

(٢) I am grateful for help on this controversy from Dr R.C. Ostle of the School of Oriental and African Studies, University of London. See also A.J. Arberry, *The Seven Odes* (Allen and Unwin, London, 1957), pp.228-30, 238; and Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age* 1798-1939 (Oxford University Press, 1962), p.327

أنا ممتنّ للمساعدة في هذا الخلاف من الدكتور أوستل من كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن. انظر أيضا المعلقات السبع للمؤلف آربري (لندن ١٩٥٧) ص٢٢٨ ـ ٢٣٠، ٢٣٨؛ وكتاب ألبرت حوراني الفكر العربي في العصر الليبرالي ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩ (مطابع جامعة أكسفورد ١٩٦٢) ص٣٢٧.

ما يرمي به جزافًا بروفيسور إنجليزي طريف مشهور ببهجته وهو يقذف المعاتيه على العالم الإسلامي. هذا الطعن تحديدًا هو الذي ألهمه تأليف كتاب تم سحبه من الأسواق وأُعيد إصداره الآن بعد تنقيحه.[١]

بعد أربع سنوات عاد بكثال للهجوم، متهمًا طه حسين، ذاكرًا إياه هذه المرة بالاسم، بأنه من الواضح أن لديه مزاعم واستنتاجات باطلة. كثير من الناس «يعتقدون أن هذا شيء مؤسف لأن المؤلِّف كان مسؤولا عن الدراسات العربية في الجامعة الجديدة.»[٢]

استمرت ترجمة بكثال متوفرةً منذ بداية نشرها. حصل الناشر (Allen & Unwin) على إذن من الناشر الأصلي (Knopf) ونشر الترجمة في إنجلترا عام ١٩٣٩. عمِل بكثال على طبعة تناسب بعض المسلمين، حيث يكون النص القرآني في صفحة وترجمة معانيه في الصفحة المقابلة. أنهى بكثال هذا العمل خلال أيام من مغادرته للهند بصفة نهائية. تم نشر هذه الطبعة ثنائية اللغة في مجلدين بدعم من نظام المُلك وطَبَعتْها مطابع الحكومة في حيدر أباد. اشترت دار (Allen & Unwin) للنشر في لندن هذه الطبعة أيضًا في عام ١٩٧٦. في عام ١٩٥٣ أصدرت دار (the New American Library) للنشر في نيو يورك طبعة بالنص الإنجليزي ذات غلاف ورقي.

ترجمة بكثال نفسها تُرجمت أيضًا. في عام ١٩٥٨ قام السيد شيناسي صابر (Şinasi Siber) بترجمة المقدمة ومقتبسات من الترجمة إلى اللغة التركية ونُشرت في أنقرة. تُرجمت مقتبسات أخرى إلى التركية أيضًا من قِبل م. شوقي علاي وعلي كاتيبوغلو (Ali Katiboğlu) ونُشرت في اسطنبول في نفس العام.[٣] في عام ١٩٦٤ نُشرت الترجمة باللغة البرتغالية في موزمبيق، وفي عام ١٩٧٠

---

(١) *IC*, July 1930, IV, pp.481-2

(٢) *IC*, January 1934, VIII, p.152

(٣) I am indebted to Professor Muhammad Hamidullah of Paris for help in tracing these Turkish translations.

أنا مدين للبروفيسور محمد حميد اللّه من باريس لمساعدته في تتبع هذه الترجمات التركية

صدرت طبعة ثلاثية اللغة ـ بالإنجليزية والعربية والأردية ـ في دلهي. كما صدرت الترجمة بلغة التغالوغ وهي لغة معظم المسلمين في الفلبين.(١)

أطْلع بكثال نفسه على النقد الأوربي بعناية، وخاصة أعمال ثيودور نولدكه (Theodor Nöldeke) وجوزيف هوروفِتز (Josef Horovitz). لكن بكثال ظل انتقائيًا فيما يتقبّله. ولم يتزحزح عن التفسير الإسلامي الراشد. كتب مقدّمة لترجمته أوضح فيها ظروف نزول القرآن الكريم، وعرَض سيرة مختصرة لكنها شاملة وواضحة للنبي (ﷺ). كما كتب مقدّمة لكل سورة من سور القرآن الكريم لافتًا الاهتمام إلى النصوص القرآنية التي تؤيد وجهة نظره الإسلامية حول أهمية الأخلاق وعالمية الإسلام. تجنّب بكثال، في مقدمته، استخدام كلمة «الإسلام» أو «المسلمون.» هذه الكلمات اُستخدمت في الترجمات السابقة، أو كما قال بكثال «لم تُترجم.» اعتقدَ بكثال أنه يُفهم ضمنًا «أن هذه الكلمات وقت نزول الوحي كان لها معنى اصطلاحي اكتسبتْه فيما بعد.» وأوضح قائلًا: «تَرجمتُ هذه الكلمات، كما يفهمها العربي حين يسمعها، بمعنى «الاستسلام» أو «الخضوع»، «الذين يستسلمون» أو «يخضعون» للّه. وعلى سبيل المثال الآية التي تمت ترجمة معانيها «إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ» كنتُ أترجم معانيها «إن الدين عند اللّه هو الاستسلام له»، وهي، إضافةً إلى أنها هي الترجمة الصحيحة، فهي بيان لحقيقةٍ عالمية عوضًا أن تكون تأكيدًا في دين معيّن(*).»(٢)

الطبعة (الخاصة من ترجمته) التي تحمل النص العربي في الصفحة اليمنى والنص الإنجليزي في الصفحة اليسرى لم تظهر إلا بعد وفاة بكثال. هذه الطبعة هي الطريقة المثلى للترجمة. جاءت هذه الطبعة مُرْضية ومُجَلّية لتوجّسات كثير من المسلمين المحافظين، كما أصبحت وظلّت منارًا للمسلمين المتحدثين باللغة الإنجليزية. كان يُنظر إلى النص الإنجليزي (الترجمة) على أنه

(١) Information kindly provided by Mr Rayner Unwin of Allen and Unwin

(*) هنا إشارة لقوله تعالى ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، [آل عمران: ٨٣]. وبهذا يرى بكثال أن الإسلام بمعنى خضوع الخلق للخالق حقيقة عالمية ولا تنحصر بمعنى كلمة «الإسلام» في النص العربي. واللّه أعلم.

(٢) Fremantle, p.389

تفسير للنص العربي. تلقى المسلمون الترجمة بالقبول بدون تحفظ يُذكر في كل من الهند وباكستان وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

إجادة بكثال للغة العربية واجهت بعض الطعون. في عام ١٩٨٠ أصدر محمد أسد، خليفة بكثال في رئاسة تحرير مجلة الثقافة الإسلامية، ترجمةً جديدة لمعاني القرآن الكريم. لم يكن محمد أسد راضيًا عن ترجمة بكثال وشعر أن «معرفته باللغة العربية كانت محدودة.»[١] وفي نفس العام أعلن البروفيسور أحمد علي في باكستان أنه يخطط لإنجاز ترجمة لمعاني القرآن الكريم بسبب الأخطاء في ترجمة بكثال.[٢] عُرض على أنظار الرئيس ضياء الحق الأخطاء المزعومة في الترجمة، عرضها عليه العلّامة سيّد محمد راضي مجتهد عام ١٩٨٢. اُتهم بكثال بأنه «ليس متمكّنًا من اللغة العربية ومصطلحاتها.»[٣]

أدّت التقارير الصحفية المنشورة عن هذا القدْح إلى قيام ثلاثة من طلاب بكثال القدامى بحيدر أباد، وهم غزيّ الدين أحمد، حميد الدين أحمد ومهدي علي صديقي بإرسال رسالة غاضبة إلى صحيفة الفجر (*Dawn*)، الصادرة في كراتشي. شهِدَ الثلاثةُ لبكثال «بعمق تقواه، ومعرفته بالقرآن الكريم وبإتقانه اللغة العربية وتعليمه الإسلامي.» فكّر الرجال الغاضبون الثلاثة باتخاذ إجراء قانوني معلنين أنهم قد «استُثيروا لردة الفعل هذه بسبب أن الترجمة التي فُحصت بدقّة في الأزهر وتم قبولها ترجمةً صحيحة في أنحاء العالم لمدة نصف قرن من الزمان يجدها فجأة العلامة راضي مجتهد «مليئةً بالأخطاء».»[٤] تحرّك هؤلاء لطلب المساندة وقامت لجنة العقيدة الإسلامية في باكستان، برئاسة رئيس مجلس البحوث الإسلامية بالنظر في القضية ووجدوا أن ترجمة بكثال مقبولةٌ. كانت بعض الأخطاء أخطاء طباعية في النسخة المستخدمة. أما الأخطاء الأخرى فقد كانت بسبب فهم مجتهد القاصر للغة الإنجليزية.»[٥]

---

(١) Muhammad Asad to the author, 8 August 1984

(٢) Hameeduddin Ahmed to the author, 2 February 1984

(٣) *Dawn*, 9 April 1982

(٤) *Dawn*, 19 April 1982

(٥) Hameeduddin Ahmed to the author, 2 February 1984. See also S. Sakhawat Ali, =

كانت الأعوام الأخيرة في حياة بكثال انحسارًا هادئًا في سني جهاده الذي استمر من عام ١٩١٣ حتى عام ١٩٣٠. في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين (١٩٣٠ وما بعد) عانى من التهاب الملاريا. لم يعد بعدها بصحة جيدة أبدًا، ولم يترك جسده يستريح.

استمر بكثال في تعامله الموهوب والمعروف مع الأطفال. في إحدى المناسبات حضر زواج أحد المعلّمين في حيدر أباد. وبصفته ضيف الشرف وجد بكثال نفسه جالسًا بجوار الضيف الأشبّ ذي الأعوام الستة واسمه أناند تشانداڤاركر (Anand Chandavarkar)، وقد كتبَ هذا الضيف الشاب متذكّرًا بكثال بعد خمسين سنة:

كان أنيقًا في بدلته الأوربية وطربوشه الأحمر بدون ذؤابة، كما يرتديه المسلمون في حيدر أباد... تجسّدَ فيه اللُّطف، والاندماج التام بين الأخلاق الأوربية والشرقية. أُجلسنا متجاورَيْن، متربّعيْن، على الأرضية المفروشة بالسجّاد أمام ما لذّ وطاب من الطعام الباذخ من المطبخ الحيدر أبادي والمغولي. تناول بكثال طعامه، مثل بقية الضيوف، بيده بحسب الطريقة الهندية بدون أدنى درجة من الوعي بالذات. عندما كانت الأطباق تُدار، كان بكثال يتكلّم بالأردية بطلاقة، وإن كان متروّيًا، ويلتفت إليّ. كان من المعتاد أن يسألني إن كنتُ أكلتُ لحمًا. كان لديه إحساس أن جوابي سيكون بالنفي، ذلك لأنني تربيتُ أن أكون نباتيًا حتى ذلك الحين، فأبواي من البراهمة. لهذا أخذني معه طوال ذلك الصف اللامتناهي من الأطايب، وهو يشير بعناية إلى تلك «الممنوعات»(*) حتى وصل إلى الحلويات وهي مغلفة بورق قصدير ذهبي. سألني ما هي الكتب التي أحبها وجوابي - جزيرة الكنز (*Treasure Island*) وحكايات جريم الرومانسية

= 'Some Mistakes in Pickthall's «Translation of the Holy Quran»', *Minaret*, November 1983, pp.19-23

رسالة من حميد الدين أحمد إلى المؤلف في ٢ فبراير ١٩٨٤. طالع أيضًا سخاوات علي، «بعض الأخطاء في ترجمة بكثال لمعاني القرآن الكريم»، مجلة المنارة عدد شهر نوفمبر ١٩٨٣، ص١٩ - ٢٣

(*) اللحوم طبعًا.

(*Grimm's Fairy Tales*) ـ وماهي الألعاب التي ألعبها. طبعًا، لعبة الكريكت! هذا أسعده كثيرًا، ابتهج عندما أخبرتُه بكل فخر بالتوقيع الشخصي لي من لاعب الكريكت الأشهر ـ جاك هوبز (Jack Hobbs) خلال زيارته الوحيدة للهند... ومع كل أسفٍ استأذنتُ منه وغادرت.[١]

في بداية عام ١٩٣٥، بعد عشر سنوات من الخدمة لدى نظام المُلك وقبل عيد ميلاده الستين، تقاعد بكثال عن العمل. أهداه نظام الملك ساعة ذهبية. عاد بكثال وزوجته إلى الهند، معرّجين على أوربا. أصيب بكثال بالإنفلونزا وقضى فترة النقاهة في منزل سافوي العائد للسيدة هيوث جاكسون في جنوب فرنسا. قضيا شتاء ٣٥ ـ ١٩٣٦ في مقاطعة كورنوال (جنوب غرب إنجلترا) أبعد ما يكون عن برودة لندن. في شهر مارس من عام ١٩٣٦ قدم بكثال إلى لندن وألقى محاضرةً أمام المجلس الملِكي لوسط آسيا (Royal Central Asian Society) بعنوان 'المسلمون في العالم الحديث'، وعاد إلى بلدة سانت ايفز في كورنوال. كان يفكّر في كتابة رواية عن الحقبة الإسلامية في إسبانيا، وكان لديه خُطط أخرى: مراجعة لكتاب الجانب الثقافي للإسلام، وأهم من ذلك، القيام بفريضة الحج إلى مكة.

لم يكن بكثال يهاب الموت. في عام ١٩١٩ ألقى موعظةً عن سورة 'يس' وتلاها بحضرة شخص على فراش الموت. قال عن الموت، «أنا أيضًا سأقف بين يدي ذلك الديّان اليوم، غدًا، أو بعد بضع سنين. بقي القَليل لي على أية حال، مقارنةً مع كل اللحظات النفيسة التي عشتُها، وتلك الأخرى التي أضعتُها.»[٢] في أحد الأيام من شهر مايو أصابته وعكة بعد طعام الغداء. في صباح اليوم التالي أخذ قسطًا من الراحة بعد الإفطار، ثم نهض ولكنه سقط على الأرض. وافته المنيّة الساعة الحادية عشرة يوم ١٩ مايو من عام ١٩٣٦ متأثرًا بانسداد في الشريان التاجي.

---

(١) Anand G. Chandavarkar to the author, 29 August 1983

(٢) *Friday Sermons*, p.27

أُحضرت جثته إلى مقبرة المسلمين في بروكوود بمقاطعة سَري، ليس بعيدًا عن ووكنغ. وُضعت الجثّة في القبر؛ أمّ الناس في صلاة الجنازة عليه إمام المسجد يوم السبت ٢٣ من شهر مايو.

في الهند، كان بكثال قد شجّع الكتابة الإبداعية باللغة الإنجليزية. في مجلة الثقافة الإسلامية، سطّر رئيس مجلس تطوير مدينة حيدر أباد أبياتًا من الشعر الكلاسيكي في رثاء محمد مرمدوك بكثال:

جنديَّ الإيمان! وخادمَ صدقٍ للإسلام!
قَدَرُك أن تهجرَ ظلماتِ اللّيل
وأن تمضيَ قُدُمًا، قُدُمًا نحو النور
مقدامًا بالرّوح، وبقلبٍ يملأه اطمئنانٌ وسكون![1]

(١) IC, January 1937, XI, p.1

الجزء الثاني

٥

قصص الشرق الأدنى

«هـذه... قصص من نسج الخيال، وليست حقيقةً؛ وهي، مثل الأدب القصصي الرصين، ليست غير الحق المبين.»

رواية طبق حار (*Pot au Feu*)

قصص الشرق الأدنى القصيرة

حكايات عن الشرق الأدنى تكوّن معظم المجموعات القصصية الثلاث التي أصدرها بكثال: طبق حار (*Pot au Feu*) (١٩١١)، وقصص من خمس مداخن (*Tales from Five Chimneys*) (١٩١٥)، وكما يرانا الآخرون (*As Others See Us*) (١٩٢٢). ثمانٍ وعشرون قصة قصيرة عن الشرق الأدنى. معظم هذه الأقاصيص أمثلة مصغّرة لمقدرة بكثال على عرض العالم من وجهة نظر الإنسان الشرقي. كل هذه القصص حدثت لجيلٍ ما قبل ١٩١٤، ومعظمها تتناول موضوع التغيّرات الاجتماعية التي حدثت في سوريا وفلسطين ومصر وتركيا خلال هذه السنوات، أو موضوع دور الأجانب وعلاقاتهم بشعوب هذه البلدان.

كثيرًا ما كان بكثال يرسم المشهد على مساحةٍ أرجوانية من الوصف؛ عندما يُشاهَد البحر الأبيض المتوسط من جبال قرى سوريا، أو في غرفة استقبال لشخص متنفّذ. هنا يتم تقديم شخصية القصة، بعد ذلك يقع في مأزق أخلاقي أو شخصي ويتم الخروج منه. ينشأ سوء الفهم في معظم الأحيان من صراع الحضارات.

في أقصوصة «معركة الشجر» («The Battle of the Trees»)،[1] نجد صفًا من أعمدة خدمة البرقيات نُصبت في مكانٍ ما من سوريا. تمت إزالة هذه الأعمدة ليلًا في القرى القريبة لاستخدامها كمواد للبناء أو للتدفئة. القرى المنافسة دخلت في نزاع من منطلق أن للقرية الحق في أشجارها. أدى هذه الخلاف إلى نشوب حروب محلية محدودة إلى أن لجأت السلطات التي أخفت نفسها إلى إحضار وتركيب أعمدة من الحديد المجوّف. «هذه حالة ظُلم»[2]، قالها فلّاح مصري طاعن في السنّ وهو يصرّ على السكن في عريش لأحد العمّال على أرض بُني فيها منزل حديث البناء. الساكن الجديد في المنزل، وهو قاضٍ إنجليزي، أصابه الذهول، حيث يتوقع امتلاك منزل خالٍ من الساكنين، ولم يستطع فهم إصرار الرجل العجوز أنه على حق.

هذه الحكايات تتضمن ملاحظات فَطِنة حول التأثير الأوربي على كلام الناس وسلوكهم:

في زمن مضى، ما زال في ذاكرتي، عندما كان أطفال جبل لبنان يستهزئون بالبنطال الفرنسي، ويهتفون «أهلين عمّو، أنت جيت في اثنين!» لكن اليوم كل هذا قد تغيّر. الشبّان المسيحيون يرتدون ملابس ألمانية رخيصة ليُظهروا تقدميّتهم، ويخلعون الطربوش جانبًا حين يدخلون منازلهم، وهذا كان يُعد عملًا بالغ الفظاظة؛ يرتدون أحذية لها صرير عالٍ، حيث كانت الموضة هناك، وكأنهم يريدون إظهار التخلّص من ارتداء الصندل التقليدي. كما كانوا ينطقون

---

(١) *As Others See Us*, pp.71-85

(٢) *Pot au Feu*, pp.305-21

الحرف اللاتيني بسهولة أكثر من العربي، ويشوّهون لغتهم الأم بالكلمات الفرنسية والإنجليزية.[1]

كانت فتاة مسيحية في بيروت «تلفّ شعرها لأعلى رأسها على النمط الأوربي، مما يجعل مؤخرة عنقها بادية للعيان، وهذا ما يعد تصرّفا معيّا بدرجة كبيرة عند ابن المشرق.»[2] وقد ارتقى شيخ مصري لدرجة التبجيل «بسبب مواهبه الطبيعية، ولاستعداده لمنح الثقة للمؤسسات الجديدة مثل البنوك والشركات.»[3]

شخصياته المسيحية من سوريا غامضون ثقافيًا. من خلال قصصه يُظهر بكثال عدائيةً تجاه مسيحيي الشرق الأدنى. يتم تصويرهم على أنهم سكّيرون وجشعون، وهم يقلّدون عادات الغرب على نحوٍ هزليّ. عَدائية بِكثال تصوغ آراءه الأخلاقية تجاه الجريمة على أنها التزام اجتماعي. في قصة «مأساة مرسيليا» («The Marseilles Tragedy»)،[4] يقتل مسيحي يوناني من تركيا شقيقته لأنها تزوّجت مسلمًا. كانت تلك رغبتها. كان زوجها المسلم متسامحًا ولم يمارس عليها أيّ ضغط لتدخل في دين الإسلام. أما شقيقها فقد سَكِر حتى الثمالة وقتل شقيقته التي يحبها لأجل شرف العائلة. صوّر بكثال المشهد على حالة من التعصّب. لكن في قصة «مِلِك» («Melek»)،[5] فكّرَتْ زوجة تركية بكل هدوء في قتل زوجها، وهو تركيّ مسنّ ومسالم، من أجل رجال الإصلاح الأتراك. قدّم بكثال هذا الفعل على أنه عملٌ، مع تردّدها، يدلّ على الوطنية النبيلة.

العدائية تجاه المسيحيين تستعرضه قصة قويّة، «معاناة بجانب المدفأة» («An Ordeal by Fire»)،[6] حيث تحكي ردود أفعال جماعة من الإنجليز في بلدة قروية تركية تجاه مذبحة مدبّرة للأرمن. ليس ثمّة مراعاة للمشاعر خلال وصف المذبحة. «بدأ الجزّارون عملهم بشكل ممنهج، تمامًا كما يفعل القسّيس في

---

(١) Ibid., p.352
(٢) Ibid., p.356
(٣) *Tales from Five Chimneys*, p.121
(٤) *As Other See Us*, pp.154-70
(٥) Ibid., pp.103-19
(٦) *Pot au Feu*, pp.271-88

سالف الأزمان أثناء تقديمه لقربان، مبتدئًا بـ «بسم اللّه» ومختتمًا بطعنة الموت. قتلوا امرأة بالقرب منهم وفق هذه الطقوس، وهم ثلاثةٌ مسؤولون مُسنّون، لحاهم بيضاء، ووجوههم لطيفة لكن قلقة ومتلهّفة... انحنى أحدهم واقتطع شيئًا من جثة الضحية وضرب به على الحائط.»[١]

شخصيات بكثال الأوربية في المشرق مجموعة مختلطة. المبشّرون يكونون عادة متعجرفين ومنعزلين. بعض الأوربيين يريدون الفهم. كثير منهم يفشل. أحيانًا يصبح أحدهم جزءًا من المشهد المحلي مثل «الطبيب الفرنسي المُسنّ، الذي لديه خبرة شرقية طويلة وقد اكتسب جميع عادات البلد ما عدا العفّة.»[٢] وآخرون، حديثو عهد بالمشرق، يصيبهم الانبهار. تجد دورُثي لي (Dorothy Lee) حديث الكونْت عبد اللّه "مثل منظار صغير على عالَم غير معروف.»[٣]

أحد أمتع شخصيات بكثال هو السير تشارلز دوكلاي (Sir Charles Duclay)، قائد الفرسان، وهو «أحد حكّام مصر ومستشرق شهير.»[٤] هل شخصيته مبنية على شخصية السير رونالد ستورْزْ؟ دوكلاي هو راوٍ لقصة صداقته مع صحفي مصري شاب، واسمه عباس، وقد بدأ عمله مناصرًا للاحتلال البريطاني. كان يدعم الحكومة لكنه محبط من عدم تلقي المساندة بالمقابل. وقع في مشكلة حينما انتقد الخديوي. لم يفعل الإنجليز شيئًا لمساعدته. زال الوهم عن عباس وذهب إلى إنجلترا كممثّل من تلقاء نفسه لدولة مصر. وجد هناك ممثلين آخرين مشابهين، ولهم إقامة طويلة ولديهم علاقات أفضل ما جعلهم يرفضونه. عاد إلى مصر وانخرط في منظمة إرهابية وتم اعتقاله. ذهب دوكلاي لمقابلته في السجن. حثّ عباسُ دوكلاي، من أجل الخير لنفسه، على ترك الإنجليز وأن يصبح مسلمًا ومشرقيًا. جعلني ذلك أنتفض كأني لُدغتُ.»[٥] هنا يتم إحضار

---

(١) Ibid., p.275
(٢) *Tales from Five Chimneys*, p.157
(٣) Ibid., p.56
(٤) *As Others See Us*, p.49 13
(٥) Ibid., pp.69-70

القارئ فجأة، وبطريقة شرسة تقريبًا، ليلتفت إلى محدودية التعاطف اللطيف لدوكلاي تجاه عبّاس.

نجد بكثال أكثر أصالةً في وصفه للأوربيين، والإنجليز عادةً، من خلال عيون عربية، مصرية في الغالب. الاتصالات بين المصريين والإنجليز نادرة الحدوث، وهي شكلية وعليها قيود، وعادةً تكون لغرض رسمي، لإشعار الطرفين أين تكمن السلطة. هنا وصف لرجل إنجليزي: «هو وليّ الحياة والموت، طويل وجامد وذو لحية ضاربة إلى الحُمرة. كان يرتدي نظارات، كما كان يعتقد، ليجعل وجهه المنقبض يبدو أكثر غموضًا.»[١] كان هناك مهرّج في احتفال يصوّر شخصية مسئولٍ إنجليزي تصويرًا ساخرًا عندما «اصطاد باروكة من حبال الجرّ وثبّتها على رأسه. بعد ذلك مسح غبارًا أحمر على وجهه حتى صار لونه مثل زهرة الرمّان، وارتدى ياقة فرنسية وقُبّعةً قديمة أحضرها مرافق له، وأمسك في يده خيزرانة وبدأ يتبختر في مشيته، رافعًا مرفقيه وفاتحًا فمه قائلًا: «يا للروعة! يا للروعة!» وبينها فواصل متكرّرة.» هذا الإنجليز ي يأكل «اللحم مع الحليب والخضروات، جميعها متعفّنة جرّاء وضعها في معلّبات لسنين عديدة.»[٢] عاداته في الاستجمام لا يمكن فهمها. «متسلّح بأعواد غريبة، وقف مباعدًا رجليه وضرب بكل قوّته كرةً صغيرةً بيضاء، وكان يتبعها من مكان لآخر حتى فقدها.»[٣] شبّان القرية المتفرّجون «كانوا جميعا يقلّدون لا شعوريًا كلّ انقباضات وجهه الغريبة التي ترتسم عليه كلّما كان يضرب بهراوته تلك الكرة الصغيرة البيضاء، التي كان يتعامل معها كما لو كانت مذنبة، أو خصمًا.»[٤]

واحدة من القصص، «الشخصيّة» («Karàkter»)،[٥] عبارة عن تعليق بليغ حول غموض الحُكم البريطاني لمصر، وعن رغبة مصريٍ في مشاطرة ذلك الغموض. تقدّم فلاح مصري أبيض اللحية بالتماس إلى مسؤول إنجليزي. أراد

(١) *Tales from Five Chimneys*, p.130
(٢) *As Others See Us*, p.2 16
(٣) Ibid. pp.7-8
(٤) Ibid., p.8
(٥) *Pot au Feu*, pp.289-304

الفلاح لابنه أحمد ذي الأربعة عشر عامًا، ويرتدي بدلة أوربية مزركشة رخيصة ومقاسها غير مناسب له، أن يتعلّم الأخلاق. «لأنّي أحب أسيادي الإنجليز،» أوضح هذا الأب، «وأنا معجب بطبائعهم، أود أن يُدرّس ابني الأخلاق، التي تميز بها الإنجليز عن كل الناس.»[1] تعلّم الابن شيئًا من اللغة الإنجليزية عن طريق الحفظ لكنه غير قادر على استخدام اللغة عندما سأله المسؤولُ الإنجليزي سؤالًا غير متوقع. «كيف لي أن أعرف؟» تمتم الولد باللغة العربية. «هذا الخواجة مجنون؛ إنه غشاش. هذا (السؤال) ليس في الكتاب.»[2] ومع ذلك فقد تم إرسال أحمد إلى مدرسة في إنجلترا. مضت السنوات ونجح أحمد. ذهب بعد ذلك إلى جامعة كامبردج. وبعدها استدعاه والده إلى مصر. كان حزينا في البداية، لكنه «اشتاق بحنين طبيعي إلى منزل والده، وإلى منظر الجِمال وهي تثير الغبار على ضفاف النيل، وإلى الجواميس وهي تخور وتنغمس في بحيرة كثيرة القصب.»[3] أصبح أبوه مسرورًا: أحمد لديه شخصية الآن. لم تكن المباهاة عبثًا. «اكتسب أحمد الشخصية الإنجليزية سطحيًا تمامًا مثل حفظه للكتب المقررة للغة الإنجليزية في تلك الأيام الخوالي في المدرسة. وبإمكانه ممارستها بدلًا من شخصيته في أي لحظة. بل يمكنه حتى حمل نفسه على التفكير كرجلٍ إنجليزي لساعات على نحو متواصل.»[4]

من خلال نجاحه في اختبار عام وبسبب نفوذ والده، تعيّن أحمد سكرتيرًا لمسؤول إنجليزي في إدارة الخدمات العامة. ائتلف أحمد والإنجليزي بدرجة كبيرة تمامًا كما فعل أحمد مع زملائه بجامعة كامبردج. لكن في يوم من الأيام أشكل على المسؤول الإنجليزي أمر بسيط. حاول أحمد مساعدة صديقه:

«لا تكن أحمق، أيها الرجل العجوز! اجلس. هذا الأمر لا يُعد شيئًا في الحقيقة.»

(١) Ibid., p.290
(٢) Ibid., p.293
(٣) Ibid., p.298-9
(٤) Ibid., p.299

كان [الإنجليزي] جالسًا في مقعده واضعًا رِجلًا على الأخرى، على الطريقة الإنجليزية النبيلة؛ في اللحظة التالية انتفض واقفًا، شاحب الوجه، وهو يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه خجلًا وغمًّا. تذكّر صديقه في لمحة وهتف في وجهه صارخًا:

«اللعنة على وقاحتك! ماذا عساك تقصد بالتحدث إليّ بهذه الطريقة؟»

كان الموظف الأدنى مرتبة يبتسم ابتسامةً عريضة من الأذن إلى الأذن.

«لماذا، مااالذي قلتُه؟» سأله أحمد، بصوت يرتجف من الغيظ.

كان الجواب سيلا من الشتائم. وقف أحمد منتصبًا.

«تعلّمتُ، كما تعلم يا سيّد، تعلّمتُ في جامعة كامبريدج.» (قالها أحمد بلكنة أجنبية ركيكة).

«فلتذهب إلى الجحيم!»

بعد أن انسحب أحمد من الموقف، كان الرجل الإنجليزي، الذي ما زال غاضبًا، يقول مثلًا عربيًا سيئ المعنى وهو يهمّ بالجلوس ثانيةً على مكتبه، هذا المثل تركي المنشأ، ومعناه 'إذا تركتَ لعلي المجال سيدنّس فراشك في الحال'. كانت إساءةً لا يمكن تصوّرها.(١)

حاول الرجل الإنجليزي تدارك الوضع، لكن دون جدوى. غموض «الشخصية» انكشف، وأحمد، اختصارا لقصة قصيرة أصلًا، أصبح قوميًا. القصة معقولة تماما، وتستمد حيويتها من لغة أحمد الإنجليزية، إذ تنتقل بسلاسة إلى العامية حين يكون أحمد تحت الضغط ويفقد تحكمه بمخارج الأحرف الإنجليزية الساكنة. لقد انجرح أسلوبه اللغوي ومعه كبرياؤه.

قصة «شخصية» والقصص الأخرى التي تقع أحداثها في مصر هي سجلات وثائقية في قالبٍ قصصي. كان بكثال يصف مدى تأييد المصريين، بل حماسَهم، للحُكم البريطاني، وتقبّلَهم لمزاعم بريطانيا بأحقية السلطة، ونطاقَ

(١) Ibid., p.302

العلاقات الشخصية الموسّعة ـ وهي ودّية، صادقة، محترمة، متضرّرة، شكلية، وغير مفهومة ـ التي تربط البريطانيين بالمصريين. مثل هذا النطاق لا يمكن تدوينه بدقّة في كتب التاريخ وعلم الاجتماع. مثل المصوّر الفوتوغرافي، كان بكثال يلتقط صورًا للتاريخ النفسي، والمشاهد المحيّرة التي كان يتجاهلها الإنجليز والمصريّون.

رواية سعيد السمّاك (١٩٠٣) (*SAÏD THE FISHERMAN*)

رواية سعيد السمّاك هي أكثر روايات بكثال شهرة، وهي تستحق ذلك. إنها الرواية التي كُتبت على مهل، بخلاف رواياته اللاحقة عن الشرق الأدنى. خبرات السنتين اللتين قضاهما بكثال في أسفاره تحوّلت إلى قصة رائعة. هذه القصة أظهرت لأول مرة قدرة بكثال على الملاحظة المتمكّنة. الحكايات الشعبية، العبارات المتداولة، العادات البدنية والإيماءات، الأوضاع الاجتماعية والسياسية في سوريا أواخر القرن التاسع عشر، كل ذلك تم وصفه بكل إتقان ودقة.

استغرقت الرواية وقتًا طويلًا لكتابتها. أضاف بكثال لذكرياته خلفيّات اقتبسها من الكتب التي ألّفها جَيمس سكِيْن (James H. Skene) الذي كان يشغل منصب القنصل البريطاني في حلب علم ١٨٦٠، وتشرشل الذي كتب من تجربة شخصية عن دروز لبنان في خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر. كما قابل بكثال زوجة السيد سكِيْن في سويسرا أوائل عام ١٨٩٩ وناقش معها أحداث عام ١٨٦٠.

نالت رواية سعيد السمّاك ثناءً نقديًا فوريًا. كانت المبيعات بطيئة في البداية. بيع منها ٨٠٠ نسخة فقط في الشهرين الأوّلَيْن، لكن بحلول عام ١٩٠٤ صدرت الطبعة الخامسة وبحلول عام ١٩١٣ صدرت الطبعة التاسعة منخفضة التكلفة، وفي عام ١٩٢٧ صدرت الطبعة الرابعة عشرة. كما نُشرت في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٠٣، وأُعيد نشرها بواسطة دار (Knopf) عام ١٩٢٣، وصدرت ضمن سلسلة (Blue Jade Library) عام ١٩٢٥. تُرجمت إلى اللغتين الألمانية والإيطالية. علماءُ مستشرقون مثل إدوارد براون وستانلي لِين ـ پُوول

ودي. إس. مرجليوث، اعتبروها من نفائس الروايات. وأصبح اللورد كرومر هاويًا لها. تحمّس لها أيضًا عندما نُشرت كل من إتش. دجي. وِلز وآرنولد بينِت وجيمس باري، وفي عام ١٩٢٨ كتب عنها دي. إتش. لورنس (D.H. Lawrence) مقالةً حميمة في المجلة الأدبية (*Adelphi*)[*].

سعيد هو الشخصية المركزية في الرواية، مهنته صياد أسماك، وهو مخادع بطبيعته. كان عمره ثلاثًا وعشرين سنة تقريبًا عندما ظهر لأول مرة في الرواية، وكان قد أمضى سبع سنين في زواجه من حسنة وليس له أبناء، ويمارس تجارته على شاطئ فلسطين قرب حيفا. ترك مهنة صيد الأسماك وغادر إلى دمشق، وتخلّى عن زوجته في الطريق. كان يكذب على كل الذين يقابلهم ويتصنّع من أجل الاحتيال وللهرب من كارثة. وصل إلى دمشق وعاش هناك حياة الكفاف.

وصل سعيد إلى دمشق في صيف ١٨٦٠. خلال الأشهر السابقة كانت هناك شائعات حول قيام فتنة وزيادة في التوتّر بين الجالية المسيحية من جانب والمسلمين والدروز من الجانب الآخر. معارف سعيد في دمشق أُناس مسلمون بسطاء، لكننا نشاهد ومضات مباشرة وغير مباشرة لأشخاص عظماء. النبيل الأمير عبد القادر، وهو منفي من الجزائر، يَظهر ظهورًا مشرّفًا. سليم، صاحبُ سعيد الأقرب إلى نفسه، خدَم لمدة في منزل والي دمشق المتذبذب، أحمد باشا. قُبض على سعيد ومسلمين آخرين وأُجبروا على تنظيف شوارع الحي المسيحي، وهي عقوبة مهينة أدّت إلى وقوع اضطرابات ومقتل المئات من المسيحيين.[1] خلال هذه الاضطرابات قام سعيد بخطف ابنة شابة لتاجر مسيحي كان سعيد مغرمًا بها مدةً طويلة، وجعل من نفسه تاجر سجّاد.

(*) مجلة أدبية شهرية صدرت في المملكة المتحدة بين عامي ١٩٢٣ و١٩٥٥.

(١) For a historical account of these events, see Moshe Ma'oz, *Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840-1861* (Clarendon Press, Oxford, 1968), pp.231-40 and Linda Schatkowski Schilchr, *Families in Politics* (Franz Steiner, Stuttgart, 1985), pp.87-100

للاطلاع على سرد تاريخي لهذه الأحداث، طالع كتاب موشي ماعوز بعنوان الإصلاح العثماني في سوريا وفلسطين خلال الفترة من ١٨٤٠ إلى ١٨٦١ وكذلك كتاب ليندا شاتكوسكي بعنوان عائلات السياسة المنشور عام ١٩٨٥

في الأعوام التي تلت ١٨٦٠ ازدهرت حياة سعيد. تزوّج من رهينته، فريدة، ورزق منها بولد. لكن ثقته بنفسه أدّت به إلى تخطّي نفسه. احتالت عليه فريدة وسرقت أمواله. فقد أصدقاءه، وأصبح منبوذًا وحاول الهرب من سوريا. في بيروت تمكّن من تفادي ملاحقته من الشرطة وسبح إلى قارب وجهته إنجلترا. نزل في شرق لندن، مُعْدَمًا ووحيدًا. أصابه مسّ من الجنون وأنقذه مبشّر مسيحي وأعدّ العُدّة لسفره إلى مصر. في الإسكندرية هرب من منقذيه وتم تقديم العون له كإنسان مجنون مقدّس حتى عام ١٨٨٢ عندما أخذته سَكْرَة الاضطرابات ضد المسيحيين حيث لقي حتفه متصوّرا أنه كان يحمل شرف الدفاع عن دين النبي (ﷺ).

سعيد وغد، منافق، لاأخلاقي، وقادر على ممارسة أقصى درجات الوحشية وقسوة القلب. هو أيضًا مغرور وحسود ومخادع وبلا إيمان وجذّاب. كما تتعذّر السيطرة عليه وفيه شيء من شخصية فولستاف.(*) تُغرينا الرواية لقبول سلوكيات ومواقف غير مقبولة أخلاقيًا. سعيدٌ أعنف ما يكون حال فقره. وإذا اغتنى يظهر كشخص دمشقي تقيّ مرموق، ويكون أقلّ إثارة للانتباه. بكثال جعل من سعيد شخصية لا تُنسى.

منذ أن تقبّلنا سعيد، ونحن مدعوّون لمشاهدة العالم والغرب من منظورِ سعيد. في طريقه إلى دمشق، اقتحم سعيد منزل أحد المبشّرين الغربيين. تجوّل في غرفة النوم وتعجب من قطعة الأثاث الرئيسة وهي «مثل الطاولة تقريبًا وترتكز على ست أرجل معدنية؛ أربع من تلك الأرجل تمتد إلى الأعلى أيضًا، وكل واحدة من هذه الأرجل عليها تاج مثل البرتقالة من معدن أصفر لامع حسبه سعيد ذهبًا. شيء مدهش!»[1]

في الفصول التي وقعت أحداثها في لندن، نشاهد لندن كما يراها سعيد. يحاول سعيد أن يفهم هذه البيئة غير الصديقة، ويكون ردة فعله تجاه المواقف

(*) نسبة إلى Falstaff ويظهر في ثلاث مسرحيات لشكسبير وتتسم شخصيته بالدناءة والخداع والأنانية، والجبن والمباهاة والظرف.

(١) *Saïd the Fisherman*, p.39

الإنسانية كأنه ما زال في دمشق؛ متكئًا على كرامته، وجِلًا خشيةَ تذوّق اللحم الحرام(*)، مستثمرًا الفُرص للصلاة، ويسبّ المسيحيين. لا يفْتُرُ السردُ للحظة واحدة. كما لا يوجد أي تعليق جانبي ساخر يُظهر قِيَم المؤلف، أو يروق لقيم القارئ. نحن نعاني - كما يعاني سعيد - من بذاءة الصعاليك، وفضول رجال الشرطة والتحرّش بالنساء.

معظم الرواية جرت أحداثها في دمشق. نقابل جمًّا غفيرًا من الدمشقيين. سليم، الصديق الأفضل لسعيد، يُمثّل دور الضمير لسعيد. «كان سليم مسلمًا طيّبًا، تقيًّا ومخلصًا قلبًا وقالبًا. لو وُلد من رحم الثروة والمكانة، لتم تبجيله من بين جميع الناس كالقدّيس.»[1] في كل مرة يتجاهل سعيد نصائح سليم - ويتكرر هذا كثيرًا - تحدث كارثة.

حين يصف بكثال الناس وعلاقاتهم، هناك غياب تام للنزعة الوعظية أو العاطفية. تُبنى العلاقات على عدم المساواة؛ إنه التوازن بين المراعاة والرعاية. كان سعيد يتصرّف بشكل طبيعي عندما كان الناس، أيام الرخاء، يلقون ﷺ بكل احترام في الطرقات، وهو يرد عليهم التحية منتبهًا لوجودهم بإشارة خفيفة من يده. لكنّ أحد النبلاء في المدينة، كان يمتطي صهوة جواده الأشهب بالقرب منهم، ويسبقه مرافق على جواده، وصرخاته «أووه!» تفرّق الناس يمنة ويسرة لتفسح الطريق (لهذا النبيل)؛ كان سعيد أكثر الناس إحناءً لرأسه، ويلمس شفتيه وحاجبيه للتعبير عن مدى احترامه.»[2] هناك تدرّج هرمي محدد ودقيق، وإن كان هذا معترَفًا به بكل تقدير عالميًا.

وصف بكثال الأجواء التي أدت إلى أحداث العام ١٨٦٠. حكاية سعيد في صراعه من أجل البقاء تقاطعها الشائعات والتصريحات حول امتعاض المسلمين من الامتيازات الجديدة الممنوحة للمسيحيين تحت ضغط من القوى الغربية. اشتكى بغّال من أن المسيحيين أصبحوا سِمَانًا ومتغطرسين. قال إن

(*) لحم الخنزير، بحسب السياق.

(١) Ibid., pp.217-18

(٢) Ibid., p.191

«اللوم يقع على القناصل الذين يحمونهم ويحرّضونهم على كل ما يفعلونه. أسوأهم الذي يخبرك أنهم مواطنون فرنسيون أو روسيون، ويبرزون لك وثائق تثبت ذلك أعطاهم إياها القنصل.»[١] يشعر المسلمون بالعجز لأن «الفرنجة أقوياء وأن ثأرهم سيكون أليمًا. كما تعلمون، الفرنسيون والإنجليز آزروا الأتراك في الحرب الروسية الأخيرة، ولأجل هذا يدّعون أنهم يحكمون مملكة السلطان عِوضًا عنه.»[٢]

فقرات الوصف المثالية يقتحمها الواقع القاسي والفاحش، في بعض الأحيان. الأصوات والصور تجتمع لتخرج مشهدًا جميلًا للقرية الواقعة في ضاحية من دمشق.

من قاعدة التلّ، في أقصى حافة للبساتين، كان سعيد يشاهد قرية صغيرة أسطح منازلها منبسطة. كانت مجموعة من الجِمال تقترب نحو القرية على طول قاعدة التلّ. بريق أجراسها يترقرق في الغسق على نحو مبهج. فجأة يصرخ صوت صدّاح، ترنيمة جامحة عذبة لها جلجلة نفّاذة. أتى الصوت من قمة المنارة الوحيدة في القرية. هذا الصوت لطّفه بُعد المسافة ووصل أذن سعيد مثل طرب ربّاني. توقّفت قعقعة الأجراس فجأة. هنا الجِمال قد توقّفت. كان الحدّاؤون يسجدون في صلاتهم استجابةً لنداء المؤذن.»[٣]

بعد وقت وجيز، امتطى سعيد جوادًا مسروقًا ذاهبًا إلى المدينة، «وكانت الكلاب، بأعداد كبيرة، قد نهضت على مضض وانسلّت وهي تزمجر بعيدًا عن الطريق.»[٤]

كلاب صيد مزعجة تحوم على نحو متكرّر، لتذكّرنا باستمرار ألّا ننجرف وراء الصور الجميلة. في الصفحات الافتتاحية للرواية هناك وصف لغروب مهيب للشمس على ساحل فلسطين يتضمن وجود مجموعة من كلاب «وهي

---

(١) Ibid., p.64
(٢) Ibid., p.65
(٣) Ibid., p.52
(٤) Ibid., p.53

مستلقية وممتلئة حول جيفة حمار على حافة التموّج وهي تلهث ناعسة. نظرَتْ إليه خلسة عندما مرّ بها وحرّكت بطونها بصعوبة. كانت تلك البطون ممتلئة لدرجة عدم استطاعتها أن تزمجر.»[١] تأتي الكلاب إلى المدينة ليلًا بمحض إرادتها. الكلاب في دمشق «كانت تجول وهي تراقب أطراف التجمّعات، وهي مُدركة بانتهاء تعرّض الإنسان لها، وهي تبحث بأفواهها المفتوحة عن بقايا وليمة لم يمسّها أحد.»[٢] وعلى النقيض، خلال النهار، «كلاب الشوارع تتجوّل وألسنتها متدلّية كلما نامت.»[٣] مما هو خليق بغوغاء المسلمين إذا أرادوا إيذاء المسيحيين، بتحريض من سعيد، «أنهم كانوا يُمسكون بكلاب الشوارع التي تربض حولهم بكثرة، ويربطون صليبًا في ذيل كل منها ثم يركلونها لتذهب وهي تعوي في كل اتجاه.»[٤]

هذه الرواية ترسم صورة مقبولة ظاهريًا للحُكم العثماني الضعيف في القرى. سلطة الحكم العثماني كانت محدودةً بحسب الظروف المحلية كما كانت بطبيعتها متقلّبةً. الرشوة ينتفع منها الأغنياء. لكن بالنسبة لمعظم الناس، كانت الحكومة «بعيدةً كبعد السماء، وفاقدةَ الإحساس، فلا هي ودود ولا عدوانية. كان سعيد قد وقف في نفس تلك الرهبة الغامضة التي وجهها رجلٌ بسيط لديه آلية عظيمة لم يتمكن من إدراك سرّ وظائفها.»[٥] هذه الرواية هي مصدر وصفي ثانوي لوضع سوريا العثمانية خلال القرن التاسع عشر، مادتها مستوحاة من الأحاديث الشفهية التي جمعها بكثال بنفسه خلال سفرياته في صباه.

كتب بكثال عن الشرق الأدنى كما شاهده. كان أحيانًا يؤكد أنه وقع في حب الإسلام و'الشرق' خلال تسعينيات القرن التاسع عشر. كانت رواية سعيد السمّاك يقرأها من لا يشارك ذلك الحب عند بكثال. إضافةً إلى أنهم وجدوا سببًا للعدائية أو الاحتقار تجاه السوريين والمسلمين. هيمنت شخصية سعيد

(١) Ibid., p.2
(٢) Ibid., p.97
(٣) Ibid., p.122
(٤) Ibid., p.134
(٥) Ibid., p.261

على الرواية. هناك انتقاد شائع لدى الغربيين تجاه الإسلام يتمثل في تمازج الكرامة الشكلية مع الشهوانية والابتذال.[1] خلال أحداث دمشق كانت هناك فترة هدوء. «استمتع غير المؤمنين بالمهلة، بينما كان المؤمنون يؤدون صلواتهم.» في غمرة المذبحة، سعيد بنفسه «سقط على وجهه وأثنى على اللّه وحمِدَه. شعر بالرضا وهو يتفكّر كيف أنه ترك الصلاة في وقتها المحدد لأيام معدودةٍ فقط في حياته.»[2]

هذا (السياق) كما لو كان بكثال يغذّي الناقدين للإسلام. ومع هذا فإن هذا الاستنتاج مضلِّل. الفضيلة دائما مُمِلّة. هناك مسلمون جيّدون في رواية سعيد السماك. سليم، الذي هو الضمير بالنسبية لسعيد، هو المثل الأعلى للفضيلة. كما تحوي الرواية على المثال الأول لبكثال لتلك الشخصية التي يتكرر ظهورها؛ المسلم المتحضر الأرستقراطي، رحيم ولكنه عبوس، يتفهّم الضعف البشري لكنه لا يضلّ عن طريق الفضيلة، والسلوك الحسن والقدوة؛ رجل، باختصار، يتمسك بالتعاليم التي تحدّث عنها بكثال وكتب في سنوات إسلامه الأخيرة.

رواية دار الإسلام (١٩٠٦) (*THE HOUSE OF ISLAM*)

رواية دار الإسلام روايةٌ مخيبة للآمال. الرواية الثانية لبكثال عن الشرق الأدنى ينقصها القوّة والإعداد المدروس في رواية سعيد السمّاك.

معظم أحداث الرواية وقعت في مدينة القدس خلال القرن التاسع عشر. تعرض الرواية التباين في نمط الحياة الإسلامية لأخَوين، مُلْحِم وشمس الدين. كلاهما من أصل فلسطيني. تفتتح الرواية أحداثها في اسطنبول. ملحم موظف

---

(١) For example, W.H.T. Gairdner, *The Reproach of Islam* (The Church of Scotland, Edinburgh, 1909), pp.138-9. Pickthall's novel is cited as evidence to support the view

على سبيل المثال كتاب دبليو غيردنر لوم الإسلام (مطبوعات كنيسة اسكتلندا، إدنبره، ١٩٠٩)، ص١٣٨ ـ ٩. تم الإشارة إلى رواية بكثال هذه كدليل على وجهة نظره.

(٢) *Saïd the Fisherman*, p.165

طموح في الحكومة العثمانية. أخوه تاجر وشخص متديّن. اقترض ملحم نقودًا من شمس الدين لشراء وظيفة حكومية في القدس. خلا شمس الدين بنفسه ليعيش حياته الخاصة في إمارة شرق الأردن، في بلْدة بها آثار قديمة وجالية من الشركس استقرّوا بها بعد حرب القرم.

شمس الدين لديه ابنة اسمها علياء وهي محبوبة جدًا، وقد مرِضت. تم إقناع شمس الدين أن يصحب ابنته إلى طبيب إفرنجي يقيم في القدس. عُرف شمس الدين بالتقوى والاستقامة، وبدأ رحلته إلى القدس يرافقه حسن وهو زعيم شركسي لمجموعة من قطّاع الطرق، كانوا متواجدين أثناء حصار مدينة قارص التركية. المغامرات الواردة كمغامرات الصعاليك، وهي مُمِلّة وغير مُقنِعة. وبالمثل فإن المغامرات التي خاضها سعيد في دمشق يمكن ألا تكون ممكنة، لكن سعيد كان وغدًا مكتملًا، وأن الظروف المحيطة بحياته مكوّنة من تفاصيل صحيحة جعلت من الأشياء المستبعدة الوقوع مُمْكِنًا تصديقها. وهذا ليس الحال في رواية دار الإسلام.

كان بكثال يصوّر معضلاتٍ تواجه المسلمين وطرقًا مختلفة للخروج منها. وهناك، على سبيل المثال، ثلاث طرق للتكيّف مع المرض. بإمكانك التوكّل على الله. وهذه كانت ردّة فعل شمس الدين المبدئية. لكن الأصدقاء نصحوه بالرجوع إلى الاستفادة من الطب الغربي الكافر. كان حسنٌ يتذكّر طبيبًا إنجليزيًا، ويتذكّر سلوكه المشرّف في مدينة قارص، وهذه الذكرى تجانب خيانة الإنجليز للشركس بعد حرب القرم. أما الطريقة الثالثة فهي التي كانت تفضّلها خادمة علياء حيث تنصح بالخواصّ العلاجية لشجرة جوار قبر قدّيس محلّي. قامت الخادمة سرًّا بوضع بعض ملابس علياء على الشجرة. استنكر شمس الدين هذه البدعة المحلية، وصُدم لرؤية ملابس ابنته على الشجرة. بيد أنّ رفضه شابه بعض الضيق. «بتمزيقه قطعة القماش الوثنية من على غصن الشجرة، سلّم شمس الدين بوفاة ابنته بأمر الله.»[1]

---

(١) *The House of Islam*, p.82

وُصفت القدسُ بنفس النشوة التي وُصفت بها دمشقُ في رواية سعيد السمّاك. إنها مدينةٌ قاطنوها مثقّفون، شُمّ الأنوف ومشغولون:

لكل أحد يشق طريقه بحذر في تلك المتاهة المزدحمة المبنية من الحجر الضارب إلى البياض، عتيقة ومتّسِقة، فإن نظراتٍ خاطفة إلى السماء الصافية الزرقاء يستقبلها كزهرة على الصخور. أما شمس الدين، الذي تعوّد عبر السنين على الآفاق الرّحبة والطرق المفتوحة، فإن الجدران التي تلقي بظلالها تشكّل سجنًا بالنسبة له. جلَبةُ الأسواق بهَرَته، وشعر بالأذى بسبب دفعه بالأكتاف من قِبَل عابري السبيل الآخرين غير المكترثين.»[١]

وُصف الحي المسلم بنوع من الحساسية من قِبَل شخص كان هناك فعلًا:

الجدران العالية القديمة ارتفعت على جانبي الطريق. النوافذ السلكية البارزة، مع قوس هنا وهناك، تطغى على السماء الجوهرة. تحت ظل بوّابة قديمة، مزخرفة لكنّها متآكلة من البِلى، جلس بائعُ خبز وهو نائم خلف طبقتين من الخبز الأسمر المفرود. أتى رجلٌ يحمل على ظهره سِقاءً ووقف عند المدخل أمامهم. مرّ بهم شخصٌ وجيه وقور، في ثوبٍ مقتصد لكنه فاخر، دون أن يلقي عليهم نظرةً، وكانت إحدى يديه على صدره. كلّ شيء في ذلك الحيّ المُعتِم، الذي كان رائعًا يومًا ما، يحكي ذكرياتٍ يُفتَخر بها، وكرامةً لم تكن بحاجة لورقة رابحة لإثباتها. كان الجو مفعمًا بالحزن، حزن الأشياء العظيمة العتيقة.[٢]

كانت صورة القدس الحالمة لم تُخضع للعاطفة كالعادة. لدينا أيضًا قصيدة حب، غُنّيت بالعُود. هذه الأغنية الآن «يعلو صوتها كنحيب متوتّر، ثم تهدأ إلى أنين عاطفي. من وقت لآخر، بين الطرقات الخفيّة، انفجر صراعٌ بين كلابٍ، هاجت صاخبةً باحثةً عن مكان، ثم هدأت.»[٣]

---

(١) Ibid., p.139

(٢) Ibid., p.141

(٣) Ibid., p.237

تظهر العديد من الموضوعات الجانبية في رواية سعيد السمّاك، لكن ليس بنفس الوحدة الموضوعية للرواية السابقة. شخصيات الرواية الأوربيون يظهرون بدون أسماء أو دور فردي محدد لكنهم كالعادة هزليون. «الفرنجة أحدثوا صَلْصَلةً بالسكاكين والشوكات على أطباق الطعام المصنوعة من الصفيح أو معدن آخر. كانوا يضحكون بصوت عالٍ وعلى نحو فارغ، وترجع التلال القريبة صدى أصواتهم. كانوا يحدّقون النظر بطريقة وقحة في القادمين.»[1] تتم مشاهدتهم من منظور العربي. من وجهة نظر كهذه، تبدو كثير من عاداتهم المحلية شاذّة ومستهجنة: مثل جلوسهم على المقاعد. كان لزامًا على شمس الدين أن يجلس على مقعد، «وقدماه مطويتانِ تحته لدرجة الإحراج الذي سبّبته بدعة الجلوس هذه.»[2]

بيد أن لحظات بعد النظر هذه قليلة العدد. كانت كما لو أن رواية سعيد السمّاك استنفدت مخزون بكثال من الذكريات. هذه الرواية الشرقية الثانية تستخدم شتات خبرات سابقة وأحاديث جمعها بكثال خلال عشر سنوات مضت. في روايته الأخرى (*The Myopes*)، أحد الشخصيات المركزية كتب عن تجاربه الشرقية. رفض أحد المحرّرين كتابات بكثال موجّهًا لها نقدًا ينطبق على رواية دار الإسلام. الكاتب هو «جزء من عرض لا يشعر به... ولا يستطيع الخروج منه ليُلقي نظرةً. وفي الحقيقة، قدرته النقدية تقريبًا غير ناضجة البتّة.»[3] رواية دار الإسلام تعد كتابًا مُنهَكًا بصورة غريبة. نُشرت الرواية قُبيل رحلة بكثال إلى مصر حيث كان هناك قادرًا على استرداد الإلهام بتحويل أحداث الحياة العادية إلى أعمال فنية.

رواية أبناء النيل (١٩٠٨) (*THE CHILDREN OF THE NILE*)

كانت رواية أبناء النيل ثمرة زيارة بكثال لمصر عام ١٩٠٧. وتعتبر إضافة للنقاش حول أحداث التدخّل البريطاني في مصر التي حدثت قبل ربع قرن. أثارَ

---

(١) Ibid., p.97

(٢) Ibid., p.228

(٣) *The Myopes*, p.96

النقاشَ تقاعدُ اللورد كرومر كقنصل عام في القاهرة عام ١٩٠٧ ونشْر مذكّراته عن مصر، بعنوان **مصر الحديثة** (*Modern Egypt*)' عام ١٩٠٨. أوضح حقيقة التدخّل البريطاني السيد ويلفريد سكاون بلَنت (Wilfrid Scawen Blunt) في كتابه الموسوم **التاريخ السرّي للاحتلال البريطاني لمصر** (*Secret History of the English Occupation of Egypt*) المنشور عام ١٩٠٧. رواية بكثال أيضًا ترصد بنفس الفِطنة بعض التغيّرات الاجتماعية التي حدثت بمصر في القرن التاسع عشر.

الرواية تربط الأحداث التي وقعت في القاهرة والإسكندرية ودلتا النيل في السنوات التي أدت التي معركة تل الكبير في شهر سبتمبر عام ١٨٨٢، حينما حطّم الجيش البريطاني بقيادة وُلْسِيلي (Wolseley) انتفاضة الوطنيين بقيادة عرابي باشا. الشخصية المركزية في الرواية هو مبروك، ابن شيخ من الدلتا، وتلقى تعليمًا أوربيًا في كلية الطب بالقاهرة، ويقرأ غراميّات عاطفية مترجمة من الإنجليزية أو الفرنسية. نشاهد مبروك في ثلاثة مواضع. أولًا، حياة القرية التي قضى فيها طفولته، بكل ما فيها من عداوات، وتعاملها مع قطّاع الطرق. انتشر قطع الطرق في سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر، ولاحظَ بكثال الدور الاجتماعي الإيجابي لقطاع الطرق. ثانيًا، عدّة فصول (من الرواية) تصفُ الاحتفال بمولد السيّد أحمد البدوي في طنطا، وهو أكثر شيوخ الصوفيين شعبية في مصر. ثالثًا، حين ينضم مبروك لجيش أحمد عرابي ويشارك عن قرب في أحداث عام ١٨٨٢، كشاهد على أعمال الشغب وقصف مدينة الإسكندرية بالقنابل ومعركة تل الكبير نفسها.

بكثال، كغيره من كتّاب الرواية التاريخية، يتجنّب إدراج شخصياتٍ تاريخية حقيقية كشخصياتٍ مركزية في رواياته. نحن نشاهد رجال التاريخ العظماء من خلف الكواليس. يقوم مبروك بنقل رسالة إلى أحمد عرابي. «هذا الجندي المشهور،» يتم وصفه بأنه «طويل القامة، ممتلئ البدن، متأنٍّ وكثير التفكير، لكنّه مهذّبٌ، وصاحبُ ابتسامة لطيفة.»[1] يقوم بكثال بتحليل الدعم الذي تحظى

(١) *The Children of the Nile*, p.206

به ثورة أحمد عرابي. الفلّاحون والقرويّون، والرُّتب الدّنيا في الجيش، شكّلوا العمود الفقري لحركة عرابي. التجّار ساكنو المدن الذين ازدهروا في الأزمنة الهادئة أحجموا. كثيرٌ من الطبقات ذات الحظوة، الأتراك والشركس، ساندوه من منطلق انتهازي، ولكنهم نأوا بأنفسهم.

يشاهد العالم من خلال عيني مبروك، وتوصف التغيّرات الاجتماعية كما يتأثّر بها. تطوّرت الطباعةُ في مصر بشكل هائل في ذلك الوقت، وصدرت كتيبات لعمل الأشياء وكذلك كتب أدبية لا بأس بها. المتعلّمون توسّعت آفاقهم الفكرية والإبداعية بدرجة لم تحدث من قبل. مبروك شخصية حالمة ولاعب أدوار. الآفاق المتفتّحة كان لها تأثيرها على الناس من حيث توقّعاتهم وطموحاتهم. رأى مبروك أنّ «الأحداث وشرورها، التي نُظر إليها إلى الآن أنها طبيعية، وأنها بقدر اللّه، تم رفعها كمظالم وأُوصلت إلى الحكومة.»[1] لكنّ تحويل سياسة مصر وتحريك الناس تجاه عمل جماعي بنّاء لم يكن سهلًا. «من أجل الفعل، كان من الضروري إمّا إقناع كل فرد لأن يقف شخصيًا ليكسب من خلال تغيير الحكومة، أو تهيئة استعراض لقوّة هائلة تجعل العالم كلّه ذليلًا صاغرًا.»[2]

تَعرِض الرواية مواقف شائعةً كانت تهكّمية وانتهازية، وحشية وأنانية حدّ الفجور. كان بإمكان والد مبروك أن يفتديه من الجيش، لكنّ مثل هذه الفدية اللافتة كانت ستجلب انتباه قطّاع الطرق، واللصوص ومحصّلي الضرائب: «كانت الفدية ستكشِف ثروته وتؤدّي به إلى الافتقار.»[3] عندما أصبح مبروك ضابط صف «أفرح قلبه أنه سيأمر الناس ويسوقهم مثل الكلاب، وسيضرب الأغبياء بخيزرانته. هو بنفسه قد تعرّض للأوامر وضُرب، وهي حقيقة أعطت عمله الحالي مذاق العدالة.»[4] كانت تلك المواقف لأولئك الناس الذين همّهم العيش على الكفاف، أناس كان عليهم أن يعيشوا بذكائهم في عالم متقلّب وغير مستقر. كان الإيمان شيئًا لكنّ البقاء كان شيئًا آخر. مجموعة الأمثال المصرية

---

(١) Ibid., p.202

(٢) Ibid., p.203

(٣) Ibid., p.149

(٤) Ibid., p.223

التي جمعها بركهارت (Burckhardt) خلال القرن السابق تُظهر نفس التهكّم القاسي والهزلي.

عالم الإيمان في الدلتا، الرتابة والطاعة، كانت تتغيّر بفعل مجموعة من المؤثّرات الخارجية. هناك أنماط بديلة ظهرت في حياة الناس بشكل ملموس وظاهري. مدينة القاهرة المصرية مازالت تعجّ بالحيوية لكن الحداثة بدأت تطغى عليها.

تركوا خلفهم الشوارع الفسيحة في الحي الحديث، وسلكوا متاهة من الأزقّة المزدحمة بالحياة المهمَلة، حيث تنام كلاب ممتلئة على جوانب الجدران، وكل مدخلٍ لمنزل يفوح بشذىً عائلي. بعض المجنّدين بدأوا يبكون من جديد، عندما ظهروا في الميدان المحاط بمبانٍ عظيمة وكئيبة بنيت على النمط الأجنبي. هنا فِرقة كانت تلعب، بينما الجنود يتحركون بشكل مترابط، مجموعات من خمسين أو مئة منهم يظهرون في تقدّمهم كقِطَعٍ وشرائح من الكتلة الإجمالية.[١]

الرتابة أصبحت هي النسق؛ الحياة الكسولة أفسحت الطريق للتمرُّن.

تقبّل مبروك وزوجته التأثيرات الأجنبية واعتنقاها. كان اللباس هو المؤشر على تقبّلهم. عندما يستقل مبروك القطار يرتدي بزّة إفرنجية، وكان المسلمون يظنّونه في البداية مسيحيًا. «موضة البزّة الإفرنجية وفوقها الطربوش،» بحسب بكثال، «رغم أنه مألوف في المدينة بين الشبّان المسلمين ذوي الأفكار المتقدّمة، إلا أنه في الأرياف ما يزال محصورًا على الأقباط والسوريين.»[٢] زوجة مبروك وجدت نساء القرية غير مهذّبات. كُنّ دائمًا «يستهزئن بلباقتها، وبالأفكار التي جاءت بها من المدينة. ظهورها غير محجّبة أمام الرجال صدم احتشامها عند عودتها لأول مرة.» (ارتداء الحجاب، في ثمانينيات القرن التاسع عشر كما في ثمانينيات القرن العشرين، كان رمزًا للنساء المتنقّلات المتمدّنات بشكل

(١) Ibid., p.141

(٢) Ibid., p.8-9

متصاعد.) «افتقدَتْ هي ذلك الصّخب، المتاجر المغرية، المناظر البهيجة، واللعب مع النساء في الحمّامات (العامّة).»[١] لكن، رغم أن هذا مفترض، هذه المزايا المدنيّة للسلوك كان يُنظر إلى أنها ضحلة، حتى إنها تُحتقر. مِثل هذا السلوك كان «خدعة قِرد، أو من أعاجيب الدماغ، لها قيمةٌ فقط حينما تمنحه بين رفقائه الحاليين رواجًا كالمشعوذ المحتال أو القاصّ الماهر.»[٢]

كما في الروايات الأخرى، الشخص الإنجليزي شخص غريب أخرق. الجنود في تل الكبير لهم «وجوه حمراء عريضة، وأعين شاحبة فارغة، وأنوف منتشرة.»[٣] لكنّ هناك اختلافًا. أما سياسيًا، فبكثال ليس صديقًا لعداوة الوطنيين ضد الحكم البريطاني. رأى بكثال محاسن التأثير الأوربي والاحتلال البريطاني. كانت مرتّبات الجنود وعمال القطاع العام تُدفع بانتظام. كان الإنجليز مألوفين، وكانت اللغة الإنجليزية منتشرة. كان شبّان الموضة الذين اعتادوا على قول: «صباح الخير» بالفرنسية، أصبحوا الآن يُلقونها بينهم باللغة الإنجليزية.»[٤] وحتى والد مبروك الكسول متحمّس «للإنكليز الطيبين، الذين، كما هو واضح حقيقة، هم سادة الكرم!»[٥]

تعرّف بكثال على سوريا حين قدم إليها عن طريق المنصّرين. ابتعد بكثال عنهم وفضّلَ رفقةَ السوريين. وفي مصر حلّ بكثال ضيفًا على مسؤولين بريطانيين. لم يستنكر بكثال وجهة النظر الرسمية، كما تشير كتاباته الصحفية. رواية أبناء النيل هي أولى رواياته التي تحوي التزامًا سياسيًا ضمنيًا. تصوّراته حول المواقف الشائعة ثاقبةُ الفِكر كتلك التي في رواية سعيد السمّاك. وكما في روايته السابقة، بكثال لا يتملّق. لكنْ هناك حبٌّ، واستمتاع بكثرة الاحتفالات الشعبية، وحساسية تجاه التحوّلات الغامضة في السلوك. مثل هذا التعاطف لم يكن كتعاطف السيد بلنت الذي ناصر من أعماق قلبه أولًا قضية المستعربين ثم

---

(١) Ibid., p.33
(٢) Ibid., p.14
(٣) Ibid., p.307-8
(٤) Ibid., p.314
(٥) Ibid., p.316

الوطنيين. بكثال يتعاطف مع أحد شخصياته في رواية أبناء النيل، وهو شابّ من أسرة نبيلة وثريّة جدًا، ولديها ممتلكات في دمشق. «في الحقيقة، لم يكن ينتمي إلى أي منطقة، بل إلى (الأمّة) الإسلامية، ويشعر حين يكون في سمرقند أو مكة كأنه هنا في بلده مصر. وحين ينظر إلى العالَم من خلال رفعة الدِّين الحقّ، فإنه يرى همومه السياسية، في الغالب، كنضال فقط من أجل الطموحات الدنيا، التي سيخجل منها المناضلون من أجلها يوم القيامة.»[1] الالتزام تجاه عالم الإسلام والانفصال عن السعي من أجل التطوّر أو الكسب المؤقّت أصبح موضوعًا شائعًا في تفكير بكثال الإسلامي أواخر حياته. الناس الخلوقون حافَظوا على الدين. لم يكن مهمّا بيد من تكون السلطة ما دامت العدالة سادت وازدهر الدِين. هذه الغايات تحقَّقتْ حينما حكَمَ مصرَ حُمْرُ الوجوه الذين يتحدّثون بصوت عالٍ من الإنجليز. رواية بكثال المصرية لم تُغضب مضيفيه الإنجليز في القاهرة.

رواية وادي الملوك (١٩٠٩) (*THE VALLEY OF THE KINGS*)

رواية وادي الملوك هي حكاية عن المكْر والسذاجة. وقعت أحداثها في بلْدة ساحلية في فلسطين إبّان رحلات بكثال الأولى هناك. الشخصية المركزية هو رجل فلسطيني مسيحي فقير اسمه اسكندر من عائلة أرثوذكسية تلقّت تعليمها في مدرسة تبشيرية إنجليزية. كبيرة الراهبات تُدعى كارولين. (إحدى أخوات بكثال غير الشقيقات، اسمها كارولين، أصبحت راهبة أنغليكانية لفترة وجيزة في جنوب إفريقيا.) لدى اسكندر موهبة في الرسم وقد عرّض نفسه للفضيحة حين أساء فهمَ مديحِ راهبةٍ شابةٍ له وأنشأ علاقةً معها. بعد الصدمة العاطفية انجذب بجنون نحو رَجل إنجليزي لا نعرف اسمه أبدًا، لكن اسكندر والمرشدين السياحيين رفعوا من شأنه إلى مكانة أمير. نرى هذا الإنجليزي كما يراه اسكندر، ويشار إليه طوال الرواية بـ«الأمير.» يقوم هذا الأمير واسكندر بالتجوال إلى وادي الملوك، يُعتقد أنه البتراء، بحثًا عن الذهب الذي كان يحلم

(١) Ibid., p.175

به اسكندر. حلّ بهما المرض وتحرّرا من الوهم وقام الأمير بكل مرارة وازدراء بالتخلّي عن اسكندر.

تُروى الرواية بسلاسة، وهناك تجاذب مستمر بين أصول اسكندر وأحلامه وطموحاته. تتمثّل أصوله في الجالية الأرثوذكسية، برئيسها المَحلّي، المكّار والبخيل اللبيب القسّيس الكهْل مِطْري الذي لديه ابنةٌ جميلة ومؤلّف بعض أجمل أسطر الكتب. مطري، وهو يمثّل الجالية، يُقدّر الحاجة للتعايش مع الآخرين. كما إنه ناقد للمنصّرين في سعيهم لتحويل الناس عن دينهم. «هم يفترضون أن ما هو صالح لجِنْسِهم هو أيضًا صالح للجميع، وهم بهذا يغفلون عن تدبير اللّه الذي جعل الناس مختلفين في خَلْقهم وخُلُقهم ولغاتهم.»[1] مثل مسيحيي القسطنطينية قبل الفتح العثماني عام ١٤٥٣، فإن مطري يفضّل العِمامة على البابا. «نشترك مع المسلمين في اللغة والوطن والتعاملات في الحياة اليومية. لهذا أقول إن المسلم أقلٍّ مقتًا عند اللّه من اللاتيني أو البروتستانتي.»[2]

ولاءات اسكندر ممزّقةٌ بين البعثة الأنغليكانية والجالية الأرثوذكسية. ميدان هذا الصراع هو الرسم، عشق اسكندر الذي أنهكه. قامت إحدى أخواته بتشجيعه ورعايته، ثم الأمير الذي طلب له صندوقَ رسم من إنجلترا. سجيّةُ اسكندر أن يجعل الشيء الأهمّ الذي يرسمه يحتلّ المساحة الأكبر في لوحته الزيتية. يرسُمُ منظرًا لبدوٍ ويعجبه الجَمل. يقوم برسمه كبيرًا جدًا «لدرجة أنه ملأَ كامل الصفحة في كتاب الرسم؛ بينما المخيّم نفسه، كثبان الرّمل، بعض المنازل المتفرّقة ونخلة بعيدة والسماء، كلّ ذلك بدا ليس أكثر من سجّادة يقف عليها الجمل.»[3] هنا بكثال، وإحدى أخواته الأخرى غير الشقيقات كانت طالبةً تدرُس الرسم، يقوم بوصف أساليب الفن البيزنطي وأسلوب الأرثوذكس في رسم الأيقونات. شقيقته الأصغر سنًا لدى البعثة (الأنغليكانية) والأمير يحاولان تقديم المشورة له في مجال الرسم المنظوري. غير أن الرعاة الأرثوذكس له لا يكترثون

(١) *The Valley of the Kings*, p.175

(٢) Ibid., p.58-9

(٣) Ibid., p.23

لمثل هذه الواقعية. «لا يمكن إنكار أن الفرنجة لديهم خِدع تُماثل الواقع،» كما يقول أحدهم، «لكنّني أعتقدُ أنّ أسلوبنا القديم، وهو جامدٌ وتقليدي كما يُسمّونه، هو أكثر توقيرًا بدرجة كبيرة.»(١)

نجدُ اسكندر ممزّقًا. «إنه لا ينتمي لأحد.»(٢) في الثلثين الأولين من الرواية التألّم، وفيهما يحاول اسكندر جاهدًا أن يظفر بمحبة الرجل الإنجليزي له. هذه الرغبة في أن يصبح محبوبًا تقوده إلى خِداع الأمير وإيقاعهما في ورطات. قال له القسيس مطري:

«حلمك الآن أن تصبح إفرنجيًا في كلٍ شيء عدا المولد، وأن تصاحب أميرك ندًّا لندّ. من أجل هذه الغاية حُكتَ كلَّ حماقاتك. كانت الرغبة في حد ذاتها حمقاء. لكن أن تقوم بها فعلًا، فقد كان ذلك مُهلِكًا لك، وهي جريمة في أعين كل الرجال... اللّه جعلك عربيًا. اِرْضَ بما قُسم لك، وكُفَّ عن التشبّه بما لا يمكنك أن تكون.»(٣)

الثلث الأخير من الرواية يعرض تقبّل اسكندر لهوّيته، وعودته إلى كنف الأرثوذكس، وزواجه من ابنة القسّيس، وإعجاب الناس به رسّامًا مشهورًا للأيقونات في القدس، وتنقية أسلوبه من «تلك اللمسات التي تحاكي الحياة ويُعجب بها هؤلاء الحمقى،»(٤) وإقامته السعيدة بين أفراد جالية آبائه. «للمرة الأولى في حياته، شعر أنه في بيته وفي وطنه. أصبح أفراد الجالية الأرثوذكسية إخوانه من الآن فصاعدًا.»(٥) عندما يعترض البروتستانت العرب على ردّته يجيبهم بكل ثباتٍ «أنا ابن العرب... وليس لي رغبة أن أكون إفرنجيًا.»(٦) تنتهي الرواية بموكب ضخم حول الكنيسة الأرثوذكسية، وهي تحمل أيقونةً جديدة ورائعة للقديس جورج رسمها اسكندر. وهنا يظهر خصْمٌ قديم، وهو عربي بروتستانتي،

---

(١) Ibid., p.320
(٢) Ibid., p.61
(٣) Ibid., p.265
(٤) Ibid., p.321
(٥) Ibid., p.271
(٦) Ibid., p.285

عائد للتّو من إنجلترا ومعه زوجة إنجليزية. «في لمحة تذكّر أشياء قد نسيها؛ موقفٌ بدا مرغوبًا يومًا من الأيام. أدرك كم كان سخيفًا هذا المسير الذي من المؤكّد أنه بدا ممتعًا في نظر الإنجليزي.»[١] ظهرت الشكوك وميضًا ثم اختفت في الحال.

مرةً أخرى يدوّن بكثال تفاصيل العادات المتغيّرة الاجتماعية وعادات اللباس في فلسطين. يبدأ عمّ ووالدة اسكندر القيام بنزهة. رفعت والدته تنّورتها بيدها، ووضعت يدها الأخرى على ذراعِ شقيق زوجها، 'وهي منحنية ليستلمها. «إنها الموضة الآن،» كما تقول ضاحكةً وهما يبدآن المسير.'[٢] والدته، وهي خادمة نهارية لدى البعثة، بقيت على ولائها للجالية البروتستانتية وتُذكّر زوجة اسكندر بما تم التخلّي عنه. «سترتدين الملابس الإفرنجية الراقية ذات الأقمشة الفاخرة، والقبّعات، كما أقول لك، ذات الريش المُرفرِف.»[٣]

توثّق الرواية انطباعاتٍ عن فلسطين ما قبل عام ١٩١٤. كما تدوّن الرواية الصحوة العربية التي أحسَّ بها على وجه التحديد جالية الأرثوذكس. يفكّر القسّ، مطري، مليًّا في أن الترقّي في كنيسته مغلق أمامه «لأنّ كل الرهبان الكبار هم من اليونانيين الأجانب الذين يحتقروننا معشر العرب ويريدون إبقاءنا تحت سيطرتهم.»[٤] باختيار اسكندر لهويّته فهو يُفضّل «الهَيمنة المتسلّطة للمسلمين، وهم قرابة الدم، على غطرسة ما يسمى بالمسيحيين الغرباء.»[٥]

رواية وادي الملوك كانت واحدة من أنجح روايات بكثال. قام جَي إم دنت بإعادة طباعتها ضمن سلسلة مكتبة (The Wayfarer) عام ١٩١٤. تستبق

(١) Ibid., p.339

(٢) Ibid., p.18

(٣) Ibid., p.327

(٤) Ibid., p.265. Compare Derek Hopwood - *The Russian Presence in Syria and Palestine 1843-1914* (The Clarendon Press, Oxford, 1969), pp.199-200

قارن مع كتاب ديرِك هوبوود التواجد الروسي في سوريا وفلسطين من عام ١٨٤٣ إلى عام ١٩١٤

(٥) Ibid., p.332

الرواية مقابلات شرقية في سردها المفعم بالحنان لفلسطين التي كانت تضمحل بسرعة. إن لها أهمية تاريخية في إدراكها بدايات القومية العربية، أو على الأقل الوعي العربي الذي تجاوز جحيم الصراع الديني.

رواية نسوة محجّبات (١٩١٣) (*VEILED WOMEN*)

رواية **نسوة محجّبات** ربما تكون أكثر روايات بكثال طموحًا. وفيها يشرح ويصف ويبرّر حياة الحريم. وهي قصة يتيمة إنجليزية، واسمها ماري سميث، ذهبت إلى القاهرة في ستينيات القرن التاسع عشر لتعمل مربّية لدى أسرة محمد باشا صالح، وهي أسرة ثريّة مصرية من أصول تركية. ماري ويوسف ابن الباشا وقعا في الغَرام. أسلمت ماري وتزوّجا. اثنان من أطفالهما بقيا على قيد الحياة. محمد، أحد الأبناء، قُتل قبيل معركة تل الكبير عام ١٨٨٢.

تركّز القصة على فترتين: فترة سنة الخطوبة والسنوات الأولى للزواج، وفترة ثورة أحمد عرابي، من ١٨٧٩ حتى ١٨٨٢. رغم أن ماري هي الشخصية الأساسية، إلا أنها تُوصف من وجهة نظر نساء العائلة. وفي الحقيقة فإننا نتعرف على اسمها بالصدفة بنهاية الثلث الأول من الرواية تقريبًا. طوال الرواية تُنادى باسم بركة.

لم يكن سَيْر الزواج هادئًا. عانت بركة من الملل. أُخبرت أنّ لديها الحرية في الحركة ولكن فقط من خلال القيود على الحريم. خرجت ذات يومٍ في نزهة إلى قرية قريبة، ورغم أنها كانت محتشمة اللباس، ألا أن هذا الفعل اُعتبر فضيحةً. دافعها في القرية رجال رافضون أن امرأةً تلبس لباسًا جيّدًا تمشي في الطرقات هكذا. تصرّفها هذا سبّب فَزَعًا في العائلة التي احتضنتها. والد زوجها، الباشا، لا يتفهّم أن نزهتها بعيدًا عن المنزل إنما هي للتسلية. «أكّدي لي أن نزهتك كانت للتسلية،» قال ذلك بارتياب، «أتفهّم أن يكون هذا في حديقة، أو في دائرة قريبة. لكن عندما يكون الحال ذهابًا إلى أي مكان ـ اللّه أكبر.»[1] بقية

(١) *Veiled Women*, p.108

أفراد المنزل يربطون بين النزهة وعلاقة حب مع رجل إنجليزي، أو ضربة شمس، أو حالة جنون، أو ـ بحسب التفسير الأكثر شيوعًا ـ مسّ من الجانّ.

انخرطت بركة في حياة الحريم ببراعة وشغف، لكنها كانت تمرّ بفترات من الضّجر حينما وجدَتْ تلك الحياة كلّها مزعجة. «الطعام كان كثير التوابل جدًا، ولم يكن مستساغًا لها؛ كان مستوى النظافة مقزّزًا. شاهدَتْ زلّاتٍ لم تُلاحظها من قبلْ، وتحديدًا في سلوك الخدم تجاهها.»[1] حينما أُصيبت بالمرض، عانت بسبب الرعاية الفضولية من بقية نساء المنزل؛ وإن كانت نابعةً من حب واهتمام. «كان المرض، مثل الحياة والموت، فرصة النساء الكبرى، حيث، بحسب العادات والتقاليد، يمثّلن دور القسّيسة.»[2]

الباشا اللطيف تكفّل بمصاريف سفر استجمام ليوسف وبركة إلى باريس. ذهبا مع مجموعة أصدقاء شبّان آخرين. إجازة باريس تحوّلت إلى مهزلة. تُرِك النساء في الفندق بينما خرج الرجال بمفردهم. كل الرجال، بما فيهم زوج بركة، سألوها كيف يتم كسب قلوب النساء الفرنسيات اللاتي يُفترض تواجدهنّ. بعد شجار علني غريب ومُهيْن لبّى يوسف اقتراح بركة بأن يسافرا إلى سويسرا لبضعة أيام. «اشتاقت بركة إلى المشي بمحاذاة جداول الماء في الغابات، وفي سفوح الجبال العظيمة، بمفردها، مع النسمات الباردة القويّة لينشرح صدرها.»[3] غير أن الزيارة لم تنجح، وإن كانت مُرْضية لبركة. الجبال تُخيف يوسف. حينما اقتربا من مصر عائدين، كان تخيّل النيل مُبهجًا. «كان النيل» كما قال، «هادئًا وسائغًا شَرابُه، ولم يكن خَمِجًا أو مندفعًا باستمرار كالبحر.»[4]

بعد طول وقت استسلمت بَرَكة لقَدَرها أن تكون ربّة منزلٍ مصريّة. هناك لحظات أخرى من الكَرْب والحزَن. أصبح ابنها، محمد، مؤذيًا، وفخورًا بعِرْقه التركي، وأنانيًا، ومبغِضًا للآخرين. قامت بركة بتدليل ابنها، وهو عار عند الحريم

(١) Ibid., p.110
(٢) Ibid., p.116
(٣) Ibid., p.148
(٤) Ibid., p.154

اللاتي اشتكين إلى كبير الأسرة الطاعن في السنّ، محمد صالح باشا، ليبعد حفيده عن رعاية بركة، ويعهد بتربيته إلى إحدى قريباته الأكثر صرامة. حينما تمّت مواجهة الباشا وإجباره على القبول بالطريق البغيض للقيام بالواجب، فقد «تلمّس السبحة بأصابعه، وعلم أن اللّه غفور رحيم.»[1] وأشار إلى ابنه بأنه متى ما عبّر النساء بتلك النغمة ـ «فعليك الاستماع بكل طيبتك،» ويبقى، أنه «لا طريق سليمًا للرجل إلا الطاعة.»[2]

الموضوع الرئيس في الرواية هو سير الحياة عند الحريم. وجدت بركة أن عالم النساء كان:

جمهورية عظيمة، وهناك حريات تشمل حتى أقل الخدم شأنًا، وبعض القوّة الناشئة من تكاتفهنّ. مالم يكن السبب فورة الغيرة، فلا تسعى امرأة بالنميمة على أخرى، أمَةً كانت أو حرةً؛ ولا تخذلها وقت الحاجة لمساعدتها. كان للنساء شِعارهنّ الخاص بهنّ، وعاداتهنّ، وطقوسهنّ واحتفالاتهنّ، بل حتى محكمة عَذلية لهنّ، مستقلاتٍ عن عالم الرجال. كل سيدة لديها إماء تحت تصرّفها بالكامل. وزوجها لا يرى وجوههنّ، وبالكاد يعرفهنّ. وهناك قانون صارم ضدّ مضاجعته لهنّ، إلا بأمرها. وأي طفل ينشأ عن مثل هذه العلاقة فإنه يصبح مملوكًا لها. وإذا أراد الزوج عشيقةً فإنّ عليه أن يشتري واحدةً، لا أن يسرق. كان حق المرأة المتزوّجة في التملّك مقدّسًا جدًّا عند المسلمين ـ وهذا الحق كان غير معترفٍ به إطلاقًا في إنجلترا.[3]

كانت حياة الحريم عادةً يكتنفها الانغماس المُملّ في حياة الترف غير الضارّة: الشائعات، الحلويات، السجائر والنرجيلة. لكنّ هناك جانبًا مظلمًا. «كثير من المسلمين المتعلّمين كانوا سيموتون رعبًا لو علموا بأفعال الظلام التي يؤيّدها نساؤه ـ مثل تقديم القرابين للكائنات الشرّيرة؛ تبجيل زنجيات كبيرات في السن لمسّ الجانّ؛ استخدام لفظ الجلالة اللّه في أعمال

(١) Ibid., p.223

(٢) Ibid., p.224

(٣) Ibid., p.123

مشينة.»[١] إضافةً إلى أن هناك إشارات كثيرة إلى الزّار، وهو ممارسة نسائية بحتة لطرد الأرواح الشرّيرة أو ترضيتها وهي التي يُعتقد أنها تتلبّس المريض. عندما مرضت بركةُ مرضًا شديدًا بعد ولادتها ابنًا، لم تُجدِ المحاولات التقليدية لطبيب إيطالي في معالجتها نفعًا. النساء بعد ذلك قمن بتعليق الثوم في غرفتها، «وبخّرن غرفتها بأبخرة قوّية لدرجة أن الهواء أصبح خانقًا، وجرّعْنَ المريضة خلْطةً من غبار جثث محنّطة مخلوطة بحليب بشري.»[٢] هذا العلاج لم يكن أكثر نجاحًا من خدمات الطب الأوربي. لهذا قامت النساء بإحضار جَذْيٍ وعدد من الدّجاج الحيّ واحتلَلْن غرفة تمريض بركة لمدّة ساعتين في أحد الأيام عصرًا لإقامة حفلة الزّار.

عددٌ من الإماء، والبنات، ومعارف الأسرة احتشدن بكل هدوء، وجلسن القرفصاء بجانب الجدار. بعد ذلك حضرت مجموعة من ست زنجيّات وهنّ يلبسن لباسًا مدهشًا من أطمار بالية مبهرجة، ويرتدين خلاخل لها رنين؛ وإحداهنّ كانت ممسكةً بجَذْيٍ يحاول تخليص نفسه، بينما الأخريات كنّ يحملن الدجاج من الأقدام. سِرْن بعيونٍ جريئة ومشية متبخترة نحو السرير، ويبدو أنهن وهبن الدجاج والجدي لبركة التي لم تفهم الكلمات الّتي ترنّمن بها بصوت صدّاح. بعد ذلك مشين للخلف وهن يرقصن إلى أن وصلن غرفة مجاورة بابها ظل مفتوحًا. على عتبة الباب ظهَر أنه قد تلبّسهنّ الجنون. انهلن على الجدي وهن يطلقن صرخاتٍ من المرَح. كان هذا المخلوق وهو ينزف بشكل محزن، قد قُذف به في إناء فخّاري تم تجهيزه. وسط ضحكات مجنونة تمّ التلويح بالسكاكين وهبطت بها الأيدي نحوه مُزهِقةً روحه. وبنفس الطريقة تمّ تشريط الدجاج وتمزيقه إربًا إربًا؛ اتّسخ الحصير بالأحشاء المتبخّرة. بعد برهة قصيرة ظهر القَتَلة مجدّدًا وكانت أذرعهنّ السمراء قد اكتست باللون الأحمر حتى المرافق وهي تقطر دمًا، كما لطّخن وجوههنّ وشفاههنّ بالدم؛ بعدها بدأن رقصًا شيطانيًا في التخلّي عن الذات، كل ذلك كان فظيعًا لمسيرته نحو ربّة

---

(١) Ibid., p.124

(٢) Ibid., p.171

الجَمَال. جِلْدُ الراقصات الأملس التقط الأضواء الزرقاء؛ أعينهنّ الثابتة كانت تبرق بشدّة، مثل تلك التي تُرسَم على أغطية المومياوات. اعتقدت بركة أنها في النار، وأنها ضاعت إلى الأبد؛ كانت كما لو كانت يدٌ من حديد تعصِر حلْقها. كان قلبها ينبض بعنف. كانت إحدى النساء، أكثرهنّ وقاحة، مالت فجأة نحو بركة، وهي تمدّ يدها الملطّخة بالدم. نبض قلب بركة نبضةً مروّعةً ثم توقّف.[1]

قد يُستغرب القول إن بركة أفاقت.

أشار بكثال إلى أن الزّار، في ستينيّات القرن التاسع عشر، كان «أحدث التقليعات.»[2] هذه ملاحظة مهمة، ويُفترض أنها كانت مبنية على رحلاته في مصر عام ١٩٠٧، وهي السنة التي أعدّ فيها الفصل الأخير من رواية نسوة محجّبات. في هذا الفصل نجد بركة التي تقدّم بها العمر تتفكّر مع صديقاتها في التغيّرات التي حدثت في حياتها. اعتنقت الإسلام وتقبّلت الدور المظلوم للنساء. شَعرتْ بالحنين للقيم السابقة لكنّها أدركت أن التغيّرات السطحية لا تؤثّر على الجوهر.

مرّةً أخرى نجد بكثال شديد الملاحظة للتغيّرات الدقيقة في العادات: المرأة المصرية المتحرّرة تتحدّث الفرنسية لكنّها تذهب خِلْسة إلى العجوز الشمطاء لتصفَ لها علاجًا تقشعرّ له الأبدان لمرض أرهقها؛ التوجّسُ تجاه المخترعات الأوربية «التي تُرى يد غير المؤمن فيها بوضوح،»[3] وقدوم قرن إسلامي جديد عام ١٣٠٠ هـ، حيث يمكن توقُّعُ نبي جديد؛ التعرّفُ على المنقِذ الإسلامي «ومعه جندي بسيط، ويُغامر في معارضة الحُكّام الأشرار؛»[4] السّخطُ

---

(١) Ibid., p.171-3. E.M. Forster in his essay praising Pickthall's work also praises *Le Livre de Goha le Simple* by Albert Adès and Albert Josipovici, Calmann-Levy, Paris, 1919. This novel also has a brief account of a zar - there called tar, p.247

المصدر السابق. ص١٧١ ـ ١٧٣ في مقالته يمتدح إي إم فورستر بكثال، وكذلك يمتدح رواية كتاب جحا المبسّط لمؤلفيه ألبرت آديه وألبرت جوسيوبوفيتشي المنشور في باريس عام ١٩١٩. وهذه الرواية بها قصة مختصرة عن الزار، وقد وردت تسميته فيها بـ التار

(٢) *Veiled Women*, p.65

(٣) Ibid., p.248

(٤) Ibid., p.249

الاجتماعي المتغطرس للطبقة الحاكمة التركية تجاه عرابي باشا. يستخدم بكثال الفنّ القصصي للتعبير عن المواقف والمشاعر والتنوّع. يصوّر بكثال ثلاثة أجيال للعائلة المصرية ذات الأصول التركية، وكلٌّ جيل شخصياته موثوقة ثلاثية الأبعاد ومتجذّرة في مجتمعهم. والد زوج بركة، الباشا العطوف، الذي برَزَتْ أسرته في عهد محمد علي أوائل القرن، هو شخصٌ لطيفٌ كريمٌ وتوّاقٌ للفهم. ابنه، زوجُ بركة، شخصٌ ثقيل الظل. كان في منتصف عمره حين اندلعت ثورة عرابي. انضم، بعد تردّد، للثورة، لكن بعد هزيمة عرابي، وبعد تردّد أقلّ، أصبح وزيرًا في حكومة الاحتلال البريطاني.

نال (الباشا) الحِكْمة التي تأتي بسهولة لمن هو في منتصف العمر، وكَرِه الاضطرابات، ولا يثق في الأشياء الحديثة... السياسة بالنسبة إليه لعبة مستبعَدَة، وسيكون الرجل أحمق إذا أضاع بها حيويّته. كموظّف، فإنه قد قضى وقتًا للراحة على الأرائك، وهو يستخدم سبحته، ويصدر أوامر لسكرتيره، وهو مرتاح إلا إذا تمّ استدعاؤه من قِبَل رؤسائه.[١]

ابنُه متحمّس لثورة عرابي، ليس كثورة فلّاحين لكن ضد احتلال كُفّارٍ لمصر. كبرياؤه التركي (الذي يغيب عن جدّه الأكثر تركية منه) قاسٍ وشرّير. التحق بجيش عرابي وهو شاب في السادسة عشرة من العمر. بسبب تأثير أسرته، أصبح ضابط تدريبٍ مسؤولًا عن المجنّدين الجدد، وشباب القرية ورجالها. يوسف ضيّق الخلُق معهم، يسبّهم ويضربهم. «أنا أضربهم وأضربهم،» يخبر والدته، «حتى تفتُر يدي. أقسم بسيفي وبسالتي أني أستطيع أحيانًا قتلهم! تفكّري يا أمي! الإسلام مهدّد، الكفّار المسلّحون وطئت أقدامهم أرضنا، وهؤلاء الرجال، وهم مسلمون، لا يتعلمون تمارينهم.»[٢] وفي نهاية المطاف وثب به مجموعة من الجنود الريفيين وفي هدوء قتلوه بدم بارد.

لكنّ الموضوع الرئيس يبقى وضع المرأة. يوضّح بكثال أن الرجال في مصر محتكرون للاقتصاد والسلطة علانيةً. أما داخل المنزل فإن هذا الاحتكار

---

(١) Ibid., p.255

(٢) Ibid., p.269

يطوّقه النساء بقوة شخصيتهن وبحقوقهنّ في التملّك المحمية بعقد الزواج. الزوجة لها الحق في اللجوء إلى القانون الإسلامي: وعلى أية حال هو القانون الذي يقنّنه ويفسّره الرجال. يصف بكثال كل هذا بتعاطف لكنّه لا يبتعد عن المظالم التي تنشأ عن إخضاع المرأة. الباشا اللطيف يقوّم إحدى زوجاته بضربها. الفرص الجنسية غير المتساوية لصالح الرجَال تؤدي إلى عنف نفسي. حتى المظالم الفظيعة تُفسّر تبريريًّا أو تتقبّلها نساؤه. «أليس من الأفضل» تتساءل امرأة طاعنة في السنّ، «الحفاظ على حُرْمة النساء واحترامهنّ والنأي بهنّ عن النزاع بين المسلمين ـ وهنّ السفينة التي تحمل مستقبل هذا الدِّين؟»[1] تعد النساء في عالم بكثال مخلوقات صامتة سكونية. يتزوّج يوسف زوجة ثانيةً سِرًّا، ويتخذ أيضًا عشيقات. امرأة أخرى تبرر ذلك: «طبيعة الرجال أن يتخذوا أكثر من زوجة، ولا ينبغي لامرأة أن تكره ذلك أو تلومه عليه ـ شرط ألا يخدعها أبدًا ـ أكثر من لومها القطة لأنها تلد قططا كثيرة.»[2]

مكانة المرأة في البلدان الإسلامية كانت تُنتقد كثيرًا من قِبَل الغربيين. وما زالت الانتقاد كما هو. بكثال لا يبرئ أحـدًا. بكثال يبرّر موقف النساء من منطلق إسلامي تحرّري. المسلم المثالي في نظر بكثال هو ذلك المتنوّر والمتعلّم والمتسامح، وسيكون ربّ أسرة متآلفة. غير أن الباشا المثالي يجلد زوجته من منطلق الإحساس بالواجب. وفي مجتمع من المسلمين المثاليين ليس ثمة نزاع ينبغي حماية النساء منه. إن صورة بكثال عن نساء القاهرة منذ قرنٍ مضى تعتبر دقيقةً قدر الإمكان، في حين كانت التصوّرات الغربية في الغالب عاطفية ومتحيّزة غير دقيقة وتنمّ عن جهل أو انعدام المخيلة. العمل الذي قام به بكثال يُعدّ عملًا أنثروبولوجيًا مبنيًّا على المشاهدة. ليس من السهل التأكد من صحّة حقائق السلوك الاجتماعي التي أوردها بكثال. لكنّه يستفيد من ميزة الفن القصصي في تدوين ما هو صحيح بالضرورة. رواية نسوة محجّبات هي أيضا رواية دعائية. تُعتبر الرواية معلَمًا آخر في طريق بكثال نحو ربط هوّيته أكثر

(١) Ibid., p.51
(٢) Ibid., p.265

بعالم الإسلام. إذا لم تكن الرواية مُقنِعةً فهي تشرح كثيرًا، مثل روايته الأخرى عن الشرق، وتلقي الضوء على الممارسات والمواقف التي لم تُدوّن بمثل هذا الوضوح في أي عمل آخر.

رواية دار الحرب (١٩١٦) (*THE HOUSE OF WAR*)

نُشرت رواية دار الحرب في شهر فبراير عام ١٩١٦ عندما كان بكثال يكتب لعدة سنوات مدافعًا عن تركيا ومنتقدًا العمل التبشيري في الإمبراطورية العثمانية. دار الحرب، كما يشرحها بكثال في المقدمة، هي «الاسم المعُطى سابقًا لجميع المسيحيين في البلاد التي فتحها المسلمون ولم يعتنقوا الإسلام.»[1] النشاطات التبشيرية أسهمت عن غير قصد في وضع المسيحيين العثمانيين في دار حرب بمعنى أوسع. والرواية توضّح كيف تم ذلك.

إيلسي ويدلنغ هي الابنة الشابة لشقيقة سيّدتين غير متزوّجتين كان لهما مدرسة تبشيرية في بلْدة سورية لمدة ثلاثين عامًا. السيدتان متواضعتان وقنوعتان. وتذعنان للقنصل البريطاني، وتحترمان المجتمع المحلي وتدعوان الحاكم المحلّي التركي، حسن باشا، ليوم الجوائز في المدرسة. تأتي إلسي لتقيمَ معهما. لديها عاطفة المبشِّر، وتعتبر أنّ إيمانَ خالتيها يعتريه الفتور، وأنّ سلوكهما مشبوه. تطمح إلسي في استئجار منزل بقرية مسيحية، برفقة خادمتها، جميلة، وهي الأمينة الأنيقة والمولعة بها. جهودُها المستقلّة تحوّلت إلى ملهاةٍ سوداء أدّت إلى كارثة.

حينما انتقلت إلسي إلى منزلها القروي، ومن غير مألوف أن تسكن امرأة إنجليزية بمفردها في مكان كهذا حيث يأتي الناس زُرافاتٍ إلى حديقتها ويجلسون فيها، وهو ما تعتبره انتهاكًا لحرمة سكَنها الخاص. أقنعتها جميلةُ أن تكون لطيفةً وأن تخصّص وقتًا لاستقبال الزوّار شخصيًا. هناك شيخ (رجل دين) مسيحي شابّ، اسمه بكير، اكتسب قليلًا من اللغة الإنجليزية، يعجبها، لكنّها

---

(١) *The House of War*, p.v

وجدَتْ في تطفّل أتباعه عليها عملًا غير مهذّب. نقلتْ مشاعرها إلى بكير الذي «لم يفكر بأتْباعه حتّى الآن، ولم يشكّك في الحقّ الفِطْري لكل شخص يريد صحبته أن يفعل ذلك.»[١] غير أنّ تمييزها له بالاستماع إليه لوحده أدّى إلى الحديث همسًا عن فضيحة، فأُرغمت على الترحيب ببكير ومرافقيه.

أعدّت إلسي الترتيبات لافتتاح عيادة طبيّة بمساعدة مِهْنيّة من المدينة. قامت إلسي بمساعدة الممرّضة الزائرة. لكنّها لم تُعجب جميلة المؤمنة، «أن تكون سيّدتها، التي ترتبط كرامتها بكرامة سيّدتها، أن تحطّ من قَدْرها أمام أعين»[٢] القرية المسيحية.

أصبحت إلسي أكثر جرأة وقرّرت الدّعوة (إلى المسيحية) في قرية مسلمة. عارضت جميلة، واحتجّ القنصل، والحاكم التركي اعترض برفق. كانت إلسي عنيدةً، وباقتناع عديمي الحسّ، دعت إلى الإنجيل في تجمّع لمسلمين متشكّكين. كانت جميلة المرتعبة توضّح لهم أن سيّدتها أصابها مسّ وقد اقتنع القرويون بتوضيحها، أما الشيخ بكير فقد لاطف المرأتين. اعتبرت إلسي أنّ جهودها تكلّلت بالنجاح وعاودت زياراتها وتبشيرها. يأتي القرويّون للاستماع إليها لأنهم يستمتعون بعربيّتها الركيكة.

بيد أن فعل إلسي المسكينة هذا قد عكّر صفو الانسجام الحسّاس الذي كان بين القريتين المسلمة والمسيحية. شعر القسّ أنتون أنه تمت خيانته. انتشر الكلام أن دور المسيحيين المُفضّل قد أعان إلسي على مهاجمة وشتم دين المسلمين. أدّت الإشاعات إلى إثارة التوتّر، والتوتّر أدّى إلى وقوع أحداث نتج عنها مقتل طفل. كانت نتيجة هذه الأحداث احتمال نشوب حرب بين القريتين تم تلافيها فقط بوصول الحاكم التركي مع حشد من الجنود الأتراك. عرفت إلسي حمق - إن لم يكن خطأ - أساليبها، ووقعت سعيدةً في حبّ صديقٍ لأخيها، واسمه دِكْ فِنْ، ولحسن الحظ أتى هو قبل وقوع الصدامات.

(١) Ibid., p.104
(٢) Ibid., p.138

لم تكن هذه الرواية واحدة من أفضل روايات بكثال. يظهر الناس فيها بطريقة غير متوقّعة، والأفراد فيها هم في بعض الأحيان شخصيات كرتونية. لكنّ هناك الكثير من الأشياء الحسنة في الرواية. يتجه الظنّ إلى أن أحداث الرواية وقعت في القرن الذي يسبق عام ١٩١٤. تفيض الرواية بتفاصيل الفروق الدقيقة الاجتماعية. حينما حضر الباشا يوم توزيع الجوائز في المدرسة، «أسرع أحد السكّان المحليّين، أو اثنان منهم، للبس غطاء الرأس الذي نزعوه في حضرة الأوربيين.»[١]

وجدت إلسي أن خلاصها بين أحضان دِكْ فِنْ، وهو الرجل الذي أتى ممثّلًا وجهة نظر بكثال نفسه. ألقى فِنْ محاضرةً على إلسي عن وجهات النظر الخاطئة للتبشيريّين، وعن تسامح المسلمين. عندما ناقشته إلسي عن الحاجة للأعمال الجيّدة وعن خلاص الأرواح، أجابها فِنْ أن القرويين المسلمين «متأخرون عنا ولكنّهم ليسوا أقلّ منا.» المسلم «لا يستطيع أن يفهم أنه تم تعييننا أنتِ أو أنا للإشراف عليهم.»[٢]

الحاكم التركي، حسن باشا، هو مثال آخر للشخصية المثالية عند بكثال وهي شخصية التركي الحكيم من الطبقة العليا. يتحدّث الفرنسية وهي اللغة التي يقرأ بها للسيد جيبون. هو «رجل ذو لحية بيضاء، يرتدي بأناقة اللباس الأوربي.» أصيبت إلسي بخيبة الأمل حين رأت مظهره. «توقّعت أن ترى شخصًا بربريًا وشرّيرًا بالتأكيد، لا رجلًا محترمًا وكبيرًا في السنّ، ولولا طربوشه لظُنّ أنه دبلوماسيٌ فرنسي.»[٣] عندما أنّب الباشا إلسي على أفعالها، لم يتطرّق للدّين ولكنّه تحدّث عن الامتيازات التي تحظى بها والتي ربما تنتهكها.

رواية دار الحرب رواية دعائية. وبصفة عامة، مسيحيو الدولة العثمانية لم يتم عرضهم عرضًا حسنًا. يظهرون في الرواية طمّاعين ومتهكّمين. حينما يتقمّصون النمط الأوربي تتم السخرية بهم. المسلمون الترك هم الذين أخطأ

(١) Ibid., p.27
(٢) Ibid., p.263
(٣) Ibid., p.27

بحقهم. بحسب فِنْ، «الأتراك لا يعتذرون ولا يتوقعون الاعتذار. إنهم فخورون جدًا. إضافة إلى أنهم لا يشتكون لأحد. المواطنون المسيحيون ينالون الحد الأقصى من شكواهم. تذكّر دائمًا حينما تسمع أن الأتراك هم المتّهمون.»[1]

كانت هذه رسالة كتابات بكثال الصحفية زمن الحرب.

رواية فرسان من جزيرة العرب (١٩١٧) (KNIGHTS OF ARABY)

رواية فرسان من جزيرة العرب أُعطيت عنوانًا فرعيًا «قصة اليمن في القرن الخامس الهجري.» كان عام ١٩١٧ هو سنة الثورة الروسية ومعركة باشنديل[*]، ولم تكن تلك السنة ملائمة بما فيه الكفاية لنقل قراء الرواية إلى اليمن في القرن الحادي عشر. لكنّ بكثال أوضح في مقدّمته أن روايته هذه إنما هي محاولة «لشحذ عُظَيْمات الذاكرة التي غلب عليها الجفاف، واستحداثها من جديد مكتسية بعضًا من بهاء اللحم والدم. وحتى لو لم تنجح الرواية، يمكن أن يكون لها ميْزة لفت انتباه القرّاء الإنجليز إلى حقيقة أن المسلمين، طوال كل تلك القرون السابقة، واجهوا نفس المصاعب التي نواجهها اليوم.»[2]

رواية فرسان من جزيرة العرب تجري معظم أحداثها في زبيد خلال عهد الصليحيين[**]. يظهر في الرواية جيلان من أسرة الصليحيين: علي وزوجته

---

(١) Ibid., p.317

(*) هي ثالث وأطول الحروب التي وقعت بين قوات ألمانيا وقوات الحلفاء في الفترة بين شهري يوليه ونوفمبر عام ١٩١٧ في مدينة يبريس أو إيبر، ضمن حدود بلجيكا الآن، خلال الحرب العالمية الأولى.

(٢) *Knights of Araby*, Foreword

(**) قامت الدولة الصليحية في اليمن على يد مؤسسها أبي الحسن علي بن محمد الصليحي عام ٤٣٩هـ وخاض عدة حروب لإحكام نفوذه على كامل اليمن، وكان يطمح إلى بسط نفوذه على الحجاز التي كانت تدين للعبّاسيين. والدولة الصليحية دولة إسماعيلية تتبع الدولة الفاطمية بمصر. وقد استمرت حتى عام ٥٣٢هـ وأشهر حكامها أربعة أولهم علي بن محمد الصليحي وآخرهم أروى (سيّدة) بنت أحمد الصليحي. تاريخ اليمن السياسي لمحمد يحيى الحداد، بتصرف عن المركز الوطني للمعلومات برئاسة الجمهورية اليمنية.
http://www.yemen-nic.info/contents/History/sulaih.php

الفخورة أسماء بنت شهاب، وابنهم هادئ البال المكرّم أحمد وزوجته أروى، والتي يسميها بكثال كما ورد في مصادره «السيّدة.» قدِم الصليحيون من المناخة لكنّهم اتّخذوا صنعاء عاصمةً لهم قبل أن ينتقلوا إلى جبْلة. تعزّزت سلطتهم في الجبال عن طريق التحالفات مع أمراء آخرين. كانوا يسيطرون من وقت لآخر على الشريط الساحلي، تهامة، والمدينة الكبرى زبيد.

الشخصيات المركزية في الرواية من عائلة النجاحيين، وهم أصلًا من الموالي حرّرهم العباسيون، وقد تعاقبوا على حكم اليمن مع الصليحيين. تتّبع الرواية مصير أخوين هما سعيد وجيّاش. سعيد، الأخ الأكبر، يلقّب بالأحول، وهو شخص أهوج وهمجيّ. أما جياش فهو أكثر لطفًا وعِلْمًا، وهو محب للعبة الشطرنج ومؤلّف لتاريخ زبيد.

تفتتح الرواية بذِكْر النجاحيين وهم على جزيرة دهْلَك في البحر الأحمر. تروي الرواية قصة استيلائهم على مدينة زبيد، وانتزاعها منهم ثم استيلائهم عليها مرة أخرى. رجع بكثال في روايته هذه إلى عدة مصادر تاريخية عن تاريخ اليمن في العصور الوسطى، نُشرت باللغة العربية واللغة الإنجليزية عام ١٨٩٢. المصدر الرئيس هو التاريخ الذي كتبه نجم الدين عمارة الحكمي (١١٥٣ ـ ١١٧٣). يحتوي تاريخه على مقتطفات من كتاب جياش نفسه عن تاريخ زبيد. أحبّ بكثال عمارة وكثيرًا ما كان يرجع إليه. كتب بكثال عام ١٩٣١ أن «عمارة كتب عن جزء صغير من اليمن... كما كتب كتّاب كثيرون عن بغداد والقاهرة ودمشق، راسمًا عن تلك الفترة صورة عالية الوضوح نقلتنا عن قربٍ إليهم، وجعلت أفعال أولئك القوم مفهومةً لدينا اليوم.»[١] المؤرّخ المعتمد على الشائعات، كما سمّاه بكثال في مناسبة أخرى[٢]، الذي أرّخ للحروب بين زبيد وصنعاء كتبَ أيضًا تاريخًا قام ابن خلدون بتحقيقه. أُدرج هذا التحقيق في مجلد قام بترجمته وتحريره هنري كاسلز كاي (Henry Cassels Kay)»[٣]

---

(١) *IC*, July 1931, V, p.496

(٢) *The Cultural Side of Islam*, p.80

(٣) Henry Cassels Kay (editor and translator), *Yaman Its Early Mediaeval History* (Rivingtons, London, 1892; reprinted Gregg, London, 1968)

من الواضح أن بكثال اشتغل على النسخة العربية وليس على ترجمة كاي. وعلى سبيل المثال، قبل أن يستولي المكرّم أحمد على زبيد خاطب جنوده مستشهدًا ببيت من شعر المتنبي ترجمَ كاي شطريه بنفس القافية:

ممسكًا سيفي البتّار، سأخوض به بين العِدا،

حيث لا يرجع سوى من يضربون حتى الرّدى.[1]

بينما ترجمه بكثال بدون قافية:

أخوض الماء وسيفي في يدي

حيث لا يرجع إلا بقوّة السلاح[2]

(وبيت المتنبي هو:

ومرهفٌ سِرتُ بين الجحفلينِ بهِ

حتّى ضربتُ وموجُ الموتِ يلْتطمُ)

ولإيضاح طريقة بكثال دعونا ننظر إلى إحدى فقرات الرواية وإحدى فقرات تاريخ عمارة الذي اعتمد عليه بكثال. يمكن اختيارِ عشرين أو ثلاثين مثالًا مماثلًا. استولى المكرّم على زبيد عام ٤٧٥ هـ حيث أُسِرت والدته.

امتطى الفارس جواده لابسًا لأمة الحرب وسار في باحة القصر وفي نهاية الطريق أوقف جواده ونظر حوله؛ ومن ثمّ تقدّم إلى إيوان الرؤوس المقطوعة. تبعه خيّالان آخران يعدوان بأقصى سرعة، وتجاوزاه وهو يقترب من تحت نافذة تستند منكبّةً على شَبَكها السيّدة أسماء.

صاح الفارس قائلًا: «أدام اللّه عزّك، أيتها السيّدة!» قام مرافقاه بتقديم نفس التحيّة واحدًا تلو الآخر. وقد ردّت على كل منهم:

«مرحبًا، أيها العربي النبيل!»

بعد ذلك سألت السيّدة الفارس الأول: «ما اسمك؟»

---

(١) Kay, p.34

(٢) *Knights of Araby*, p.175

أجابها: «اسمي أحمد بن علي بن محمد.»

«يوجد في العرب الكثير من حاملي اسم أحمد بن علي. هلّا تفضّلتَ بالكشف عن وجهك.»

رفع الفارس مقدِم الخوذة للأعلى. عبّرت عن إعجابها بكل فخر: «مرحبا بك، أيها السيّد المكرّم! من مرافقاك؟»

«هذا، الذي عن يميني، هو الكرم اليامي، وهذا، الذي عن شِمالي، هو الأمير الزواهي.»

«سأُعطي خراج عدن إلى الكرم لهذا العام؛ وللأمير قلعة كوكبان وجوبان مع الولاية على جميع أراضيهما. وأعتقد أن هاتين الأُعطيتين بنفس القيمة.»[1]

تلك الجزئية من المسرحية مستمدّة من فقرة من تاريخ عمارة وقد ترجمها كاي كما يلي:

كان أول محارب يصل المكان حيث كان الشخصان ينتظران واقفين تحت نافذة أسماء بنت شهاب، هو ابنها المكرّم أحمد. قال لها، وهي لم تعرفه، «حفظكِ اللّه وأدام ذِكْرك يا سيّدتي.» أجابته، «مرحبًا أيها العربي النبيل!» قدّم مرافقا المكرّم نفس التحيّة لها. ثمّ سألته عن اسمه، وأجابها أن اسمه أحمد بن علي بن محمد. وقالت «إن هذا الاسم أحمد بن علي يحمله الكثير من العرب. اكشف عن وجهك لأتعرّف عليك.» خلعَ خوذته وقالت متعجّبة «مرحبًا سيّدنا المكرّم!»

في تلك اللحظة عصفت به الريح، ارتجف منها وأصيب وجهه بالتشنج. عاش بعد ذلك لعدة سنوات، لكنه كان عُرْضةً لحركات لا إرادية في رأسه وتشجنّات في وجهه. بعد ذلك سألته السيدة عن مرافقيه، وذكر لها اسميهما. وقد وهَبتْ لأحدهما خراج عدن لذلك العام، وهو ما يبلغ مئة ألف دينار.

---

(١) Ibid., p.183

كما وهبَتْ للآخر قلعتي كوكبان وجوبان مع أقاليمهما، ولا تقل قيمتهما عن خراج عدن.[1]

هناك اختلافات جذرية بين الروايتين. لم يبيّن بكثال شخصيةَ الجندي الذي قدّم التحية أول مرّة للملكة الأسيرة. نعرف ذلك فقط حين عرَفَتْ أسماء. لم يكن لدى بكثال صلاحية تسمية المرافقَين اللذين، كما علِمْنا من الفقرة السابقة من تاريخ عمارة، أنهما كانا مع المكرّم أحمد في المُهمّة. لكنّ تسميتهما تعطي طابع الموثوقية. ارتعاشات المكرم وتشنّجاته أضفى عليها بكثال التفافًا مثيرًا. انتظر المكرّمُ قرابة عامين قبل أن يتمكن من إنقاذ والدته. أفاقته من سباته رسالةٌ من والدته قامت بتهريبها إليه، في رغيف خبز، وقالت فيها إنها حاملٌ من سعيد الأحول، وطلبت منه إنقاذها. كانت الرسالة بما تحويه حيلةً ماكرة. في رواية فرسان من جزيرة العرب ظهرت تشنّجات المكرّم فقط بعدما علم بخدعة والدته له. شعر بالخِزْي وقام بقتل نصف سكان زبيد وهو في حالة غضب وذهول ولم يعد يتحدّث إلى والدته بعد ذلك إلا لمامًا.

لم تكن العائلات المالكة المتنافسة مادة الرواية حصريًا. هناك في زبيد رواقٌ من الشخصيات؛ بعضها مبنيٌّ على أُناس من التاريخ، والأخرى مبتكرةٌ تمامًا. لدينا الفكاهي، أبو دعد، الذي أصبح، عن طريق المصادفة وهو متردّد، جليس البلاط المفضل لكلا الأسرتين المالكتين. كان أبو دعد يشتاق إلى الذهاب إلى قرية نائية ليسلم من الضغوط عليه لإلقاء النُّكَت. هناك أيضًا الشيخ الشرير سلامة، الذي يتاجر بالفتيات والسموم، وشخصيته مبنيّة على شخص كتب عنه عمارة، لكنه عاش في القرن التالي. لدينا أيضًا العُبّاد، والعلماء، وأصحاب الاستعراضات، ووسطاء الزواج، والجمّالون.

توصف زبيد بأنها مدينة العلم. «كانت علوم التاريخ والجغرافيا والفلك والأدب والطب تُدرّس بتعمّق بجانب الفقه في المساجد والكليّات بواسطة علماء معروفين في العالم الإسلامي. كان الأطباء في زبيد جميعهم من السُّنّة؛

---

(1) Kay, p.35

وحقًا، فإن مدينة زبيد كانت منارة للسلفيّة؛ ومع هذا فقد كان الزنادقة يسألون العلماء في مسائل العقيدة، ويرسلون أبناءهم إلى مدارسها لطلب العلم فيها.»[1] أهل زبيد يميلون مع من يستولي على السلطة مؤقّتًا وهم يُفضّلون جيّاش. إنهم ضمن الناس الطيبين لدى بكثال.

«مَنْ هُم في نظر اللّه؟» قالها أستاذ قدير، حينما سأله طالب لماذا لم يَذْكر، في تاريخه لبلد معيّن، ملوكهم ومحاربيهم المشهورين. «إنهم يجيئون ويذهبون. إنه لمن الأهمية غير المتناهية أن نسطّر مقولات العلماء، وأعمال الشعراء والأدباء، وأصحاب القدوة والتقوى، وبناء المساجد والمدارس، وهي التي تبقى طويلًا.»[2]

إن الحرب هي الفعل الأناني للحكّام، والعظماء. وكما عبّر عنها أحد مشايخ زبيد:

«أنتم تعرفون قول النبي (ﷺ): «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا... ودماء الجاهلية موضوعة.»[*] كان الناس يعرفون أن الثأر محرّم، لكن انظر إلى كل بلاد العرب. جميع الزعماء ـ سواء أكانوا عظماء أو صغارًا ـ متنازعون. إن تعاليم ديننا تجذّرت وانتشرت بين العارفين وعموم الناس. أقول إنّ أولئك العظماء، الذين يبجّلون نفوسهم وأفعالهم، هم قليلو الأهمية. مَن يمجّدهم فقط هم عبيدهم والمرتزقة لديهم. عموم الناس يصبرون عليهم بينما العارفون يحتقرونهم.»[3]

في مجلس آخر لعلماء زبيد، كان شيخ آخر يعبّر عن وجهة نظر مماثلة. «كلما كثر غير المكترثين بتغيّر الحكّام، إذا كان كل حاكم مسلمًا، كان أفضل للإسلام وللعالم ككل؛ ذلك أن التعلّق المتعصّب لأي زعيم أو بقعة من الأرض، وكُرْه الآخر، هو سبب لنصف الشرور التي تعصف بالبشر. الناس المهذّبون

---

(١) *Knights of Araby*, p.47

(٢) Ibid., p.48

(*) صحيح ابن حبان، حديث رقم: ١٤٨٧

(٣) Ibid., pp.13-14

هم إخوة في كل أرض. تُرى ما هو دورهم في نزاعات المتفاخرين؟»[1] هذه هي نفس وجهة نظر بكثال. بعد ثمان سنوات من نشر رواية فرسان من جزيرة العرب، لفت بكثال الأنظار إلى حقيقة أن «العلماء يحرصون على الخير للناس، ويحافظون على الثقافة الإسلامية، بل يضغطون على الحكّام المسلمين، في نزاعاتهم غير الإسلامية، للترفّع عن إقحام الناس العاديين في مشاجراتهم.»[2]

رواية فرسان من جزيرة العرب تأثرت بوضوح بحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨. نُشرت الرواية قبل شهرين من إعلان بكثال إسلامه. جميع شخصيّات هذه الرواية مسلمون بخلاف رواياته الأخرى. كذلك جميع المصطلحات التي يستخدمونها إسلامية. ليس هناك مشكلة في التكيّف مع قيَم وأنماط حياة الآخرين. وهذا مغاير لروايات بكثال عن الشرق التي تتناول بشكل مباشر، أو غير مباشر (بدرجة أكثر) التحدّي الذي يسبّبه التغلغل الثقافي والاقتصادي لأوربا الشرقية في الشرق خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

كما في ترجمته لمعاني القرآن الكريم، يقوم بكثال بإيضاح مفهوم الإسلام للعالم القارئ باللغة الإنجليزية. لم يكن بكثال واعظًا بشكل مكشوف. لكنّه كان مُدركًا لتفسير الغربيين غير اللائق للممارسات والمواقف الإسلامية، ومنها على سبيل المثال دور المرأة. في أكثر من مناسبة في رواية نجد بكثال يحيد عن مسار الرواية ليقدّم إيضاحًا. «كان النساء خارج دولة الإسلام يُحتقرن وتُساء معاملتهنّ. وحين يكُنّ لدى تجّار الرقيق، كنّ أيضًا عُرْضة للضرب والشتائم. بمجرّد دخولهن في عالم الإسلام عن طريق الشراء، يتمتّعن بحقوقٍ كفلها الشرعُ لهنّ، وكن يحظين بالاحترام.»[3]

تحكي الأسطر الأخيرة من الرواية قصة المحارب المهادن والعالم العاطفيّ جيّاش في رحلته للحجّ. بكثال نفسه لم يتمكن من أداء فريضة الحج. كان يخطط مع ابن حاكم حيدر أباد نظام المُلك للحج عام ١٩٣١. لم تتم

(١) Ibid., p.197
(٢) *The Cultural Side of Islam*, p.40
(٣) Knights of Arab y, p.232

الرحلة بسبب تفشي وباء الطاعون في الحجاز القادم من اليمن. هكذا نجد المفارقة المأساوية والكلمات المطمَئنّة والانفعالية في وصف جيّاش وهو يشاهد مكة لأول مرة:

أبيات من شِعر الأقدمين تنادت إلى ذاكرته كأصوات غير مستيقظة تمامًا قبل الفجر - فجر الإسلام، فجر الحقيقة والنور. كان النهار ينبلج. كان يشاهد مِن على بُعد، خلف تلك الأرض التي حُفرت في رمالها الجوفاء خُطَا القدمين المضطهَدتين لنبي اللّه، كان يشاهد تلك المدينة القاسية والمحبوبة في توهّجها. هذه المدينة كانت نعمة الإسلام ونقمة - هذه المدينة التي لم تعد تضمّ أي تذكار سوى ذكرياتٍ قديمة عن الاضطهاد الوحشي وعبادة الأصنام؛ ليس هناك أي جَمال يغوي الناس عن ربهم. وبينما كان يتأمّل عظمة الوحدة الإلهية، وكيف كان الناس القدماء يحجبون نورها بخيالاتٍ باطلة، كان يشيْد بالحكمة التي تجعل الناس يحجّون إلى بيتٍ خاوٍ.[1]

رواية مقابلات شرقية (١٩١٨) (*ORIENTAL ENCOUNTERS*)

المجموعة القصصية مقابلات شرقية، المُعنْوَنة فرعيًا، «فلسطين وسوريا (٦ - ٥ - ١٩٨٤)» كانت عبارة عن إعادة طباعة لمقالات ظهرت في مجلة (the New Age) بين شهري فبراير ١٩١٧ وأغسطس ١٩١٨، مع بعض الحكايات المضافة. كما أُعيد إصدارها من قِبل (Heinmann) ضمن سلسلة (The Traveller's Library) عام ١٩٢٩ وتُعدّ أفضل تقدِمة لأعمال بكثال. هذه المجموعة القصصية عبارة عن سرد من الخيال لمغامرات بكثال وتجاربه، مع بعض الحكايات التي سمعها خلال رحلاته في سوريا. هذه الانطباعات كانت «واضحة بعد فترة انقطاع لأكثر من عشرين عامًا. كانت رصْدًا لأشياء صغيرة، بدون شك؛ لكن يبدو أن هناك شيئًا إنسانيًا ما يمكن تعلّمه من كراسة الرسم هذه المُضحكة، من تجارب لا يمكن أن تُستمدّ من كتب أكثر رصانة.»[2]

---

(١) Ibid., pp.380-1

(٢) *Oriental Encounters*, p.9

ومع أن هذه المجموعة القصصية أُعدّت للنشر في وقت كان بكثال يعاني من ضغوط شخصية، ولديه مشاغل أخرى، إلا أنها مفعمة بالعذوبة والروح العالية. الصفحات التي ناهزت ثلاثمئة في طبعتها الأولى ضمّت عشرين حكايةً مستقلّةً، غير مترابطة في الغالب، لكنّها جميعًا تكشف عن أُولى لقاءات بكثال في الشرق، وبُعده عن أبناء بلده الإنجليز وحبّه لأهالي سوريا وفلسطين. كان الفرنجة، وهم عادةً من الإنجليز وغالبًا رجال دين يُنظر إليهم كدخلاء على البلد، وعُرْضة للنقد بسبب استغلالهم النابع من عدم الضمير. هذا كان يؤدي بالأجانب إلى النظر إلى السوري على أنه طمّاع ومراوغ وغير أمين. كان بكثال يتسم بكل لطف خلال مقابلاته العفوية وكان يخلع عنه ببطء منظوره الأوربي، ويعود الفضل لمرافقَيه المميّزين، راشد وسليمان.

راشد ظهر لأول مرة كجندي أعتقه بكثال من الخدمة في الجيش العثماني مقابل خمسة جنيهات تركية. حاول راشد أن يتحايل على بكثال لكنّه أصبح مخلصًا له، وعرَض عليه أن يخدمه: «واللّه إنني أستطيع أن أحذوَ الخيل وأطهوَ الطيور؛ ويمقدوري رتق الألبسة بخيط النسيج، وقنص الطائر في جناحه.»[1] سافر مع بكثال وعند إقامتهما بقريةٍ أصبح راشد مستعيرًا ناجحًا لضروريات المنزل. «راشد كان أيضًا يقوم بالطبخ والتسوّق بدون معضلة، وقد أضفى نكهة البيت على الغرفة الصغيرة ذات الطلاء الأبيض التي استأجرناها أسبوعًا، أو ربما شهرًا على الأكثر.»[2]

كان سليمان مرشدًا سياحيًا يرشد السيّاح الغربيين الذين كانوا يتوافدون على الأرض المقدّسة بأعداد متزايدة. تحصّل مقابل ذلك على أجر تمكّن به من الزواج والصرف على عائلة في قرية ساحلية قُرْبَ مدينة صور. كان «رجلًا شريف الأصل، لكنّه فقير... وقد اكتسب سمعةً لحكمته غير العادية.»[3] راشد الأكثر ابتذالًا كان يرى أنه «شخص مشهور بالكذب، ذلك الرجل الحكيم هناك،

---

(١) Ibid., p.17
(٢) Ibid., p.273
(٣) Ibid., p.38

ومع ذلك يقول حقًا!»[1] كان سليمان يلحق ببكثال وراشد في كثيرٍ من الأحيان ويسرد أجمل الحكايات، وبعضها بعيدة الاحتمال، لكنها جميعًا ذات مغزىً أخلاقي. وبعضها كانت حكايات شعبية تقليدية ومعروفةً لدى صديق بكثال، جي. إي. هانوير وظهرت في مجموعته القصصية (*Folklore of the Holy Land*).[2]

خلال رحلاته كان بكثال يرتدي الزيّ المحلي. وهذا أدّى إلى جفوة بينه وبين الإنجليز الآخرين. عندما حاول بكثال أن يشرح باللغة الإنجليزية إحدى العادات لأحد السواح الإنجليز الغرباء، فاجأه بسؤاله: «ماذا! هل أنت إنجليزي؟» وهذا كان الردّ الوحيد لذلك الإنجليزي وهو يتفحّص لباس بكثال المحلي بشفقةٍ وازدراء.»[3] هذا الرجل نفسه، وهو مبشر، كان شديد التعالي، ورأى في شباب بكثال وحماسته بدعة ضالة. دعاه بكثال لتناول الطعام في خيمته،. ثم لحق بكثال بسليمان وبعض القرويين. قال بكثال: «قارنت وأنا أنظر إلى هذه الوجوه التوّاقة والصديقة، قارنتها بذلك الوجه الفاتر لذلك التبشيري الذي ظهر لي فجأة كأنه طائر كبير جارح، إنني أكرهه بطبعي، لأنه مثل مدير مدرسة؛ ومع ذلك فإن لكلماته وزنًا، كما بدا لي وأنا حدَثٌ لا أستطيع الحكم، ومدير المدرسة مع أنه كريه إلا أن لديه ملَكَة أن يكون على حق.»[4]

تجربة بكثال الأخيرة غير المميّزة في المدرسة جعلت من بكثال الشاب عُرْضةً للاحتقار من أبناء بلده. هناك إنجليز آخرون قاموا برعايته بعد محاولاته غير الناجحة لشراء عقار. ألحّوا على بكثال «أن يطيب نفْسًا فقد مروا جميعًا

---

(١) Ibid., p.67

(٢) For example, the story of Joha and the tent-peg, Oriental Encounters, p.251, Hanauer, p.85; and the custom that it was licit to pick fruit at the edge of an orchard, Oriental Encounters, p.283, Hanauer, p.116. Pickthall also alludes to this practice in *Saïd the Fisherman*, p.228

على سبيل المثال، قصة جحا ووتد الخيمة (مسمار جحا)، في المجموعة القصصية مقابلات شرقية، ص٢٥١ وكتاب هانوير ص٨٥؛ وعادة السماح بأكل الفاكهة من طرف البستان، مقابلات شرقية، ص٢٨٣، وكتاب هانوير ص١١٦. وقد أشار بكثال إلى هذه العادة في رواية سعيد السمّاك، ص٢٢٨

(٣) *Oriental Encounters*, p.94

(٤) Ibid., pp.100-1

بنفس التجربة.»[1] هذا الحب، المُفترض، للناس وللأرض قد غيّره الزمن والحكمة ليتحوّل إلى بُعدٍ وامتهان. كان الامتهان في أكثر الأحيان مشتركًا بين الطرفين، حتى ولو كان ذلك الإنجليزي الدّخيل ربما غافلًا عنه. قال أحد المبشّرين موضّحًا: «لا ألمس طعامهم أبدًا؛ إنه غير نظيف' ـ وأعرف أن هذا الكلام نفسه هو ما يقولونه عن طعامه.»[2]

ذكريات بكثال تخبرنا كثيرًا عن سوريا الريفية خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر. ينبغي تجنب الحكومة أو أن يُسترضى موظّفوها. السُّلطة طاغية، والناس البسطاء يمكنهم فقط أن يقدموا التماسًا. قام بكثال بزيارة حاكم عثماني في الريف. كانت حجرة الانتظار مليئة بأصحاب المطالبات وهم يجلسون القرفصاء. «بدا بعض هؤلاء في فقر مدقع لدرجة أنني أُعجبتُ بجرأتهم في مطالبتهم بأن يستمع الحاكم لهم.»[3] كانت الجموع «جالسة أو متقرفصة بجانب الجدران في استكانة تامة، وبعضهم يدخّن، والبعض الآخر يمضغ بصوت مسموع مكسّراتٍ مختلفةً، وقد بدأت قشورها تغطّي الأرضية حولهم. كان بعض المتوسّلين يدور في خَلَدِهم إحضار أكياسٍ مملوءةٍ بالمؤونة معهم، كأنما يتوقّعون أن الانتظار سيستغرق أيامًا.»[4]

لدينا الإعجاب الفَطِن كالعادة بتلك التفاصيل التي تكشف التغيُّر في الاتجاهات أو السلوك الاجتماعي. طُوّرت الخدمات للسيّاح الأوربيين. كانت الفنادق، التي المفترض فيها تلبية الأذواق الأوربية، قد ابتدأت ويقوم بتشغيلها عادةً المسيحيون السوريون. كان أحدها «فندقًا حقًا وفيه قائمة طعام، بوّاب، وردهة استراحة ـ في الحقيقة كان فيها كل شيء ما عدا قنوات تصريف المياه.»[5]

(١) Ibid., p.267
(٢) Ibid., p.98
(٣) Ibid., p.211
(٤) Ibid., p.216
(٥) Ibid., p.77

وكان هناك فندق اسمه فندق هوارد يحمل اسم مالكه، اسكندر عوّاد، الذي غيّر اسمه إلى ألكسندر هوارد.

استطاب بكثال هذه الخصائص التي تختلف عن بيئته الإنجليزية التي نشأ فيها. كما سخر من المسيحيين العرب التوّاقين إلى اتخاذ عادات الأوربيين ولباسهم أو غرورهم وهم غافلون عن التناقض خلال تجوالهم باللباس السوري في حين أنهم يحتقرون السوري الذي يرتدي الرداء الأوربي في محاكاة مثيرة للسخرية.

هناك رومانسية مشرِقة لدى بكثال في تصويره المناظر الطبيعية وفي القرى السورية الحالمة. في أحد تلك الأماكن كان هناك «مرتفَعٌ تحت قمّة سلسلة جبال، ومن خلال مجموعة صخور على بُعد مرمى حجر؛ منها يمكن مشاهدة البحر كحائط أزرق عظيم يمتد شّمالًا وجنوبًا. أخذنا موقعنا بين الصخور لنشاهد شمس الغروب.»[1] بيد أن هذه الإشراقة تبقى تحت الملاحظة. في مكان آخر يقابل بكثال رجلًا من الصحراء «ناولَني قِرْبةً من جِلدِ خشن، ارتشفت منها سائلًا دافئًا طعمه مثل رائحة الماعز.»[2]

رواية مقابلات شرقية مُبهجةٌ ومضحِكةٌ أيضًا. شخصياته الأوربية والأمريكية في فلسطين جميعهم تقريبًا غريبون، وليس أقلّهم قائدُ بحرية أمريكي، كان على الشاطئ لمدة يومين فقط وقد طلب «شيئًا واحدًا فقط وهو أن يُرى الشجرة التي شنق نفسه عليها يهوذا الإسخريوطي، من أجل أن يُدنّسها بطريقة طبيعية وبهذا يُحقّق إيمانه.»[3] حكاية «بسطرمة» تسرد قصّة... لكنّ تقديم ملخّصٍ عنها سيُذهب متعةَ قراءتها لدى من سيقرأها.

هذه الرواية تبرهن على تفضيل بكثال للأدب القصصي كوسيلة لنقل الحقيقة. ليس من السهل إيجاد الفرق بين الحقيقة والخيال. من الواضح أن

---

(١) Ibid., pp.45-6
(٢) Ibid., p.109
(٣) Ibid., p.184

المحادثات عبارة عن إعادة صياغة لها من الخيال، لكنّ بكثال يتفادى تحديد أسماء الأماكن.

رواية **مقابلات شرقية** رائعةٌ في عرضها للأحداث على ثلاثة مستويات تاريخية. أولًا، هناك أحداثٌ تخيّلية لفترة العقد الأخير من القرن التاسع عشر، مستسقاةٌ افتراضًا من ذاكرة حفّزتها اليوميات أو دفاتر الملاحظات. هذه الأحداث تبوح بمكنون بكثال نفسه خلال ذلك العقد. ثانيًا، هنا بكثال في منتصف العمر وهو يتذكّر أحداثًا مهمّةً في شبابه فقط مع قليل من التلطّف. يقوم برصد لنفسه وهو شاب بكل نزواته وغرائزه التي كانت تخضع لمراقبة استقامة من هو أكبر منه سنًا. ثالثًا، هناك قِيَم الفترة بين عامي ١٩١٧ و١٩١٨ التي تزامنت مع ما نعرفه من كتاباته الأخرى. لكنّ غضب بكثال والمرارة والأسى لديه تم كبح جماحها.

هناك ارتباط آخر بين الفترتين، ارتباط يتعلّق بنضج بكثال النفسي. في عام ١٨٩٤ تحطّمت آماله المهنية مرتين. ذهب إلى فلسطين محبَطًا ويعتبر نفسه فاشلًا. رحلاته في سوريا منحته منظورًا جديدًا وأعانته على جمع بقايا من حياته. كل هذا كان توقّعًا لأزمة السنوات التي أعقبت ١٩١٤ والتي فُرِجَت بإعلانه إسلامه. وهكذا كانت رواية **مقابلات شرقية** رصدًا للمَخرَج من أزمة بكثال الشخصية الأولى، وبينما كانت الرواية تُعَدّ للنشر كان بكثال يخرج من أزمته الشخصية الثانية. إن مرور فترة عشرين سنة عجيبة قد منحت بكثال الانفصال؛ ذلك الانفصال الذي مكّنه من إبداء السخرية التي كانت على حساب نفسه وأفكاره وبني قومه. وفي الحقيقة؛ إن مُتعة الرواية إنما هي، على سبيل المفارقة، نتاج إحباط وألم. لقد استفاد بكثال من التنفيس، وكذلك قرّاؤه.

رواية الضُّحى (١٩٢١) (*THE EARLY HOURS*)

كانت رواية **الضُّحى** آخر رواية نُشرت لبكثال. إنها روايةٌ لها سببها. تعرِض الرواية قضية اتحاد تركيا الفُتاة التي كان بكثال يدافع عنه خلال الثمان سنوات الماضية في مكان آخر . يستخدم بكثال تلك الوسيلة الدعائية التي يجيدها؛ الأدب القصصي.

في عام ١٩٢١ لم يكن لدى اتحاد تركيا الفتاة، وهم حلفاء ألمانيا المهزومة، إلا القليل من الأصدقاء في بريطانيا. كان التحيّز ضد الأتراك، والصورة غير المفضّلة عنهم في فترة ما قبل الحرب قد عزّزها وصمة الهزيمة. لم يكن الأتراك أشرارًا فقط، بل كانوا أيضًا فاشلين. أجزاء من منطقة الأناضول قد احتلها الغزاة اليونانيون الذين كان يحثّهم رئيس وزراء بريطانيا. لم تكن الحركة الوطنية التركية وعمل مصطفى كمال أتاتورك قد حوّلت المفهوم السائد عن الأتراك. ولهذا فقد كان لرواية **الضُّحى** متعاطفون قليلون فقط. ومع هذا لم يكن في الرواية جانبٌ دفاعي أو شعور بالمرارة. هذه الرواية مشرقة حدّ الإدهاش وفيها فقرات فائقة البهاء.

كان بكثال قد اعتنق الإسلام حينما كتب الرواية. بهجة الرواية تعكس السكينة الجديدة في حياة بكثال. استمد عنوانها من تلك السورة في القرآن الكريم (سورة الضُّحى) التي أُنزلت على النبي ﷺ وهو في أدنى معنوياته. عندما ألقى بكثال خُطبةً عام ١٩١٩ عن هذه السورة لفت الانتباه إلى فرجٍ من نائبات لا تدوم. كانت السنوات التي بدأت عام ١٩١٣ سنوات مُظلِمة على تركيا وعلى المسلمين، لكن بكثال كان يستند إلى الأمل متأسّيًا بما مرّ بالنبي ﷺ من أيام عصيبة. جعل بكثال من سورة الضّحى موضوعًا لروايته وهو يقتبس آياتها، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.[1] كان على المسلمين أن يقوموا بواجبهم في تعليم إخوانهم وأخواتهم غير المتعلّمين وأن يستكملوا ضمن إطار الإسلام عملية الإصلاح التي بدأها اتحاد تركيا الفتاة.

رواية **الضُّحى** تحكي قصة قمر الدين، وهو جندي سابق في الجيش التركي بين عامي ١٩٠٨ و١٩١٣. قدم قمر الدين من منطقة تراقيا[*] وذهب إلى مدينة سالونيك ورافق صدفةً ضباطًا شبّانًا من جمعية الاتحاد والترقّي. قابل صاحب فضل سابق عليه وهو صادق باشا، أحد المؤيدين المحافظين للنظام

(١) *The Early Hours*, p.269

(*) Thrace منطقة تاريخية جنوب شرق البلقان تضم شمال شرق اليونان وجنوب بلغاريا وتركيا الأوربية.

السابق، والذي وفّى بوعده لقمر الدين من خلال خِطْبة جولرانه له، وهي أمَةٌ ملازمة لنساء بيت صادق وذات تعليم جيد وروح عالية.

يتم اختيار قمر الدين مصادفةً أيضًا من قِبل المؤتمِرين في اتحاد تركيا الفتاة لتسليم رسالة إلى نيازي بِك، وهو جنرال في أراضي مقدونيا. كسب اتحاد تركيا الفتاة ولاء قمر الدين وانضم إلى جيش الثورة وهو يتقدّم من بين تلال وقرى مقدونيا في شهر يوليه من عام ١٩٠٨. أُجبر السلطان على قبول مطالب الثوار المتمثلة في إعلان الدستور وتطبيق الإصلاحات.

عاد قمر الدين إلى العاصمة وحصل على وظيفة في وزارة الحرب. أحداث أربعة أشهر استغرقت ثلثي الرواية. والثلث الأخير كان معنيًا بمصير قمر الدين خلال الخمس سنين اللاحقة. تزوج قمر الدين من جولرانه. انضم إلى جيش محمود شوكت الذي جاء به إلى اسطنبول لسحق معارضي ثورة ١٩٠٩. كان يعمل ضابطَ صفٍ في قمع قُطّاع الطرق في مدينة بورصة. خلال مدة إقامته بالعاصمة كان يدرس اللغتين الإنجليزية والفرنسية. لدينا لمحات من مخاوف وآمال وتوقعات أصدقائه الذين يتدرّجون من الأرستقراطي المتأنّق فريد بِك إلى المناصر المتحمّس للثورة الأرمني دِكرام بِك.

أمضى قمر الدين عامين في مقدونيا، وعنما اندلعت حروب البلقان عام ١٩١٢ تطوّع مرة أخرى للخدمة العسكرية. جيوش البلقان اجتاحت تراقيا حيث تقيم زوجته وأطفاله. جُرح قمر الدين وفقد إحدى ذراعيه وعاد إلى العاصمة حينما علم بالمذبحة الوحشية لعائلته وبخيانة جاره المسيحي. ابنة صادق باشا الأرملة عرَضت على قمر الدين المنكسر الزواج منه. بطل الثورة المضادة محمود شوكت تم اغتياله، وتنتهي القصة والزوجان حديثا العهد بالزواج وهما قد تخطّيا مرحلة الشباب يسلّيان نفسيهما بسورة الضحى التي منحت الرواية عنوانها.

تصوير بكثال لشخصية قمر الدين يُعتبر تطوّرًا موجَّهًا لتلك الشخصية التي أنشأها من قَبْل؛ شخصية المسلم الشاب المتواضع العادي الضعيف. على النقيض من سعيد السمّاك ومبروك في رواية أبناء النيل، قمر الدين ليس انتهازيًا

عديم الضمير. إسلام قمر الدين أعمق. قمر الدين كالمسلم الطيب يحمد اللّه على نعمه على العالمين. يقف قمر الدين مشدوهًا من جمال الطبيعة «المنسّق، على ما يبدو، ببراعةٍ ليستمتع به الإنسان.»[١]

السياسة التركية محبوكة بهدوء في الخلفية. مع تقدم الرواية يصبح قمر الدين مساندًا أكثر فأكثر للاتحاديين في تركيا الفتاة. سبب الثورة اختصره نيازي في حثّه لجنوده على التلال: «ابنوا المدارس، علّموا شعبكم وأصلحوا مساجدكم.»[٢] يراقب قمر الدين تأثيرات الثورة وهو في مقاطعة بورصة.

«في كل ناحية سمع النداء للتعليم وصحة البيئة والتطوير في كل جانب. في أماكن عدّة كانت المدارس تُبنى هديةً من الأثرياء الذين تقبّلوا الأفكار الجديدة؛ في هذه الأثناء كانت الدروس متوسطة المستوى تُلقَى في المساجد من قِبَل وعَاظ تقليديين درَسوا بجدّية وشغف وتعلّموا الموضوعات التي يُدرّسونها لتلاميذهم.»[٣]

ملاحظات قمر الدين هي نفسها ملاحظات بكثال بطبيعة الحال. في كتابه المعنون مع الأتراك زمن الحرب (*With the Turks in Wartime*) وفي مقالاته في مجلة (*The New Age*) كان بكثال كثيرًا ما يلفت الانتباه إلى الإصلاحات التي يقوم بها اتحاد تركيا الفتاة، تلك الإصلاحات التي لم تكن مُبهرةً، ولم تكن في اهتمام العلاقات الإنجليزية التركية لكنّها كانت ذات أهمية قصوى للأتراك العاديين. «اتحاد تركيا الفتاة» في نظر أحد مؤرّخي تركيا الحديثة، «ربما يكونون قد فشلوا في إعطاء تركيا حكومة دستورية. لكنّهم مع ذلك منحوا اسطنبول شبكة صرف صحي.»[٤]

---

(١) Ibid., p.9

(٢) Ibid., p.120

(٣) Ibid., p.217

(٤) Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey* (Oxford University Press, 1961), p.223

هناك صدىً آخر لكتابات بكثال الصحفية. في شهر نوفمبر من عام ١٩١٤، كتب عن كيف أن «نيازي بِك وإنفر بِك ذهبا إلى الجبال ومع كلٍ منهم مجموعة صغيرة من الفدائيين الذين أقسموا أن يحرّروا البلد أو يموتوا... قام نيازي بِك، ذلك المخلص الخادم للأفكار... بمخاطبة أتباعه المثتين في مفترق طرق على مرتفع أخضر أعلى بلدة ريسنا(*) طالبًا من ضعاف القلوب أن يتركوه.»(١) كما في رواية فرسان من جزيرة العرب يستخدم بكثال رخصة الروائي ليضيف عددًا من اللمسات. صعد الجنود على التلّ المشرف على ريسنا «سالكين في طابور منفردٍ طريقًا متعرّجا يلتف بين شجيرات كثيفة ذات رائحة فوّاحة؛ هنا وهناك مجموعة من أشجار الغابة.»(٢) وفي القمّة «جمع الجنود أسلحتهم وفكّوا أحزمتهم وألقوا بأنفسهم على الأرض ينزعون العشب وهم حذرون على تلك الأرض المشمسة.»(٣)

(*) Resna بلدة جنوب غرب مقدونيا

(١) *NA*, 26 November 1914, XVI, p.90

(٢) *The Early Hours*, p.103

(٣) Ibid., p.104. Another example: The Minister of War, Nazim Pasha, who was killed in January 1913 was reputed to be a heavy drinker. Pickthall had in his possession a Turkish comic paper of the Unionist party 'with a picture of Nazim Pasha in a state of jovial intoxication, a whiskey-bottle half out of his pocket... asking at a booking office for a circular ticket for Sofia, Belgrade, Athens, and Cettinje, durable one month'. (*NA*, 24 December 1914, XVI, p.191). The cartoon illustrated the unbounded optimism of the Minister in his expectations of the outcome of the war with Bulgaria, Serbia, Greece and Albania. The cartoon is described in virtually the same words in *The Early Hours*, p.238

المصدر السابق ص١٠٤. هنا مثال آخر: وزير الحرب ناظم باشا، الذي قتل عام ١٩١٣، كان معروفًا بشراهته في شرب الخمر، وكان من مقتنيات بكثال نسخة من صحيفة فكاهية يصدرها الاتحاديون وبها «صورة ناظم باشا وهو ثمِل وجذلان، وفي جيبه زجاجة ويسكي ظاهر نصفها... وكان يطلب من مكتب سياحي تذكرةً مرجّعة إلى صوفيا، بلغراد، أثينا وسيتني صالحة لمدة شهر. (مجلة العصر الجديد العدد الصادر في ٢٤ ديسمبر عام ١٩١٤، مجلد ٢٦، ص١٩١). يُظهر الرسم الكاريكاتوري التفاؤل غير المحدود للوزير في توقّعاته عن نتائج الحرب مع بلغاريا وصربيا واليونان وألبانيا. وُصف الرسم الكاريكاتوري بنفس كلمات بكثال في رواية الضُحى، ص ٢٣٨

حينما كان قمر الدين في العاصمة التركية، أقام في الضاحية الآسيوية الغنية، إرنكوي(*) مثل بكثال عام ١٩١٣. وكما قد فعل بكثال، فإن قمر الدين اعتاد على السير في طريق ظليل يؤدي إلى محطة قطار قريبة داخل عريش من صفيح. استقل القطار إلى حيدر باشا، ومنها حملته سفينة بخارية على المياه الضاحكة إلى جسر غلطة التي تمتد إلى مدخل القرن الذهبي. هناك دائمًا نفس مجموعة الناس على القطار والسفينة الذين أصبح يعرف بعضهم بعضًا ويتحدّثون كالأصدقاء. كل شخص يحمل في يده صحيفته المختارة ليقرأها بين أحاديثهم التي تدور دائمًا حول السياسة... حينما يصل إلى الجسر يكون همّه الأول كغيره أن ينظف حذاءه من غبار الطرق الريفية.(١)

الالتزام السياسي والديني يضفي قوّةً على الرواية. كما نجد في الروايات الشرقية، نحن مدعوّون لرؤية العالم كما يراه قمر الدين. هناك بِك تركي تعلّم في فرنسا يدعو قمر الدين لطعام الغداء. «يقُدّم الطعام بحسب الطريقة الفرنسية على طاولة مرتفعة كثيرًا عن الأرض وكان على الكل الجلوس على مقاعد للوصول إلى الطعام.»(٢) شخصية قمر الدين الأقرب إلى نفس بكثال من شخصياته الأخرى. الآمال التي عبّر عنها قمر الدين في تركيا الإصلاحات هي نفسُ الآمال التي عبّر عنها بكثال. إيمان قمر الدين في مواجهة الرزايا شبيه بإسلام بكثال الذي اعتنقه حديثًا. كان قمر الدين سعيدًا كمجنّدٍ عاديّ. كان بكثال راضيًا كجندي ثم كعريف بنهاية الحرب العالمية الأولى. رضى كلٍ منهما منبعه الإيمان. آراء قمر الدين عن الزواج صدىً مباشر لآراء بكثال. يخبر قمر الدين زوجته أن «أرواح كلّ رجل وامرأة تكون منفردة من المهد إلى اللحد... عقلكِ وروحكِ، وعقلي وروحي كلاهما مستقلان بعضهما عن بعض.. لكنّنا نسلك نفس الطريق ونعبد الإله ذاته.»(٣)

(*) Erenköy إحدى ضواحي مدينة اسطنبول

(١) The Early Hours, pp.170-1. Compare *With the Turk in Wartime*, p.42 and p.211

(٢) Ibid., pp.45-6

(٣) Ibid., pp.215-16

هكذا تحوي رواية الضُّحى مقوّمات السيرة الذاتية لبكثال. تُكوّنُ الرواية جزءًا من الكيفية التي رام فيها بكثال ربط هويّته بالإسلام وآسيا وأن يصبح واحدًا منهم. بكثال وقمر الدين، رغم اختلاف تاريخهما الشخصي، لديهما عقلٌ واحد ونفس الآراء وذات الآمال. مثل كتاباته الدينية، نجد لغة الرواية أسهل من لغة رواياته السابقة. لدى بكثال رسالةٌ يريد إيصالها. العاطفة وغياب التهكّم تعكس الجدّية المطْمئنّة التي ألهمته أن يكرّس بقيّة حياته لخدمة الإسلام.

٦

حكايات من إنجلترا وأوربا

«... هي إحدى مناطقنا التي لم تتغيّر... ذلك أن الفلّاحين ما زالوا يتحدّثون اللغة الإنجليزية القديمة بلهجةٍ عتيقة، وما زالوا متمسّكين بالعادات التي عفّى عليها الزمن.»
بكثال كاتبًا عن سَفُك[1]

بقية القصص القصيرة

في كلٍ من المجموعات القصصية الثلاث قُسّمت الحكايات إلى ثلاثة أقسام بناءً على مكان حدوث كل حكاية. معظم الحكايات تتعامل مع الشرق الأدنى، غير أن سبعًا منها حدثت في سويسرا؛ وإحدى وعشرين حكاية جرت أحداثها في إنجلترا، في سَفُك عادةً.

في الحكايات المتعلّقة بإنجلترا يهتم بكثال بموضوعات الطبقة والمكان. المدى الاجتماعي للطبقة في حكاياته واسع، من الأرستقراطيين وصولًا إلى المسحوقين. لم يكن بكثال سعيدًا حينما يتعامل مع شخصيات

(١) *Athenaeum*, 2 July 1910, no 4314, p.8

النبلاء والأثرياء، لكنَه يأنس بالأشخاص المحترمين ممن هم في الطبقة التي ينتمي لها وهم الطبقة المتوسطة العليا الذين يعيشون على المعاش السنوي ولديهم مناشط مشروعة محدودة: تلك المهنة القديمة للرجال المتمثلة في الاهتمام بحياة النساء العائلية. بعض هؤلاء لم يستطع تحمّل البقاء في إنجلترا. «استوطنوا مدينتي جنيف ولوزان لدوافع اقتصادية. ذهب جميعهم إلى الجبال في حرارة الشمس، ولم يستطيعوا دفع إيجارات الفنادق الكبيرة. ما استطاعوه من ثمن دفعوه بانتظام.»(١) في هذه الطبقة الفوارق البسيطة تعني الكثير في العلاقات الإنسانية.

قِصصُ بكثال عن حياة الطبقة الدُّنيا فيها لمسةٌ، فقط لمسَةٌ، من حنانٍ أبوي. كان بكثال يلاحظ ويدوّن ويتعاطف مع عناد الريفيين. في أي خلاف ينشأ بين الفلّاحين والنبلاء، إذا لم ينتصر الفلّاح، تكون له على الأقل الحُجّة الأقوى.

كان بكثال يُهلّلُ للمجتمع القروي وحب الوطن والخصوصيّة: وعلى سبيل المثال، إحدى القرى السويسرية في إصرارها على الانتصار على الأخرى؛ وكيف أن المعتقدات المحليّة تُحتقَر من قِبَل العالَم الأُمميّ. يتساءل أحد الشخصيات مؤكّدًا، وهو يعتقد في قدرات معالِج بالإيمان يقطن منطقة جبلية، «هل العجيب أكثر أن رجلًا من ڤو(*) يجد جاذبيةً في معالجة شخص من إقليم ڤاليه(**)، أم أن جهازي لقياس الضغط الجوي ينبئني بحدوث عاصفة قبل وقوعها؟»(٢)

حكايات بكثال الإنجليزية تُظهر حساسيةً تجاه مرور الوقت، وتفكّك الجالية الريفية المثالية. «منذ خمسين عامًا مضت كان هناك في كل قرية كبيرة شرق أنجليا مصنع للخمر، ومصنع للحبال، ومسبك للمعادن، ومصنع للقماش واثنتان أو ثلاث طواحين هواء؛ وبعض آثارها ما تزال قائمةً حتى اليوم... وقد

---

(١) *Tales from Five Chimneys*, pp.286-7

(*) Vaud أحد الأقاليم في غرب سويسرا

(**) Valais أحد الأقاليم في جنوب غرب سويسرا

(٢) *Pot au Feu*, p.197

أسهم بشكل كبير اندثارها في هجرة السكّان عن المناطق الريفية حيث على الشاب اليوم أن يحرث تربتها أو يرحل عنها.»[1] قرية تشيلسفورد الصغيرة، التي قضى فيها بكثال سنوات عمره الأولى، كان بها مطحنة هواء وناعورة، وبِرْكَةُ صيد بها أنابيب وشِبَاك وكلاب، وفُرْنٌ لإنتاج طوب الآجرّ والقرميد. لم يعد شيء منها صالحًا للاستخدام زمن الحرب العالمية الأولى سوى الناعورة.[2]

شخصيات بكثال غير المتعلمين من سَفُك يستخدمون كلمات وعبارات من اللّهجة المحلية، ولدى بكثال أذن صاغية لتدوين تلك اللّهجة كما كان يفعل وهو يتعلّم اللّهجة العربية السورية. نجد أن الظرف (ظرف الحال) الممدود («wholly»)، كما في («I fare whol-ly stammed.»)[3] ومعناها ... كذلك («mander») كما في («that warn't no mander o' use»)[4] ومعناها .... وأيضًا أداة النداء («bo»)[5] وأسلوب محاكاة السِباب («duzzy ole fules») والتعبير العاطفي («ye little mucks»)[6].

كان بكثال منتبهًا للتباين بين النزعة للطبيعة الواقعيّة والعاطفيّة. الطبيعة كانت جيّدةً؛ إنها حُكم الرب. أما العاطفيّة فكانت هروبًا من الواقع، وتشويهًا

---

(١) Ibid., p.110

(٢) G. Pickthall (Pickthall's half -sister, Grace) - 'Chillesford' in Arthur Snell (ed.), *Handbook and Guide to the Parishes of Butley, Chillesford and Wantisden in the County of Suffolk* (The Wykeham Press, Winchester, n.d. (c.1950)), p.19

جي بكثال (أخت بكثال غير الشقيقة واسمها غرَيس)

(٣) *Pot au Feu*, p.41

(٤) Ibid., p.50

(٥) Ibid., p.50; *Tales from Five Chimneys*, p.273; and elsewhere

(٦) *Tales from Five Chimneys*, p.217. Another of his half-sisters, Caroline, also interested herself in Suffolk dialect, publishing a few dialect tales and poems and a glossary of East Suffolk words. See Carol Christie (sc. Caroline Pickthall), *Walberswick Notes* (St Catherine Press, London, 1911)

حكايات من الخمس مداخن، ص٢١٧. وهناك أخت أخرى غير شقيقة لبكثال، اسمها كارولين، هي أيضًا مهتمة بلهجة سفُك، وقد نشرت بعض حكايات وقصائد عن لهجة سفُك، ومسرد لكلمات شرق سفُك. طالع كتابها تحت اسم كارول كرستي (وهي كارول بكثال)، بعنوان شروحات عن وولبرسويك (المنشور في لندن عام ١٩١١)

للحقيقة. الولاء لحد الإصرار والولاء للمكان أو للفكرة أو لطريقة الحياة كل ذلك كان صحيًا وطبيعيًا. كانت العاطفية تشمل أكاذيبَ نابعةً من التمييز الطبقي ومن الممارسة الدينية. كل هذه المقوّمات ظهرت في قصة قصيرة واحدة، «المدّ المرتفع» («The Rising Tide») وهي آخر القصص في المجموعات القصصية المنشورة.(١)

في هذه الأقصوصة انتقلت عائلة بريغز إلى هولّي غروف على طريق تشلمسفورد. السيد بريغز متقاعد من الخدمة المدنية وهو مولع بقراءة الكتب ولديه ابنتان في المنزل وابن يدرس في مدرسة حيّ رغبي. زوجته ابنة لكاهن مفعم بالحيوية وهو «يقول كلَّ شيء بينما زوجتُه تفعل جيدًا كلَّ شيء.» كانت تهتم بالفقراء. خدمت أباها حين كانت بنتًا صغيرة، «وهكذا اكتسبت في شبابها غريزة كلاب حراسة الغنم المتمثلة في توجيه القطيع أينما يكون.»(٢)

انطلقت في عملها مضايقةً الفقراء بدروس في الإنجيل، وتنظيم الحفلات وأندية الملابس. بمساعدةٍ فاترةٍ من أشخاص من الطبقة العليا أقامت حفلةً ترفيهيةً فظيعةً، وقد كان مساءً حافلًا بمسرحيات سيئة الإعداد، وإنشاد أغانٍ فرنسية وأداء شعر وطني. بلغت عائدات الحفل خمسة جنيهات إسترلينية، واقترحت السيدة بريغز، غير مكترثة لإخفاقها التام، أن تُصرف على العمل التبشيري وعلى تبني طفل صغير أسود داخل البلد.

"لم أكن أعرف أننا مغرمون لهذا الحد بالسّود في حيّ هولّي غروف،» قالت السيدة داوسون بتمعّن.'(٣) السيدة داوسون هي صاحبة متجر القرية ولها أبناء مراهقون ومفعمون بالحياة. عندما احتجّوا على سوء خُلُق عائلة بريغز، أخبرتهم والدتهم أنه لا يمكنهم تعليم عِلْية القوم الأخلاق" إلا إذا أمكنهم تعليم

---

(١) *As Others See Us*، (هكذا في الأصل)

(٢) Ibid., p.261

(٣) Ibid., p.271

المحرك البخاري. عليكم فقط أن تشاهدوا كما تشاهدون مسرحيةً، وقولوا 'يا سيّد ويا سيّدة،' وتكفيكم السلامة."»[1]

ابنها جاك بريغز، المنتسب لنادي الرغبي، هو الوحيد في العائلة الذي، كما تقول ماي ابنة داوسون، «يتحدّث إليك كإنسان.»[2] كانت السيّدة بريغز بصحبة بناتها خارج المنزل، وتجرّأت ماي وقامت بدعوة جاك إلى حفلة. وقد أمتع جاك نفسه كليًّا.

لم يكن هناك هراء، كما قال جاك فيما بعد، وكان كلُّ شخص يتحدث إلى الآخر؛ كانت هناك فرقة موسيقية مهذّبة تعزف، وبعض الطعام الفاخر. كان الحضور قرابة مئة شخص، وكان دومًا هناك عدد من الأزواج يرقصون. كان جاك في رعاية ابنتي داوسون، وكانت كلٌّ واحدة منهن ترقص معه أو تبحث عمّن يرقص معه. كان جاك يتحدّث مع الأولاد عن كرة القدم، ومع داوسون العجوز عن الصيد، وقد مكث منتشيًا حتى الساعة الثانية والنصف فجرًا، وعاد إلى منزله سعيدًا وهو يتحدث إلى حارس منزل غرينلاندز وزوجته وابنته. لم يحلم أبدًا أن حياة القرية فيها ذلك المرَح.[3]

حينما عادت السيدة بريغز لم تكن راضية أبدًا «مستهجِنةً تجاوز جاك الحدود بشكل لم يحدث من قبل.» أوضحت موقفها قائلة: «يجب علينا أن نبقى بعيدين عنهم وإلا فإن حياتنا الاجتماعية المهذّبة سيغمرها الابتذال.»[4] وجد جاك «الأمر عاديًا» لكنه ضعُف عندما تلقّى مفتخرًا التماسًا وهو في طور الإعداد كشخص نبيل. «عندما شاهدَتْه متحيّرًا، انحنت عليه بقوّة أكثر، متوسّلة بمشاعره المقدّسة، ونفسه المُثلى، وحبّه لبيته، وبواجبه تجاه والديه وربّه؛ راسمةً حزن والده، وفضيحة أخواته؛ ومُشربةً إياه ذلك السُمّ الاجتماعي بحلاوة جعلته يعتبره تعليمًا مقدّسًا، مثل الإنجيل حقيقةً.»[5]

(١) Ibid., p.272
(٢) Ibid., p.272
(٣) Ibid., pp. 273-4
(٤) Ibid., p.274
(٥) Ibid., p.275

أنهى بكثال الحكاية بتنويه غير عاطفي. وَهْمٌ - وسُمٌّ - وانتصارٌ وخضوع جاك. القيود المصطنعة، التحيّزات الطبقية ونفاقها، مدعومةً بالدِّيْن الرسمي، تخلّى عنها جاك مؤقتًا حينما لمح العالم الطبيعي للفلاّحين وهم يمرحون. أقصوصة «المدّ المرتفع» نُشرت حينما أدار بكثال ظهره لقيم إنجلترا وما اعتبر نظامها الطبقيّ زائفًا وهشًّا، وأنه قد صبح أخًا للإسلام.

رواية جميعهم حمقى (١٩٠٠) (*ALL FOOLS*)

رواية جميعهم حمقى، «وهي قصة لبعض الشبّان وفتاة،» نُشرت في شهر يونيه عام ١٩٠٠. هذه رواية بكثال الأولى وهي رواية طائشة لمجموعة من الشبّان الذين يدرسون لدى مدرّسة خصوصية في لندن. بعد ثلاث سنوات من نجاح روايته سعيد السمّاك، تبرّأ بكثال من روايته الأولى، واشترى نُسَخَها وأتلفها. في الكتاب المرجعي (*Who's Who*) لم تُدرج رواية جميعهم حمقى ضمن أعمال بكثال المنشورة. كتابة هذه الرواية سيئة غالبًا: مُسْهِبة ومُتكلّفة وفكاهيّة. هناك القليل، فقط القليل، من الدلائل على الموهبة أو الجدّية التي اتسم بها بكثال فيما بعد.

هذه الرواية تحكي قصة دوغلاس لي - سترتون، والمعروف باسم بَنِي (Bunny) ومعناها الأرنب نسبةً إلى فمه الأرنبي، وهو «شاب نبيل محبٌّ لمظاهر التأنّق كالخيل»[1] وعلاقته العابرة مع الأنيقة ميليسنت وودوارد التي تسكن مع والدتها طريحة الفراش وأخيها البذيء پيرسي. نصف الرواية الأول مَعْنِيّ باختطاف دوغلاس على يد اثنين من الألمان وتبعات ذلك.

غيّرت الرواية في منتصفها من لهجتها. رفاق بَنِي الطلاب بينهم طالبٌ هنديٌّ مرِح وبلاكستون الأرستقراطي المسرف في الأناقة. الطالب الهندي على

(١) *All Fools*, p.28

هيئة بيلي بنتر(*) في مجلة ماجنت(**) ويتم الاستهزاء به طوال الرواية. غير أن بلاكستون تطوّرت شخصيته ليصبح جادًّا. وقع في حبّ ميليسنت لكنّ سلوكه كان لائقًا. كان ينظّم حياة الآخرين بطريقة مختلفة تمامًا عن شخصية بلاكستون في الصفحات المئة الأولى للرواية.

أسلوب كتابة الرواية سيء حقيقةً. عنوان الرواية القوي يوحي أن عُمْر المؤلف أكثر من عمره البالغ خمسًا وعشرين سنة. هناك عنوانٌ لكل فصل وفي هذا ذكرى عزيزةٌ تتمثّل في الأسلوب الأدبي السائد عام ١٧٥٠: «الفصل السابع حيث يمكن للقارئ، إذا أراد، مشاهدة طريقة شاب مع صبيّة.» الرواية طويلة، وطولها مردّه إلى الإسهابات مثل: «فُتح الباب ليسمح بمرور جسم إنسان.»[1]

نفور بكثال من إبداعه الروائي الأول ربّما كان بسبب تصويره المشوّه بدرجة كبيرة للهندي، بارَونيجي، والمعروف لدى السلطات الرسمية باسم بونرجس وبين أصدقائه باسم براون جيجي. يُنظر إليه كشخصٍ ساذج وليس لديه إلمامٌ كافٍ باللغة الإنجليزية. يشرب الويسكي، وليس لديه إحساس تجاه النُّكَت القلبية التي يُدخِل نفسه فيها. ويتم النظر إليه من الخارج، من خلال عيون إنجليز ضعفاء وضيّقي الأفق. يُدعى القارئ إلى تجريده من الإنسانية في بعض المناسبات، وعلى سبيل المثال عندما «يُصْدر صوتًا خافتًا له صرير كزمجرة الكلب، من بين صفّي أسنانٍ ظاهرةٍ بيضاء لامعة. يُدحْرج عينيه، بطريقة لا يظهر منها سوى بياضهما.»[2] من المدهش أن نقارن بين العرض البائس لشخصية الهندي مع عرض شخصية السمّاك السوري، سعيد، بعد ثلاث سنين. والأكثر من هذا إذا وضعنا نصب أعيننا أن بكثال كان يكتب كلا الروايتين في نفس الفترة.

(*) Billy Bunter شخصية تخيلية لطالب في صحيفة *Magnet*

(**) *Magnet* صحيفة أسبوعية موجهة الطلاب صدرت في انجلترا عام ١٩٠٨ واستمرت حتى ١٩٤٠

(١) Ibid., p.222

(٢) Ibid., p.50

هناك إيحاءات شاردة عن بكثال المتأمّل، ومؤشرات على قوّة ملاحظته وتعليقاته الاجتماعية. كان بكثال يصف، وصفًا مؤثرًا لكن بدون عاطفة، طريقًا بُني حديثًا في وِست كِنزنغتون حيث كان من بين الهيجانات الأحدث لذلك المرض الغادر على وجه الأرض ـ جذام الطوب والإسمنت، الذي احتضنته وغذّته كثيرًا الروح التجارية عند الإنجليز، وقد زحف إلى أبعد مدى وأحرز كثيرًا لدرجة أنه أصبح مؤسسةً وطنيةً حصينةً، وبهذا لا يمكن مهاجمته... كانت المنازل صغيرةً ومفصولة من جانب واحد فقط، وطريقها شرائط رفيعة معبّدة تصل ما بين البوابة الحديدية والباب ذي اللون الأخضر الداكن الذي يعلوه مقبض من نحاس ووصلة لطَرْق الباب. كان كلّ مسكن مبنيًا من الطوب الأحمر، وبه نتوء على شكل نافذة قوسيّة بُنيت على شكلٍ هندسي احترامًا للطراز المعماري للملكة آن وصولًا إلى كات غرينواي(*). كان هناك شيء يدلّ على حداثة نعمة في هذا الطريق، بكل ما بدا التأثير عليه من أسطحه المثلّثة الباهتة المُتكلّفة ومداخنه البارزة كما لو كانت في مواجهة مع البناء المجصّص الأقدم لذلك الشارع، والحدائق المرتفعة، وذلك الطريق الذي تحيط به تلك الحدائق من جميع الجوانب.[1]

هناك مقطوعة أخرى تصف ضباب لندن وتبشّر بمقدرة بكثال على تحويل ملاحظته القويّة وتأمّله إلى نثر تخيّلي. من مكان مرتفع كثيرًا «كانت المنازل والكنائس والنهر بجسوره العديدة وجميع شُحْنات البِرْكة تبدو كما لوكانت معلّبة بشكل جيّد للّيل بالقطن والصوف، لئلا تصطدم ويكسر بعضها بعضًا، أثناء سير العالم في فلكه عبر الفضاء.»[2]

لدى بكثال أيضًا ومضات تدلّ على بصيرته بالتغيّرات الاجتماعية ـ وضع المرأة غير الآمن لكن المتغيّر من خلال تعيينهن ناسخات في المدينة أو نضال الطبقة المتوسطة الدنيا من أجل بعض الأمان الاجتماعي، «الكفاح

(*) Kate Greenway رسّامة لكتب الأطفال عاشت خلال ١٨٤٦ ـ ١٩٠١.

(١) Ibid., p.55

(٢) Ibid., p.245

المثير للشفقة من أجل ظلّ الطبقة العليا.»[١] على النقيض من روايات بكثال الإنجليزية الأخرى، تجري أحداث الرواية في مكان ريفي من لندن.

غير أن التهكّم الطريف يصوغ أسلوب الرواية ويكبح الواقعية الاجتماعية أو النفسية. حُكْم بكثال على الرواية فيما بعْدُ كان صائبًا. تبقى الرواية مرغوبةً فقط من أجل الوعد الذي فشلت في تحقيقه.

رواية إنيد (١٩٠٤) (*ENID*)

رواية (*Enid*) روايةٌ مثيرة أتت بعد رواية سعيد السمّاك. كثير من جوانب شخصية بكثال موجودةٌ في رواية سعيد. على النقيض من ذلك فإن رواية (*Enid*) رواية تقليدية جرت أحداثها في ريف سَفُك، صيغت بالأسلوب الأدبي الإنجليزي.

إنيد هي البنت الصغرى لتاجر ألبسة ناجح أتى إلى سَفُك طامحًا في نيل مكانة الطبقة العليا. تحكي الرواية أربع زيجات: زواج إنيد نفسها، وزواج أختها وخادمتها والزواج الثاني لأبيها. في كل زيجة هناك أزمات أخلاقية واجتماعية تضع السلوك المحدّد للطبقات المحترمة على المحكّ. هربت إنيد بدافع النزوة مع عشيقها سيدني، وهو شاعر له عادات انعزالية. فضيحة الهروب خفّت وطأتها حين علمت أسرتها أن سيدني من الطبقة العليا. العلاقة الحميمية تُظهره محبًا للاستئثار ومشفقًا على الذات. تركته إنيد لتسكن في إيستريك، وهي بلدة ساحلية يبدو أنها أسست على طراز ساوثولد أو وولبيرسويك (لدى بكثال أخت من زوجة أبيه، اسمها كارولين، سكنت في وولبيرسويك). أجبر اليأس سيدني على الانتحار. انتحر سيدني بعد أن فقد الأمل.

والد إنيد، سايمون غلوفر، تاجر الألبسة السابق تزوج الشابة المحترمة السيدة هيرميا غارلاند التي سبق أن هربت طائشةً في شبابها مع العريس الذي، كما تعتقد الأسرة، غرق في البحر لاحقًا. عاود السيد غارلاند الظهور بشكل متهوّر لابتزاز هيرميا. لكنّ تم تفادي الأزمة عندما عُرف عن غارلاند في نهاية

(١) Ibid., p.129

الأمر أنه كان شخصًا حقيرًا دائما، وأنه كان متزوجًا حين قاد هيرميا إلى الخطيئة. زوجته الأولى كانت على قيد الحياة ولهذا فإن زواجه من هيرميا تعدّدي وباطل. وأي أطفال لهما سيكونون غير شرعيين، وهذا خبر سار لهما، ولكنّه خبر سيء لإنيد وأختها رووث التي كان زواجها عديم البهجة مع زوجها البخيل والذي يعمل ضابطًا في الجيش.

خادمة إنيد، لوتي، هربت مع شقيق هيرميا، وهو نبيل واهن. على الرغم من عدم تكافؤ زواجهما ـ وأن لوتي كان عليها أن تتلقى تعليما يناسب وضعها الجديد ـ إلا أن زواجها هو أسعد هذه الزيجات.

أحداث الزيجات رُويت بأسلوب مفعم بالحياة ويتضمّن العلاقات الشخصية بينهم جميعًا. غير أن التفاعل الشخصي يجري ضمن نظام صارم للسلوك الاجتماعي المتوقع ومن خلال تسلسل هرمي مُحْكم. عندما هربت إنيد، لم تُعرف هوية عشيقها. تحوّل غضب عائلتها إلى رضىً، بل إلى إعجاب مُضحك حينما علمت عائلتها أن العريس هو نفسه، وليس كما خيف أن يكون شخصًا آخر. «إنني أشعر بالارتياح الكبير، وبالكاد أكْترثُ»[1] كما قال والدها. القوانين الاجتماعية أكثر صرامةً من القوانين الأخلاقية. زواج النبيل بالخادمة تم إخفاؤه لأكثر من عام ـ بالرغم من حصول حَمْلين ـ حتى اكتسبت لوتي احتفاءاتٍ اجتماعية مكّنتها من ممارسة دور السيدة. لم الشمل بينها وبين أخيها عامل المزرعة الأخرق عُبّر عنه في مقطوعة فكاهية إبداعية صيغت ببراعة.

أخطاء رواية إنيد واضحة: السلوك التقليدي، الكتابة لقرّاء يشاركون ادّعاءات بثبات وصواب نمط اجتماعي يبجّل الطبقة ومنتسبيها. الطبقة العليا ومن سيكونون كذلك يتحدثون اللغة الإنجليزية الفصحى، أما الطبقات الدنيا يفرض عليها تحدّث لهجة سَفُك الحقيقية. التنازل الاجتماعي مُخرج وأحيانًا مثير للغثيان.

---

(١) *Enid*, p.110

ومع ذلك فلو قبِلنا انتشار التمييز الطبقي عام ١٩٠٠ كما نفعل حينما نقرأ أعمال وِلز وغولزوُرثي أو بَنِتْ فإننا نستطيع أن نتعرّف على دقّة الفهم لدى بكثال في تناوله للعاطفة وإزالة الوهم وهيمنة العادات. هناك مفارقة في السلوك الذي يذهب أبعد من حدّ الفكاهة بوضوح. عندما يتجوّل عامل المزرعة، كريس هفيلاند، إلى ويمبلدن ويزور شقيقته، النبيلة، كانت نعومة الحصير شيئًا رهيبًا وغامضًا وزاهدًا بالنسبة لرجل اعتاد على سماع صدى أصوات حيثما تطأ قدماه.»[١]

لم يكن بكثال متبلّدًا في خَلْق شخصياته الروائية. تُعجبنا الطريقة التي تتصرّف بها شخصياته. هناك مهارة لديه كقاصّ تجعلنا يَقِظين، لنجد المفاجآت في النهايات. يستطيع بكثال أن يرسم بإيجاز أشكال وألوان الأماكن. مدينة إيسويتش، على سبيل المثال، توصف «بمستودعاتها غريبة الشكل، ومداخنها وأبراجها ورؤوس قباب كنائسها التي يلفّها ضباب خفيف لونه أرجواني فاتح، وهو لون أبرزه بوضوح أكثر ذلك النّهر الداكن الذي كان كالمرآة لبقايا أشعة شمس الغروب.»[٢]

اهتمامات بكثال المشرقية منضبطة. الإشارات إلى الشرق معتادةٌ كأي مؤلِّف معروف لم يسبق له الذهاب إلى شرق أو جنوب إيطاليا. في إحدى المرات، «هاجت أفكار سيدني كشغب مجموعة من الدراويش وهم يلوّحون بأسلحتهم ويصرخون: الحمد للّه.»[٣] وليلةٌ يضيئها نور القمر «مملوءةٌ جاذبيةً وعطرًا مثل كهف كنز عربي.»[٤]

حين يُظهِر بكثال مزيّة فريدة فإنها تكون في حساسيته تجاه سرعة تأثّر النساء المحترمات أو السيّدات. حينما أذلّت إنيد نفسها بالهروب، كان لديها الخيار إما الزواج أو نبذها من المجتمع لكنّ ذلك خُفّف فقط عن طريق

---

(١) Ibid., p.338
(٢) Ibid., p.121
(٣) Ibid., p.121
(٤) Ibid., p.209

الخضوع التام والشعائري، والعذاب على مدى أشهر وسنين مقارنةً بمسيرة التائبين قديمًا وهم يستبدلون لباسهم بالملابس البيضاء ويحملون شمعة في اليد ويسيرون بين الدهماء الذين يسخرون منهم علنًا وصولًا إلى نيل الغفران والملاذ المقدس. تلك الطريقة لنيل الغفران كان مجرد التفكّر فيها مخجلًا جدًا. ويبقى الزواج الرباط الذي يتوجّب عليها العبور من خلاله لإعادتها إلى مكانتها بفضل ما يعرف بالعالم.»[١]

الخنوع، العذاب، الارتباط: في كل ذلك تكون المرأة هي الضحية.

هذه الرواية هي أولى روايات بكثال الثلاث عن سَفُك. بكثال وهو ما يزال في العشرينيات من عمره كشف عن الحنين إلى الماضي الريفي البسيط: «كانت في منعطف من ذلك المسار بحوافه الخضراء وسياج من شجيرات خضراء كأيكة صغيرة تحكي زمنًا لا حدود له حينما لم يكن الفضاء مستغلًا اقتصاديًا كما هو اليوم.»[٢]

لكنّها سَفُك المُقنِعة «بسمائها الوافرة»[٣] ولهجتها. تمامًا كما تعلّمنا شيئًا عن سوريا القرن التاسع عشر من رواية سعيد السمّاك، منحتنا رواية إنيد صورة جزئية عن سَفُك الريفية بين وصول التلغراف وقدوم السيارة.

رواية برندِل (١٩٠٥) (*BRENDLE*)

رواية برندِل تقصّ حياة جون آشفورد وعائلته ومسقط رأسه على مدى عشر سنين تقريبًا من ١٨٨٤ حتى ١٨٩٤. العنوان الذي تحمله الرواية هو اسم لبلدة تقع في مقاطعة إيست آنغليا، وهي تبدو، وفق دليل داخلي، كما لو كانت بلدة وودبريدج بمقاطعة سَفُك على بُعْد اثني عشر ميلًا من بلدة بكثال الأولى، تشيلسفورد.

(١) Ibid., p.147
(٢) Ibid., p.84
(٣) Ibid., p.10

جون آشفورد أرملُ ومُنتجُ خمرٍ ناجح (كعائلة الزوجة الأولى لوالد مرمدوك) ويهيمن على خمسمئة خمّارة في المنطقة. وهو وكيل الكنيسة وعمدة البلدة، وهو ـ مع هذا ـ قيادي في سياسات الحزب الليبرالي. تسرد الرواية ما جرى لبناته الثلاث وابنيه. إحدى بناته، واسمها مَيبِل، تزوجت من عضو ليبرالي بالبرلمان؛ والأخرى، كلارا، احتفلت بزواجها من ابن كسول للقسّ المغرور. الابن الأكبر، هاموند، اختصم مع والده؛ الابن الأصغر إنسان واهن محبٌّ للفنون. جون آشفورد متسلّط عربيد، وأُجبر هاموند على العمل في معصرة الخمر دون أجر. ترك هاموند العمل وفتح متجرًا للتصميم خاصًا به وتزوّج مديرة مدرسة جميلةً اسمها جَنِي. هناك اختيار عشوائي من أشخاص بلدة برندِل يحضرون خلال فقرات الرواية ولا يتركون انطباعًا قويًا. أصدقاء أرستقراطيون لبعض أعضاء البرلمان، وشخص يهودي مترف، اسمه بريتستين، من زملاء هاموند في ايتون قليلًا ما يظهرون في الرواية.

الرواية مفكّكة. هناك شخصيات كثيرة جدًا. بعض الموضوعات الشيّقة لم تُستكمل، مثل أفكار هاموند نفسه. هاموند هو أحد أتباع حركة الفنون والحِرَف، المتأثّرة بكتابات ويليام موريس (William Morris) وجون رَسكِن (John Ruskin). جعل هاموند زوجته تقرأ «كتبًا أربكت تصوّراتها عن الصواب والخطأ.»[1]

شخصية جون آشفورد مبالغ فيها. أتى على قيد الحياة في يوم وفاته حينما قابل زوجة ابنه، جَنِي، واصطحبها للغداء في فندق بلاكفراير الذي كان يستخدمه طوال حياته. موظفو الفندق يعرفونه وقد استخدم الفندق، كما يُشار، في لقاءاته السرية أثناء ماضيه القوي.

جميع الإلماحات إلى السياسة إيحائية. ليبرالية جون آشفورد تتسم بالتبجيل الديني لغلادستون الذي يوازي إيمان المسلم. «كان يصلي باتجاه

(١) *Brendle*, p.241. Another half-sister, Ethel, studied at the London School of Art in1888

أخت غير شقيقة لبكثال، واسمها إيثل، درست بمدرسة لندن للفنون عام ١٨٨٨

هواردن.»[١] ولاءاته الشخصية للرجل العظيم تتغلب على تحفّظاته حول سياسة الحُكْم المحلي الآيرلندي. زوج ابنته، سيبريان ولز، انتخب عضوًا في البرلمان عام ١٨٨٦ لكنّه غيّر ولاءه إلى المحافظين بعد ست سنوات. جون آشفورد، وهو في السبعين، أصبح عضوًا في البرلمان آنذاك ولكن بعد فترة وجيزة تم تكريمه ليصبح اللورد برندِل.

يُظهر بكثال مهارة استماعه إلى حوار سَفُك ويعرض قدرته على رسم تفاصيل حسّية مهمّة. وهناك شواهد عرَضية من روح الفكاهة مثل وصفه للميجور باتهرست - الذي يشبه دوبن في رواية (*Vanity Fair*) للروائي ثاكري (Thackeray): «كان يفكّر كجندي، ويتحدث كجندي، ويشبه الجندي في مظهره. حتى تعلقه بستيفاني اكتسى طابعا عسكريا - كان نوعا من التدريب.»[٢]

مِثْلما في رواياته الأخرى الأولى هناك نَفَاسة في استخدامه للكلمات المُماتة. في صفحة واحدة فقط هناك كلمات مثال («leaguer») ومعناها حصار و(«marplot») بمعنى فضولي و(«moil») بمعنى يكدح واستخدام مثل هذه الكلمات لا يوضح بل يزيد اللَّبْس.

هناك موضوع مشترك في هذه الرواية، كما في الروايات الإنجليزية الأخرى، وهو الاستغراق بموضوع عدم المساوة الاجتماعية وعدم التوافق الذي ينتج عن عدم ضبط وتر التوافق الاجتماعي. الزواج غير المتكافئ على المحكّ بسبب ضغوط الرأي العام، ورواية برندِل تنتهي بانفصال هاموند وجنِي. هذه العلاقة بدأت بمعرفةٍ، من جانب جنِي بالتأكيد، بالدّونية الاجتماعية، حتى ولو «لم يكن في توجّهه ما يشير إلى أنه يعتبرها في طبقة اجتماعية أقل منه.»[٣] رأت شقيقة هاموند أن «جنِي ترتقي لمقام سيّدة، بينما ينحدر أخوها راغبًا في أن يصبح تاجرًا.»[٤] زواج جنِي وهاموند، الذي تتلقّى عائلتُه رعاية عضو البرلمان

---

(١) Ibid., p.155
(٢) Ibid., p.44
(٣) Ibid., p.61
(٤) Ibid., p.109

سيبريان وِلز، (لقد أساء وِلز بنظرته الدونية لمنتجي الخمر)[1] «ضرب الاستقرار الاجتماعي في البلدة.»[2] يسعى القسّ في المقام الأول للحفاظ على التواؤم الاجتماعي، ويهدّد بالنبذ الاجتماعي، «لو وقعتَ في شَرَكِ فتاةٍ أدنى منك طبقة، يخاطب القسُّ هاموند، يجب علينا أن ـ آه ـ أن ننبذك بالطبع.»[3]

خلفية بكثال الاجتماعية، بعلاقاتها مع منتجي الخمر، لها غموضها. حياته البديلة في الشرق كانت تحت المجهر، لكنها تغاير الحياة الإنجليزية التي اختارها بكثال. في أحد فصول الصيف ذهب هاموند آشفورد مع بعض أصدقائه النبلاء في رحلة بحرية إلى مدينة إزمير. «توارت بلدة برندِل مثل ضباب البحر الذي تُرِكَ وراءنا... هذه الشواطئ البحرية، المتميّزة في كل صدْع، بين البحر ذي الزُّرْقة الخفيفة والسماء الجوهرة، أظهر حقيقةً تسمو كثيرًا عن حقيقة شفق في شهر مارس يحتضن مستنقعًا في الشَّمال.»[4] وفي طريق عودته إلى إنجلترا يُفسح الواقع الطريق للجمال.

قادمًا من أرض ذات ضباب خفيف، اكتشف في فضاء بلدته جاذبيةً غامضةً متوقّدةً. هذه الجاذبية طغت على النور الذي كان ينتشر في كل مكان، وبدّدته، بيد أنه لم يكن في أي مكان، كمثل لمعان جوهرة لبَنية. شاهدَ حقول وبساتين مقاطعة كِنْت يغشاها الشفق الرائع الممتلئ باللون الأرجواني والكهرماني والزهري. كان القطار يرتجّ في سيره عَبْر كَيثم، حيث كان الدخان يقذف جدائل كشبح أزرق من المداخن المظلّلة. زمجر القطار على الجسر؛ وعندما شاهد الحِصْن المربّع لمدينة روشستر يحرس سلسة التلال الرمادية، كان النهر في انحنائه قد استحال لونه كلون الدم بفعل شمس الغروب. كيف كان الضوء الشديد للجزر اليونانية مقارنةً بهذا الشفق الساحر لهذا اللّهيب الغامض؟»[5]

---

(١) Ibid., p.4
(٢) Ibid., p.237
(٣) bid., p.236
(٤) Ibid., p.186
(٥) Ibid., p.192

هذا يكشف لنا الكثير. رغمًا عن بكثال نفسه، فإنه هو لم يكن متأقلمًا مع حياة نبيل ريفي هادئ في إنجلترا. اللغة المجازية المرتبطة بالشرق هي أكثر حقيقةً من تلك التجريدية عن إنجلترا حيث يكون الضوء في كل مكان ولا مكان مع الشفق الساحر للّهيب الغامض، بكل ما يمكن أن يعنيه ذلك. إنجلترا هي ملاذ للعاطفية المبهمة.

رواية برندِل ذات أهمية محدودة بحد ذاتها. إنها مثال للتأليف الرديء وينقصها بعض فطنة روايته الأولى عن سَفُك، إنيد، أو دفء روايته الأخيرة، لاركميدو.

رواية قصيرو النظر (١٩٠٧) (*THE MYOPES*)

لم يكن العنوان موفّقًا. إن أحدًا لا يستطيع معرفة كيف ينطق العنوان، والعنوان لا يشير بحال إلى محتوى الرواية. يبدو أن العنوان تعليقٌ على الحاجة إلى بعد نظر في العلاقات الإنسانية وتجنّب الانشغال بالقريبين. لكنّ هذا ليس واضحًا.

جيرترود وثيودور طفلان قام على تنشئتهما كاهن نورفولك الزاهد الأعزب. جيرترود ابنة يتيمة لأخته، وثيودور ابن لامرأة أحبّها الكاهن وهي التي «فضّلت في تلك الساعة التي لا يمكن العودة إليها خليلًا ألطف، وقد دفعت الثمن لنقص خبرتها بؤسًا وهجرانًا وموتًا مبكّرًا.»[(١)] عاش الطفلان سويًا، ثم انتقلا بعيدًا عن نورفك، وبالرغم من علاقتهما الحميمة بخلفيتهما المشتركة أكثر من أخ وأخت، إلا أنه ليس لديهما فكرة حول ارتباطهما معًا بالزواج. كلاهما بدأ زواجًا مشحونًا وبائسًا في نهاية الأمر. انفصلت جيرترود عن زوجها، وكانت زوجة ثيودور تغار بشدّة منها. أدّت الغيرة إلى ارتماء ثيودور جيرترود في حضن الآخر، وهربا من فندق سويسري كان يعجّ بالإنجليز. بعد «شهر عسل» قصير أفاقت جيرترود على استحالة استمرار العلاقة بصفة دائمة وانفصلا ولم يلتقيا

(١) *The Myopes*, p.2

مرةً أخرى. بقيت جيرترود سرًّا مع معجب بها اسمه موريس، وهو محامٍ ذكي وساخر. رجع ثيودور إلى زوجته وذهب معها ليصبح «نائب قنصل في ميناء ناء ومهجور تقريبًا في حدود سوريا وآسيا الصغرى.»[١] لم يسعد أي منهما في حياته بعد ذلك.

هناك ملامح من شخص بكثال نفسه في شخصية ثيودور. كلاهما نشأ في كنف كاهن أنغليكاني. ذهب ثيودور في شبابه في مهمة إلى البلقان. تجوّل في المشرق وعند وصوله إلى إنجلترا شعر أنه غريب عن المكان، وأن هناك فجوةً من الاختلافات بين عالم الشرق الأدنى والعالم الأوربي، «السعادة، الحب، كل الرغبات الإنسانية كانت موضوعيةً دائمًا؛ أما هنا فهي ذاتية. والهوّة التي وُجدت لم تزدد اتّساعًا دائمًا كهذه المرة. قلعة تشيلُن» ـ كما يتفكّر ثيودور في سويسرا ـ «كانت هناك في الأسفل، في البحيرة، على عمق يصل إلى الركبة، وقفت كما تقف الماشية، مجاورةً لحياة من الزمن الماضي قدِم منها ثيودور. بدَت جزءًا من المنظر الطبيعي؛ بينما تصطفّ الفنادق والفلل الحديثة، وهي تبتسم بتكلّف وتتصنّع، مقذوفة على الأرض كأنها عسيرة على الهضم.»[٢] الحياة في أوربا في مرحلة الانحسار. رواية **قصيرو النظر** كُتبت بعد عشر سنوات مضت منذ وصول بكثال للمشرق، وهي عبارة عن مقطوعات من التشوّق. عندما عاد ثيودور إلى المشرق «دخل في عقد جديد مع الحياة وشاهد المرح في كل مكان.»[٣] جميع هذا له ما يوازيه في تجربة بكثال. نُشرت رواية **قصيرو النظر** بُعيد عودة بكثال إلى مصر حيث بدأ عقدًا جديدًا من الحياة وشاهد المرح في كل مكان. يبسط ثيودور الكلام فقط، مثل بكثال، تجاه التقاليد لكنّه ليس جزءًا من الالتفاف الاجتماعي لحياة الطبقة الوسطى في إنجلترا.

رواية **قصيرو النظر** أيضًا تدوّن بوضوح وجهة نظرٍ عقيمة عن الزواج تبنّاها بكثال فيما بعد في وجهة نظره الإسلامية عن الزواج، التي عبّر عنها شخصيّاته

---

(١) Ibid., p.291

(٢) Ibid., p.24

(٣) Ibid., p.282

في رواياته الشرقية الأخيرة (نسوة محجبات، فرسان من جزيرة العرب، ورواية الضّحى) وفي كتاباته الإسلامية. يرى أن الحميميّة في الزواج وهمٌ. حينما تحرّرت جيرترود من الوهم في زواجها، أرشدت ثيودور قبل أن يرشدها. قالت: «بقبولك شخصًا ما في أقدس المقدسات لديك، تحمل قلبك، وتكون عُرْضةً للأذى في المنازعات، وإلا كانت تافهةً. ولهذا فإنّي أقول احتفظ بماضيك لنفسك، واحترم ماضيها كاحترامك للسرّ. لا أعتقد أبدًا أن هناك شخصين، نشآ كغربيين، سيكونان أفضل أو أسعد لو عرف كل واحد منهما تفاصيل حياة الآخر.»(١)

في رواية قصيرو النظر صوت قلقٍ خفي. الحياة الاجتماعية التي يصوّرها بكثال في رواياته الإنجليزية الأولى على خلاف حياة المشرق. هذه الحياة الإنجليزية سخيفة حين تُنقل إلى فندق سويسري. لكنّ بكثال وضع إطارًا لموقف طريف ولا يبتعد بسهولة عنه إلى سردٍ فكاهي مستدام.

في الرواية روح دعابة، وليس فيها ملهاة. لدينا أمثلة من إصغاء بكثال للّهجة، والعبارات التي يلتقطها ونبرة الخطاب. «كيف حالك أنت، يا سيدة موور؟»(٢) (والنبرة هنا على ضمير المخاطب)، وهذه التحية من وايتلي، زميل ثيودور في عمله ببلدية المدينة، وهو شخص متعجرف، مبتذل، وإن يكن لامعا ومحببا اجتماعيا. يصوّر بكثال موقف الطبقة العليا تجاه النساء حينما يرصد بكثال موقف الطبقة العليا تجاه النساء عندما يتعيّن على جاك، المَلاك التافه اعتبار النساء نوعين، «الرّذيلة المعطرة والعفيفة المبتهجة... وبينهما يتأرجح الذكور، لكنّ الأنثى لا تفعل ذلك أبدًا.»(٣)

رواية قصيرو النظر هي آخر رواية يصف فيها بكثال بالتفصيل العالَم الاجتماعي التقليدي الذي يمثّل خلفية بكثال نفسه. روايته التالية لاركميدو، (*Larkmeadow*)، عبارة عن سيرة ذاتية جزئية تسرد أحداثًا عاشها في قريةٍ ضمن مقاطعة سَفُك؛ أما روايته الأخيرة، السيد ليمبيدوس (*Sir Limpidus*)، فتعتبر

(١) Ibid., p.148
(٢) Ibid., p.47
(٣) Ibid., p.195

محاكاةً ساخرةً مسلّية للرواية الاجتماعية برمّتها. في رواية مايوبز، يحنّ بكثال إلى المشرق. هناك بعض أسطر تصف ميناءً في سوريا حيث أصبح ثيودور نائبًا للقنصل - هل هو ميناء اسكندرون؟ - ونجد التباين بين إنجلترا من جهة وبين الرمال التي تنتشر في سماء البلدة، «ومنظر هياكل عظمية كثيرة لحيوانات نافقة، وأحيانًا جيفة طريّة تنكبّ عليها كلابٌ تنهشها»[1]، من جهة أخرى. إنه حلُمٌ وليس كابوسًا. إنه العالَم الذي يجد بكثال بيته فيه، ومِثْل هذه التفاصيل الواقعية تتوارى عن رواياته الإنجليزية.

رواية لاركميدو (١٩١٢) (*LARKMEADOW*)

رواية لاركميدو، المنشورة في شهر أغسطس عام ١٩١٢ عن طريق الناشر (Chatto and Windows)، وهو ناشر لم ينشر بكثال عن طريقه من قبل - ولم يكن لينشر عن طريقه مرةً أخرى - هي قصّةٌ من ريف سَفُك. اعتمدت الرواية على ذكريات إقامة بكثال في هولتون شمال شرق سَفُك في مستهلّ القرن (العشرين). أهل سَفُك مثل شعب الشرق الأدنى في رواياته. نجد هنا شيئًا متينًا، أساسيًا وأصيلًا عنهم. الدُّخلاء يستغلّون ويُخطِئون.

العنيد الدّخيل في رواية لاركميدو هو السيد هرَّبي فاسَيْ، وهو محام متقاعد، ناجحٌ وواثق، ولديه روابط أُسرية بعيدة في قرية لاركميدو التي أوىَ إليها. يُعامِل الفقراء الريفيين بتفضّل ويتوقّع منهم العرفان بالجميل والاحترام مقابل ذلك. «حتى الآن، عرَف من الطراز العتيق، إن صحَّ القول، فقط في الأسْر - خيولًا تجرّ العربات، مدرّبةً جيّدًا وتُقادُ له.»[2] فلّاحو سَفُك لهم قِيَمُهم، ونظامهم الخاص بالتكريم وتكوين عملائهم. يتولّى فاسَي رئاسة مجلس الأبرشية ويطمح إلى نفوذ في البلدة، وفي الحقيقة، تم ترشيحه كعضو ليبرالي في البرلمان . في قرية لاركميدو يرغب في وضع شبك على أرض فضاء يعتقد أنها ملْكٌ له. وهذا أدّى إلى وقوع مشكلات. من ناحية قانونية، الأرض ملكٌ

(١) Ibid., p.291
(٢) *Larkmeadow*, p.24

له لكنّ العادات قوية وجرت العادة أن يلعب فيها الأطفال، ويعتقد القرويّون أن لهم الحق في طريق عبر تلك الأرض. عندما تم تحدّي هذه العادات، أصبح فاسَيْ غير مرغوب فيه في القرية. يُنظر إليه على أنه «لندنيٌّ ضعيف»[1] ولهذا لا يستطيع فعل شيء صحيح. تتابع الرواية أحداث الصراع، بجانب موضوعات جانبية بخصوص مواقف أعضاء من أسرته وأصدقائه المقرّبين. لدينا فريق متنوّع من الشخصيات القروية، الذين اتخذوا مواقف من حقوق فاسَيْ، وهناك ابن عم فاسَيْ وهو فلّاح حكيم قام فاسَيْ برعايته بطريقة سخيفة وغير نافعة.

ينال فلّاحو سَفُك عطف بكثال. «الفلّاحُ» كما كتب بكثال عام ١٩٢٧ حينما كان في الهند، «لديه دائمًا الذّوق العام؛ ليس في ذلك مظاهر باطلة، ولا معايير كاذبة.»[2] وفيما يتعلق بأهل لاركميدو يُظهر بكثال مهارته في ملاحظة لغة شمال شرق سَفُك، والعبارات المميّزة، وكلمات اللّهجة والنطق الواضح لها. منطق سَفُك يختلف عن منطق فاسَيْ المستورد. أو كما عبّر أحد الشخصيات عن ذلك بقوله: «إنه لا يستطيع أن يفكّر بطريقة سليمة مثلنا.»[3] يتم الاحتفاء بالعادات القديمة. يعتقد القرويون أنّ مسيرة الجنازة على أرض متنازع عليها يجعلها أرضًا مشاعًا. «هناك القليل من الموروث الشعبي من القرون الوسطى ضلّ طريقه إلى القرن العشرين،»[4] كما عبّر عن ذلك صحفي زائر.

هناك شخص لطيفٌ قيادي في المنطقة، وهو شرطيٌّ متقاعد من لندن، تحدر أصلًا من سَفُك واسمه المحلي كاتشبول. هذا الشخص سياسيٌّ بلديّ متحمّس ويريد أن يُمنح مجلس الأبرشية سلطةً أكبر وحكمًا ذاتيًا. «لماذا يكون للمجلس البلدي كامل السلطة، وليس للأبرشية شيء؟ ولماذا يحق لكل شخص التصويت للبرلمان، وليس لديه التحكّم في ما يعرفه أو ما يهمّه؟»[5] آراء كاتشبول هي آراء بكثال نفسه الذي كتب بعد ثلاث سنين أنّه ظهر له «أن أكثر أنواع الغش

(١) Ibid., p.109

(٢) *The Cultural Side of Islam*, p.144

(٣) *Larkmeadow*, p.325

(٤) Ibid., p.288

(٥) Ibid., p.93

دناءةً أن تُعطي الرجل حق التصويت للبرلمان أو المجلس البلدي وتعتبره مواطنًا حرًّا، بينما تحرمه من كامل التحكم بالشؤون العائلية التي يعرفها وتهمّه»[1]

كما توثّق روايات بكثال الشرقية غزو الأوربيين لعالم الأشرار الأتقياء المتّزن، وإن كان قلقًا، الذين يتغيّرون تبعًا لأعرافهم الدينية والأخلاقية، فإن سَفُك الريفية تتعرّض لغزو من المدنيّة. هذا الغزو تمثلّ في شخص هرَّبي فاسَيْ، لكنّ هناك مظاهر أخرى للغزو. كان بكثال نفسه مُدركًا لجذْب المُدُن، والاضمحلال التدريجي للحِرف الريفية والاكتفاء الذاتي للقرية. لدى بكثال عالمه المثالي في الاعتمادية المتبادلة بين الطبقة العليا والمزارعين والريفيين: وهذا النموذج المثاليّ منسوب إلى دزرائيلي في «إنجلترا الشابّة.» حينما تعرّض هَرَّبي فاسَيْ إلى الصوفية في إحدى المناسبات تأسف لمجيئه أصلًا إلى سَفُك، و«شعر بالحنين في تلك اللحظة إلى العودة إلى ويمبلدون، بين معارفه القدماء، من المثقفين والأثرياء البعيدين بدرجة متساوية عن الإقطاعيين والمزارعين.»[2]

جزء من الغزو يتكوّن من سياسة الحزب المنظّمة. اشتكت زوجة أحد الريفيين من رفض زوجها للانضمام لمجلس الأبرشية: «إنه لا يلتزم بالسياسة. هو يحاول أن يُبقي نفسه محترمًا.»[3] هذا السياسي الصارم في الحزب عميلٌ سياسي ليبرالي وهو نتاجٌ آخر لـ دِزرائيلي. إنه «رجلٌ ذو مكانة مرموقة مشبوهة، طلق اللسان، جهوري الصوت، واثقٌ، ولديه كل الأشياء المسموحة والتي ليست غير قانونية.»[4] تجلب السياسة صحافة لندن التي تبالغ وتعبّر عن آرائها بالكاريكاتير الساخر، ولأجل غاياتها الحضريّة تقوم بتشويه الصراع في لاركميدو.

رواية لاركميدو هي حكاية الحنين المشوب بالخُلُق الاجتماعي. بكثال في غاية التحكّم بمادّة الرواية، وهنا انضباطٌ أكثر من أي من رواياته الإنجليزية الأخرى. إنها ليست قصّةً مبتورةً. يستخدم بكثال الرواية منبرًا لعرض أفكاره. يقوم

---

(١) *NA*, June 1915, XVII, p.103

(٢) *Larkmeadow*, p.62

(٣) Ibid., p.7

(٤) Ibid., p.149

بكثال بتدوين التغيير الانتقالي الذي لا يستحسنه. بكثال، ككاتب، وصحفي وشخصية عالمية، وكشخصٍ أتى بقيَمِه المدنيّة إلى قريةٍ نائيةٍ، كان جزءًا من عملية تقويض الاكتفاء الذاتي للقرويّين الهانئين غير المتعلّمين. لكن كما قال بكثال في مكان آخر عن الطريقة التقليدية للحياة في قرية أخرى من قرى مقاطعة سَفُك، «مدير المدرسة في الخارج؛ وكل مظاهر هذه الحياة مآلها الاندثار.»(١)

رواية السيد ليمبيدوس (١٩١٩) (*SIR LIMPIDUS*)

رواية السيد ليمبيدوس رواية غريبة. إنها تحكي قصة السيرة المهنية لسياسيٍّ أرستقراطي ليبرالي تقليدي وناجح. هذه الرواية سهلة القراءة بدرجة كبيرة، وليس بها العبث والمرح الموجود في روايات بكثال الإنجليزية السابقة. هنا لمسة دِزرائيلي في السياسة، ولمسة ترولوب(*) في المشهد الاجتماعي.

ولد السير ليمبيدوس فيتزبَيْر في ستينيات القرن التاسع عشر، ونحن نتتبع مسيرة حياته حتى اندلاع الحرب عام ١٩١٤. حياته المهنية في بعض جوانبها تعتبر مثالًا للأبويّة الأرستقراطية كما تبدو نقدًا لطيفًا للسياسة والمجتمع البريطاني. عائلة فيتزبَيْر لديها العديد من العقارات، والد ليمبيدوس ليبرالي مخلص وفخور ببلده واسم عائلته وممتلكاته (التي تبلغ عائداتها سبعين ألف جنيهًا سنويًا). إضافةً إلى ذلك فهو لطيف مع المستأجرين عنده، وهم يقابلون لطفه بالاحترام. يطلق العنان لهم في الشراب واحتفالات صاخبة في مناسبات مثل بلوغ ابنه ووريثه، وحتى «أحيا لعبة التكشير الإنجليزية القديمة.»(٢) كانت نظرته السياسية بسيطة: «إنني أثبت على موقفي مهما حدث،» أسرّ بذلك إلى

---

(١) *Athenaeum*, 2 July 1910, no 4314, p.8. This appears in a review of a history of Theberton, the Suffolk home of Charles Montagu Doughty. The history is by Doughty's brother, Henry

مجلة أثنيوم عدد ٢ يوليه ١٩١٠، رقم ٤٣١٤، ص٨. ويظهر هذا في مراجعة لتاريخ ثبرتون، وهي مقر سكنى تشارلز دوتي بمنطقة سَفُك. هذا التاريخ كتبه هنري أخو دوتي.

(*) Trollope روائي بريطاني شهير عاش في القرن التاسع عشر ١٨١٥ ـ ١٨٨٢.

(٢) *Sir Limpidus*, p.80

ابنه الذي أجابه، «وأنا أنظر إلى الأمر هكذا: إذا كان المتمدّنون قادمين (الحقوق السياسية الجديدة تثبت هذا)، فمن الأفضل لنا أن نقابلهم في منتصف الطريق بروح وديّة على أن نعارضهم.»[1] تجاه مقوّمات منظور ابنه، قدّم الأب فلسفته السياسية بطريقة مختلفة. «نحن جميعًا قد تعايشنا سويًا، بلطف وبساطة لقرون من الزمن؛ ولن نتعارك فقط من أجل أنّ متمدّنًا مختلفًا عنّا تصادف مجيئه إلينا ويخبرننا حكاياتٍ ملفّقة.»[2]

استوعب ليمبيدوس إرثًا سياسيًّا كهذا مع التقاليد الأرستقراطية. نظرته إلى الفضيلة أنها «أيّ شيء يفعله الشخص بين مجموعة مناسبة من الناس فهو صحيح؛ وبالمقابل، فإن ما يفعله المرء بين مجموعة خطأ من الناس فهو خطأ... {و} «ما يمكن فعله بدون آثار غير مرغوب فيها فإنه جيّد.»[3] على وجه التحديد هناك عبادة الرجولة. أرسله والده إلى مدرسة عمومية وتبدو مدرسة بكثال نفسه، مدرسة هارو. قبل أن يدخل ليمبيدوس المدرسة، قدّم له والده نصيحةً كنصيحة بولونيوس.[*] الحياة المدرسية ستكون قاسيةً في البداية، لكنّها تصقل شخصية الشاب.

«المرء الذي لم يمرّ بتجربة المدرسة يعتبر معاقًا في الحياة؛ وخاصةً الذي تربّى في كنف النساء اللاتي يعطين أهميةً مبالغًا فيها للدِّين، وجميع أنواع التقليعات. ستجدُ ما يفعله الناس من نفس صنفك، وتتعلّم فعل ذلك بطريقة طبيعية. سوف تتعلّم أن تضع الدين، الفن، التعلّم، والأدب، وكل ما شابه ذلك في مكانها الصحيح، وأن لا تعطيها اهتمامًا زائدًا. وفي نفس الوقت ستتعلّمّ أن تتسامح مع أشياء كثيرة تستنكرها جملةً وتفصيلًا والدتُك وعماتُك وخالاتُك، والنساءُ بصفة عامة.»[4]

---

(١) Ibid., p.94

(٢) Ibid., pp.144-5

(٣) Ibid., pp.38-9

(*) Polonius مستشار الملك في مسرحية هاملت للكاتب المسرحي شكسبير.

(٤) Ibid., p.17

النساء لتسلية ومواساة الرجال لكنّ هناك جبهات اجتماعية وجنسية واضحة. هناك الكثير من الفتيات لتسلية العاطلين والأغنياء. يمكن أن يُصطحبن وأن ينحّين جانبًا. يجب على الأرستقراطي أن يجتنب المغامرة بنفسه وأن يُلدغ بسبب نكثٍ للوعد. لكن من أجل الزواج هناك عرائس جديرات، والزواج منهنّ مثل المعاهدة بين الأُسر. بالنسبة لروايات بكثال عن الزواج في الطبقة العليا بين الأتراك والمصريين، فإن الحب، والمودّة، والرُّفقة لا تؤخذ في الحسبان. ذلك ببساطة لأن الزواج يهدف إلى الحفاظ على الأملاك واسم العائلة، عائلته هو. هناك بين المحظيّة والعروس طبقة خطيرة للسيدة الشابّة، جذّابة وحسنة التربية لكنّها ليست مناسبة للإغراء والخِطْبة. مثل هذه ابنة القسّيس التي غازلها الشاب ليمبيدوس إلى أن زجره والده المحترم.

تمسّكُ ليمبيدوس بالتقاليدِ رائعٌ، رائعٌ لدرجة أنه أصبح رجلًا مختلفًا عن الآخرين. اكتسب بسرعة اللغة الدارجة وقِيم مدرسته، وجامعة كامبريدج والبرلمان. ألقى خطابًا تقليديًا أوليًا باهرًا، وحينما أصبح وزيرًا حدث السنّ كان المسؤولون الدائمون متحمّسين في الثناء على اضطلاعه بالمعرفة اللامحدودة نيابةً عنهم، وعلى رفضه اللطيف للإقرار بأقل معلومة، وعلى الطابع المتشدّد والتوبيخي الذي يقمع به المتسائلين. كان يعرف القليل جدًا عن عمل القسم، لكنّ ذلك لا يهم. ما تريده الحكومة هو رجل يستطيع حمايتها من التساؤلات الدقيقة جدًا.[1]

كان ليمبيدوس يسافر في شبابه، وهنا نرى بكثال بمزاجه المألوف أكثر، حينما يراقب الإنجليزي في الخارج. سافر ليمبيدوس بصحبة صديقٍ لوالده، واسمه السير بارنيت ڤيل، وهو مهووس بتسلّق الجبال. سافرا عن طريق القطار عبْر نورماندي إلى باريس. غفا السير بارنيت وهو يقرأ صحيفة. أقدم ليمبيدوس على التعليق:

«بلَدٌ جيّد للصيد.»

(١) Ibid., p.191

نظر السير بارنيت إلى طرف صحيفة التايمز وضحك:

«ستراهم يصيدون بالتأكيد. وهذا سيجعلك تضحك. مثل رقصة المينويت الفرنسية.

«أليسوا محافظين عليها إطلاقًا؟ لا أستطيع رؤية الأيك.»

«فقط قليل من ملّاك الأراضي هنا وهناك.»

ليمبيدوس قطّب جبينه وطقطق بلسانه بشكل يائس.

«انتظر حتى ترى جِبالي،» قال السير بارنيت.[١]

تجوّل الشاب في الأرض التي يعرفها بكثال جيدًا، لكنّنا لا نقابل أيًا من المصريين أو السوريين أو الفلسطينيين أو الأتراك. مصر هي المكان الذي كان يصيد فيه طيور البط والسمّان البرية، وفلسطين حيث رمى «خنزيرًا بريًّا في وادي الأردن؛ بعد ذلك كانت تلك الرياضة أفضل في آسيا الصغرى.»[٢]

نجد أنفسنا في أرض معروفة بالضبط حين سافر ليمبيدوس في روسيا وأصبح معجبًا بروسيا. بكثال، كاره روسيا بحماس، يتعامل برفق تجاه تعاطف ليمبيدوس مع روسيا في موقفها ضد الإمبراطورية العثمانية. نظْرة ليمبيدوس تتوافق مع ولاء ليبرالي عاطفي. أميرٌ روسي لطيف مضياف أقنع ليمبيدوس أن دِزرائيلي هو الذي جعل بريطانيا ضد روسيا. «ليس ثمة شكٌ في أنه كان مسرورًا في جعل دولتين مسيحيتين في خلافٍ لفائدة المسلمين. اليهودي والمسلم هما عمليًّا نفس الشيء.»[٣] لكنّ الروسي قال، «أنا لا أكره التركي. لديه أخلاق الشخص النبيل. لكنّه شخص لا يمكن معاشرته، لأنه لا يشرب.»[٤] مضيفه سكب له مزيدًا من الويسكي، ووافقه ليمبيدوس، مضيفًا بطريقة مهيبة: '«أنتَ وأنا أفضل. نحن ـ وهو يعطس ـ مسيحيان.»'[٥]

(١) Ibid., p.110
(٢) Ibid., p.123
(٣) Ibid., p.127
(٤) Ibid., pp.127-8
(٥) Ibid., p.128

رواية السير ليمبيدوس رواية انتصار للخيال على العاطفة. نعرف أنّ في السنوات التي سبقت نشر روايته هذه، شاهَدَ بكثال أن السياسة الموالية للروس هي وهْمٌ جرّ أوربا إلى الحرب. لكن بدون علمنا عن هذه الحقيقة فإننا نستطيع أن نتقبّل وجهة النظر الثاقبة المخْلِصة للسير ليمبيدوس تجاه السياسة الشرقية. شخصية ليمبيدوس إبداعٌ جديرٌ بالثقة. لكن حينما نعرف عن دفاع بكثال عن الأتراك، وعن اعتناقه الإسلام وعن شعوره الشخصي بالمرارة والغضب تجاه سياسة بريطانيا الخارجية، فإن رواية السير ليمبيدوس تتحوّل إلى أكثر الكوميديات السوداء سوادًا. الصفات التي يُظهرها ليمبيدوس تمثّل أسوأ ما في إنجلترا: تطابق القِيَم الجماعية للمدارس العمومية والالتزام بخط الحزب. هذا أدى إلى التراجع الأخلاقي في البلد. قبل ستة أشهر من نشر رواية السير ليمبيدوس، كتب بكثال أن الديمقراطية ليست سبب هذا التراجع الأخلاقي. «اللوم يقع على مخرجات مدارسنا العامة ونظام الحزب ـ رجال فسدت ضمائرهم لدرجة أنهم صاروا يعتبرون طبيعيًا في الشأن العام أفعالا مشينة تصيب حتى البحّار بالغثيان.»[1] آراء بكثال الاجتماعية مصبوغة بنفس الأعراف. غير أن بكثال، بعد سنة من نشر الرواية، أدار ظهره لإنجلترا رافضًا نظامها الاجتماعي والأخلاقي وسياستها من أجل أن يصبح ـ وهو رجل إنجليزي ـ أقرب ما يكون إلى الهنود المسلمين.

(١) *NA*, 12 June 1919, XXV, p.112

ببليوغرافيا أعمال مرمدوك بكثال

فيما يلي ببليوغرافيا تمهيدية لأعمال بكثال مرتبة حسب التسلسل الزمني. رصدت بعض الكتب والكتيبات والمقالات والمراجعات والرسائل التي كتبها بكثال في إنجلترا، وبكثال كتب لطائفة واسعة جدا من المجلات والحوليات، وأنا على ثقة بأنه قد فاتني الكثير. أدرك على نحو مشابه عدم اكتمال سجل منشوراته في الهند - المقالات التي كتبها بكثال لصحيفة بومباي كرونيكل ومنشوراته المتفرقة في أماكن أخرى. لذلك عنونت هذا القسم «ببليوغرافيا»، بدون «ال» التعريف، على أمل أن يتابع شخص آخر العمل من حيث تركته ليقدم «الببليوغرافيا» الكاملة لأعمال بكثال.

1898

1. January. (E. Greck) - 'Monsieur le President', *Temple Bar*, CXIII, pp.55-63; reprinted in *Pot au Feu* (1911), pp.215-30

2. July. (E. Greck) - 'The Word of an Englishman', *Temple Bar*, CXIII, pp.365-74; reprinted in *Littell's Living Age*, August, CCXVIII, pp.396-402, reprinted in *Tales from Five Chimneys* (1915), pp.1-16

1899

1. January. 'A Question of Precedence', *Temple Bar*, CXIV, pp.76-81; reprinted in *Pot au Feu* (1911), pp.263-70

1900

March. *All Fools*, Swan and Sonnenschein, London

1903

1. July. *Saïd the Fisherman*, Methuen and Co., London; McClure *Phillipps*, New York; republished by A.A. Knopf, New York, 1923; Blue Jade Library, New York, 1925; republished with an introduction and additional notes by Peter Clark, Quartet Books, London, 1986

1904

1. June. *Enid*, Archibald Constable and Company, Westminster

1905

1. September. *Brendle*, Methuen and Co., London; republished by W. Collins, London, 1909

2. December. 'Mauvaises Herbes de l'Ame', *Temple Bar*, CXXXII, pp.549-70

1906

1. September. *The House of Islam*, Methuen and Co., London; D. Appleton and Co., New York

1907

1. Introduction to J.E. Hanauer - *Folklore of the Holy Land: Moslem, Christian, and Jewish*, Duckworth, London, pp.xi-xix

2. November. *The Myopes*, John Murray, London

1908

1. August. 'Found in an Old Bureau', Blackwood's Magazine, CLXXXIV, pp.258-66; reprinted in *Pot au Feu* (1911), pp.146-60

2. September. *The Children of the Nile*, John Murray, London; republished by Thomas Nelson, Edinburgh and London, 1917

1909

1. 28 August. Unsigned review of *The White Prophet* by Hall Caine, *Athenaeum*, no.4270, p.232

2. 11 September. Unsigned review of The Punishment by Thomas McKean, Athe- naeum, no. 4272, p.293

3. 2 October. Unsigned review of *In Ambush* by Marie von Horst, *Athenaeum*, no. 4275, p.389

4. 16 October. Unsigned review of *Things Seen in Egypt* by E.L. Butcher, *Athenaeum*, no. 4277, p.460

5. November. *The Valley of the Kings*, John Murray, London; republished by A.A. Knopf, New York, 1913; and by J.M. Dent, London, 1914

6. 6 November. Unsigned review of *The Tenants of Pixy Farm* by Maude Goldring, *Athenaeum*, no. 4280, p.554

7. 6 November. Unsigned review of *The Desert Dreamers* by Kathlyn Rhodes, *Athenaeum*, no. 4280, p.554

8. 4 December. Unsigned review of *Going Down to Jerusalem* by Norman Duncan, *Athenaeum*, no. 4284, p.694

1910

1. April. 'Karàkter', *Cornhill Magazine*, XXVIII, pp.525-34; reprinted in *Littell's Living Age*, 7 May, CCLXV, pp.362-9, reprinted in *Pot au Feu* (1911), pp.289-304

2. 21 May. Unsigned review of *Modern Arabic Stories, Ballads, Proverbs and Idioms* collected by A.O. Green, *Athenaeum*, no. 4308, p.605

3. 30 June. 'The Situation in Egypt, a Reply to Duse Mohamed', *NA*, VII, p196

4. 2 July. Unsigned review of *Chronicles of Theberton* by Henry Montagu Doughty, *Athenaeum*, no. 4314, p.8

5. 23 July. Unsigned review of *Diana of Dreams* by G.B. Burgin, *Athenaeum*, no. 4317, p.93

6. 10 September. Unsigned review of *Allah the Avenger* by F. Cowley Whitehouse, *Athenaeum*, no. 4324, p.290

7. 10 September. Unsigned review of *Did Cupid Count?* by M. Knight, *Athenaeum*, no. 4324, p.290

8. 17 September. Unsigned review of *The Holy Bible*, *Athenaeum*, no. 4324, p.332

9. 8 October. Unsigned review of *The Incubus* by Helen Hester Colvill, *Athenaeum*, no. 4328, p.416

10. 8 October. Unsigned review of *Separate Stars* by Violet Pearn, *Athenaeum*, no. 4328, p.416

11. 29 October. Unsigned review of *Seed of Fire*, by Rachel Swete Macnamara, *Athenaeum*, no. 4331, p.518

12. 3 December. Unsigned review of *The Holy Land* by Robert Hichens, *Athenaeum*, no. 4336, p.694 13.

13. 3 December. Unsigned review of *The Gates: A Study in Prose, Athenaeum*, no. 4336, p.701

14. 17 December. Unsigned review of *The Parables*, illustrated by Eugene Burnard, *Athenaeum*, no. 4338, p.740

1911

1. February. 'Tale of a Camp', *Cornhill Magazine*, XXX, pp.213-22; reprinted in *Pot au Feu*, pp.336-51

2. February. *Pot au Feu*, John Murray, London

3. 11 February. Unsigned review of *Macmillan's Guide to Palestine and Syria, Athenaeum*, no. 4346, p.157

4. 11 February. Unsigned review of *The Church of Nativity at Bethlehem* by W. Harvey, W.R. Lethaby and others, *Athenaeum*, no. 4346, p.168

5. 11 March. Unsigned review of *The Unseen Barrier*, by Morice Gerard, *Athenaeum*, no. 4350, p.273

6. 11 March. Unsigned review of *The Downsman* by Maude Goidring, *Athenaeum*, no. 4350, p.273

7. 6 May. Unsigned review of *Sinai in Spring* by M.J. Rendall, *Athenaeum*, no. 4358, pp.506-7

8. 27 May. Unsigned review of *The General Plan* by Edmund Candler, *Athenaeum*, no. 4361, p.600

9. 10 June. Unsigned review of *A Bird in the Hand* by Rosalind Devis-Browne, *Athenaeum*, no. 4364, p.656

10. 12 August. Unsigned review of *Mrs Drummond's Vocation* by Mark Ryce, *Athenaeum*, no. 4372, p.181

11. 9 September. Unsigned review of *The Earthen Drum* by E.S. Stevens, *Athenaeum*, no. 4376, p.296

12. 4 November. Unsigned review of *The Verge of Twilight* by E.O. Carolin, *Athenaeum*, no. 4384, pp.552-3

13. 18 November. Unsigned review of *Studies in Galilee* by Ernest W. Gurney, *Athenaeum*, no. 4386, p.624

14. 23 December. Unsigned review of *A Journalist in the Holy Land* by Arthur E. Copping, *Athenaeum*, no. 4391, p.792

15. 23 December. Unsigned review of *Palestine* by G.E. Franklin, *Athenaeum*, no. 4391, p.792

1912

1. August. *Larkmeadow*, Chatto and Windus, London

2. November. 'His Honour's Pleasure', *Cornhill Magazine*, XXXIII, pp.672-83; re- printed in *Littell's Living Age*, 28 December, CCLXXV, pp.800-8; reprinted in *Tales from Five Chimneys* (1915), pp.120-37

3. November. Unsigned review of *Scenes in the Life of Nazareth* by William Hole, *Athenaeum*, no. 4436, p.529

4. 7 November. 'The Black Crusade', Part 1, *NA*, XII, p.8

5. 14 November. 'The Black Crusade', Part 2, *NA*, XII, pp.31-2

6. 21 November. 'The Black Crusade', Part 3, *NA*, XII, p.58

7. 28 November. 'The Black Crusade', Part 4, 'The Victims', *NA*, XII, p.79

8. 28 November. 'The Black Crusade', (letter), *NA*, XII, p.93

9. December. 'Outlook in the Near East: For El Islam', *The Nineteenth Century and After*, LXXII, pp.1141-9; reprinted in *Littell's Living Age*, 18 January 1913, CCLXXVI, pp.131-7

10. 5 December. 'The Black Crusade', Part 5, *NA*, XII, p.103

11. 26 December. 'The Future of Islam', *NA*, XII, pp.175-6

12. 28 December. Unsigned review of *Travel Pictures* by Bhawani Singh and of *The Land that is Desolate* by Frederick Treves, *Athenaeum*, no. 4444, p.777

1913

1. *The Black Crusade* (reprint of items 4-7 and 10, 1913), The New Age Press, London

2. January. *Veiled Women*, Eveleigh Nash, London; Duffield and Co., New York

3. 9 January. 'Our Fellow Christians' (letter), *NA*, XII, p.238

4. 11 January. Unsigned review of *Eothen* by A.W. Kinglake, *Athenaeum*, no. 4446, p.39

5. 18 January. 'A Protest' (letter about massacres of Muslims in Macedonia), *The Times*

6. 8 February. Unsigned review of *Djelal, Histoire Turque* by Jean Marsol, *Athenaeum*, no. 4450, p.164

7. 8 February. Unsigned note on anonymous reviews, *Athenaeum*, no. 4450, p.164

8. 8 February. Unsigned review of *A Camera Crusade through the Holy Land* by Dwight L. ELmendorf, *Athenaeum*, no. 4450, p.168

9. 20 February. 'The Fate of the Mohammedans of Macedonia' (letter), *NA*, XII, pp.388-9

10. 22 February. Unsigned review of *La Vie Compliquée* by Fernand Nicolay, *Athenaeum*, no. 4452, p.221

11. 1 March. Unsigned review of *The Immoveable East* by Philip J. Baldensperger, *Athenaeum*, no. 4453, p.242

12. 15 May. 'Balkan Atrocities' (letter), *NA*. XIII, pp.68-9

13. 9 August. Unsigned review of *The Ottoman Empire1801-1913* by William Miller, *Athenaeum*, no. 4476, pp.129-30

14. 16 August. Unsigned review of *Fin de Turquie* by Claude Farrère, *Athenaeum*, no. 4477, pp.150-1

15. September. 'The Hope of Moslem Progress', *The Nineteenth Century and After*, LXXIV, pp.472-9

16. 11 September. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 1, *NA*, XIII, pp.566-7

17. 18 September. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 2, 'Stamboul and Pera', XIII, pp.594-5

18. 20 September. Unsigned review of *The Broken Halo* by Florence L... Barclay, *Athenaeum*, no. 4482, p.276

19. 25 September. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 3, 'House Hunting', *NA*, XIII, pp.629-30

20. 27 September. Unsigned review of *The Woman Flinches* by Mrs Fred Reynolds, *Athenaeum*, no. 4483, p.315

21. 2 October. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 4, 'Pinetree Kiosk', *NA*, XIII, pp.657-8

22. 9 October. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 5, 'The Neighbours', *NA*, XIII, pp.691-2

23. 16 October. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 6, 'Views of England', *NA*, XIII, pp.723-4

24. 23 October. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 7, 'A Garden-Party', *NA*, XIII, pp.753-5

25. 30 October. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 8, 'A Modern Khoja', *NA*, XIII, pp.788-9

26. 6 November. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 9, 'Ottoman Greeks', *NA*, XIV, pp.11-12

27. 8 November. Unsigned review of *The Banks of the Nile* by Ella Du Cane, *Athenaeum*, no. 4489, p.532

28. 13 November. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 10, 'The Woman Question', *NA*, XIV, pp.44-6

29. 20 November. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 11, 'Political Gossip', *NA*, XIV, pp.75-6

30. 21 November. 'The Eth*ic*s of Aristotle' (letter), *The Near East*, p.75

31. 27 November. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 12, 'A Conspirator', *NA*, XIV, pp.110-11

32. 27 November. 'A Plea for Civilisation' (letter), *NA*, XIV, p.124

33. 4 December. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 13, 'Eleventh of June', *NA*, XIV, pp.141-2

34. 11 December. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 14, 'Assassination a Ton*ic*', *NA*, XIV, pp.172-3

35. 11 December. 'England and Turkey' (Letter), *NA*, XIV, p.189

36. 18 December. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 15, 'The End and Cause of the Conspiracy', *NA*, XIV, pp.202-4

37. 19 December. 'The Eth*ic*s of Aristotle' (letter), *The Near East*, p.233

38. 25 December. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 16, 'The Army of the West', *NA*, XIV, pp.233-4

1914

1. 1 January. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 17, 'Ottoman vs. Cosmopolitan Education', *NA*, XIV, pp.266-8

2. 8 January. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 18, 'Checks on Progress', *NA*, XIV, pp.301-2

3. 15 January. 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', Part 19, 'Islam and Progress', *NA*, XIV, pp.333-4

4. 7 February. Unsigned review of *Black Ivory and White, or The Story of El Zubeir Pasha*, *Athenaeum*, no. 4502, p.195

5. 14 February. Unsigned review of *Egypt in Transition* by Sidney Low, *Athenaeum*, no. 4503, p.222

6. 26 February. 'Concerning Denshawai', *NA*, XIV, pp.519-20

7. March. *With the Turk in Wartime* (reprint of 'A Pilgrimage to Turkey During War Time', items 16-17, 19, 21-26, 28-29, 31, 33-34, 36; 38, 1913; 1-3, 1914), J.M. Dent, London

8. 12 March. 'Denshawai and After' (letter), *NA*, XIV, pp.603-4

9. 14 March. Unsigned review of *The Last English* by George Bertram, *Athenaeum*, no. 4507, p.177

10. 26 March. 'The Turkish Parties', *NA*, XIV, pp.668-9

11. 18 April. Unsigned review of *The New Tripoli* by Ethel Braun, *Athenaeum*, no. 4512, pp.548-9

12. 16 May. Unsigned review of *Turkish Memories* by Sidney Whitman, *Athenaeum*, no. 4516, pp.677-8

13. 16 May. Unsigned note on Arabic words, *Athenaeum*, no. 4516, p.689

14. 23 May. Unsigned review of *Vagabonds in Perigord* by H.H. Bashford, *Athenaeum*, no. 4517, p.689

15. 30 May. Unsigned review of *The Inner History of the Balkan War*, by Reginald Rankin, *Athenaeum*, no. 4518, p.713

16. 20 June. Unsigned review of *The Struggle for Scutari* by M. Edith Durham and *The Orient Express* by Arthur Moores, *Athenaeum*, no. 4521, p.849

17. 11 July. Unsigned review of *The Women of Egypt* by Elizabeth Cooper, *Athenaeum*, no. 4524, p.45

18. 15 August. Unsigned review of A *Child of the Orient* by Demetra Vaka, *Athenaeum*, no. 4529, p.193

19. 20 August. 'Teuton and Slav: a Word in Season', *NA*, XV, pp.366-7

20. 27 August. 'The Head of the Triple Entente', *NA*, XV, p.392

21. 29 August. Unsigned review of *Travel and Politics in Armenia* by Noel and Harold Buxton, *Athenaeum*, no. 4531, p.230

22. 3 September. 'Turkey and the European War', *NA*, XV, p.417

23. 10 September. 'Friends and Countrymen', *NA*, XV, pp.440-1

24. 17 September. 'Rustic War-notes' (letter), *NA*, XV, p.485

25. 24 September. 'Turkish Independence', Part 1, *NA*, XV, p.500

26. 1 October. 'Turkish Independence', Part 2, *NA*, XV, p.520

27. 8 October. 'Turkish Independence', Part 3, *NA*, XV, pp.543-4

28. 15 October. 'Turkish Independence', Part 4, *NA*, XV, pp.568-9

29. 15 October. 'Turkish Independence' (letter), *NA*, XV, pp.580-1

30. 22 October. 'Turkish Independence', Part 5, *NA*, XV, pp.592-3

31. 29 October. 'Egypt and the Foreign Office', *NA*, XV, p.616

32. 29 October. 'Turkey and Mr Pickthall' (letter), *NA*, XV, p.631

33. 5 November. 'The Arab Question', *NA*, XVI, p.9

34. 5 November. 'Turkish Independence' (letter), *NA*, XVI, p.29

35. 12 November. 'Turkish Independence', *NA*,)(VI, pp.34-5

36. 12 November. 'Turkish Independence', *NA*, XVI, pp.47-8

37. 19 November. 'What Next!' *NA*, XVI, pp.63-4

38. 26 November. 'Six Years', Part 1, *NA*, XVI, pp.90-1

39. 3 December. 'Six Years', Part 2, *NA*, XVI, p.119

40. 10 December. 'Six Years', Part 3, *NA*,XVI, pp.144-5

41. 17 December. 'Six Years', Part 4, *NA*, XVI, p.168

42. 24 December. 'Six Years', Part 5, *NA*, XVI, p.191

43. 31 December. 'Six years', Part 6, *NA*, XVI, pp.214-15

1915

1. 7 January. 'The Case of Egypt', *NA*, XVI, p.240

2. 14 January. 'Sultan of Egypt', *NA*, XVI, pp.272-3

3. 14 January. 'The Turkish Point of View' (letter), *NA*, XVI, pp.290-2

4. 21 January. 'Pan Islamism as a British Policy', *NA*, XVI, pp.304-5

5. 28 January. 'After the Caliphate', *NA*, XVI, pp.336-7

6. 4 February. 'The Russian Policy', *NA*, XVI, p.368

7. 11 February. 'National Honour and Personal Honour', *NA*, XVI, p.399

8. 13 February. Unsigned review of *A Pilgrim's Scrip* by R. Campbell Thompson, *Athenaeum*, no. 4555, p.136

9. 18 February. 'The Project of Partition', *NA*, XVI, p.424

10. 25 February. 'A Troublesome Neighbour', *NA*, XVI, p.449

11. 27 February. Unsigned review of *An Englishwoman in a Turkish Harem* by Grace Ellison, *Athenaeum*, no. 4557, p.184

12. 11 March. 'The Fate of Turkey', *NA*, XVI, p.503

13. 11 March. 'Foreign Affairs' (letter), *NA*, XVI, p.516

14. 18 March. 'A Friend of Progress' (letter), *NA*, XVI, pp. 546-8

15. 25 March. 'Nature and the Doctrinaire', *NA*, XVI, pp.559-60

16. 1 April. 'Commercialism and Politics' (letter), NA. XVI, pp.596-7

17. 1 May. Unsigned review of *The Record of Nicholas Freydon: An Autobiography*, *Athenaeum*, no. 4566, p.400

18. 13 May. ,Turkey and Egypt' (letter), *NA*, XVII, pp.45-6

19. June. *Tales from Five Chimneys*, Mills and Boon, London

20. 3 June. 'Oriental Local Government', *NA*, XVII, pp.103-4

21. 24 June. 'Foreign Affairs etc' (letter), *NA*, XVII, p.189

22. 8 July. 'Foreign Affairs' (letter), *NA*, XVII, pp.237-8

23. 14 October. 'Letters from Russia' (letter), *NA*, XVII, p.581

24. 21 October. 'In Defence of British Diplomacy', *NA*, XVII, pp.590-1

25. 28 October. 'On the Coaxing of Neutrals', *NA*, XVII, p.613

26. 4 November. "Defence of the Realm" in Turkey', *NA*, XVIII, pp.5-6

27. 11 November. 'Servia or Constantinople', *NA*, XVIII, p.33

28. 18 November. 'While Europe Fought', *NA*, XVIII, pp.56-7

29. 25 November. 'The Gospel of Hate', *NA*, XVIII, pp.80-1

30. 2 December. 'In Memory of British Statesmanship', *NA*, XVIII, pp.102-3

31. 9 December. 'The Survival of the Fittest', *NA*, XVIII, pp.127-8

32. 9 December. 'The Armenian Massacres' (letter), *NA*, XVIII, p.142

33. 16 December. 'Armenian Atrocities', *NA*, XVIII, pp.153-5

34. 23 December. 'England in the East', *NA*, XVIII, pp.176-7

35. 30 December, 'Egypt and the Canal', *NA*, XVIII, p.202

1916

1. 6 January. 'The Last Chance', *NA*, XVIII, pp.223-4
2. February. *The House of War*, Eveleigh Nash, London; Duffield and Co., New York
3. 3 February. 'Turkey and England' (letter), *NA*, XVIII, pp.333-4
4. 30 March. 'The Cloud in the Far East', *NA*, XVIII, pp.510-11
5. 30 April. 'Moslem Civilization after the War', *New York Times*
6. 4 May. 'Sir Mark Sykes and the Armenians', *NA*, XIX, p.6
7. 4 May. 'The Aga Khan' (letter), *NA*, XIX, pp.20-1
8. 6 July. 'Islam and Progress', Part 1, 'The Priesthood of the Human Mind', *NA*, XIX, pp.225-6
9. 13 July. 'Islam and Progress', Part 2, 'The Position of Women' and Part 3, 'Fatalism', *NA*, XIX, pp.250-1
10. 20 July. 'Islam and Progress', Part 4, 'The Command to Kill', *NA*, XIX, pp.272-5
11. 3 August. 'Islam and Progress', Part5, 'The Brotherhood of All Believers', *NA*, XIX, pp.323-4

1917

1. January. 'The Prophet's Gratitude', *IRMI*, V, pp.35-9

2. February and March. 'Address on the Prophet's Birthday', *IRMI*, V, pp.53-9
3. 1 February. 'Oriental Encounters', Part 1, 'Rashid the Fair', *NA*, XX, pp.329-30
4. 22 February. 'Oriental Encounters', Part 2, 'A Mountain Garrison', *NA*, XX, pp.400-1
5. 8 March. 'Oriental Encounters', Part 3, 'The Rhinoceros Whip', *NA*, XX, pp.448-9
6. 22 March. 'Oriental Encounters', Part 4, 'The Courteous Judge', *NA*, XX, pp.498-9
7. 12 April. 'Oriental Encounters', Part 5, 'Bastirma', *NA*, XX, pp.567-S
8. 26 April. 'Oriental Encounters', Part 6, 'The Sack which Clanked', *NA*, XX, pp.613-14
9. 31 May. 'Oriental Encounters', Part 7, 'Police Work', *NA*, XXI, pp.115-16
10. August. 'Islam and Progress', Part 1, *IRMI*, V, pp.337-52
11. 3 August. 'Zionists in Palestine' (letter), *The Near East*, p.266
12. September. *Knights of Araby*, W. Collins and Co., London
13. September. 'Islam and Progress', Part 2, IRMI, V, pp.368-84
14. 11 October. 'Oriental Encounters', Part 8, 'The Knight Errant', *NA*, XXI, pp.510-11
15. 1 November. 'Oriental Encounters', Part 9, 'The Hanging Dog', *NA*, XXII, pp.14-15
16. 22 November. 'Oriental Encounters', Part 10, 'The Last Dragoman', *NA*, XXII, p.134
17. December. 'The Holy Prophet as Example', IRMI, V, pp.497-500

1918

1. January. 'Islam and Modernism', *IRMI*, VI, pp.5-11
2. 17 January. 'Oriental Encounters', Part 11, 'The Unwalled Garden', *NA*, XXII, pp.234-5
3. 28 February. 'Oriental Encounters', Part 12, 'Nawadir', *NA*, XXII, pp.358-9
4. 18 April. 'Oriental Encounters', Part 13, 'The Fanatic', *NA*, XXII, pp.488-9
5. 16 May. 'Oriental Encounters', Part 14, 'Tragedy', *NA*, XXIII, pp.42-4
6. June. *Oriental Encounters* (reprint of items 3-9, 14-16, 1917; 2-5, 7, 9, 11-12, 1918), W. Collins and Co., London; republished by A.A. Knopf, New York, 1926; and in Travellers' Library, Heinemann, London, 1929
7. 13 June. 'Oriental Encounters', Part 15, 'Pride and Fall', *NA*, XXIII, pp.106-7
8. July. 'The Kingdom of God', *IRMI*, VI, pp.279-90
9. 4 July. 'Oriental Encounters', Part 16, 'The He-Goat', *NA*, XXIII, pp.156-7
10. August. 'Concerning Religious Truths', *IRMI*, VI, pp.328-37
11. 8 August. 'Oriental Encounters', Part 17, 'The Atheist', *NA*, XXIII, pp.238-9
12. 22 August. 'Oriental Encounters', Part 18, 'Tigers', *NA*, XXIII, pp.272-3
13. December. 'The Prophet's Character', *IRMI*, VI, pp.429-31

1919

1. January. 'The Qur'an', *IRMI*, VII, pp.9-16
2. February. 'Worship', *IRMI*, VII, pp.57-61
3. March. 'Tolerance', *IRMI*, VII, pp.89-96

4. 20 March. 'The Perils of a Propaganda', *NA,* XXIV, pp.321-2

5. 27 March. 'A Survival of Barbarism', *NA,* XXIV, pp.337-8

6. April. 'The Imperial Government', *IRMI,* VII, pp.123-7

7. April. 'War and Religion', Part 1, *IRMI,* VII, pp129-48

8. 3 April. 'The League of Nations and the British Empire', *NA,* XXIV, pp.353-4

9. 10 April. 'The Trouble in Egypt', *NA,* XXIV, pp.370-1

10. 17 April. 'A Page of History', *NA,* XXIV, pp.389-91

11. 17 April. 'A Correction' (letter), *NA,* XXIV, p.399

12. 24 April. 'The Act of God', *NA,* XXIV, pp.405-6

13. May. 'War and Religion', Part 2, *IRMI,* VII, pp.169-82

14. *War and Religion* (reprint of items 7 and 13), Basheer Muslim Library, Woking

15. 1 May. 'The Cause of Massacres', *NA,* XXV, pp.4-7

16. 1 May. 'The Literature of Turkey' (letter), *NA,* XXV, pp.14-15

17. 15 May. 'America and the Near East', *NA,* XXV, pp.36-7

18. 15 May. 'Asia and the Armenians' (letter), *NA,* XXV, pp.49-50

19. 29 May. 'Persia and England', *NA,* XXV, pp.76-7

20. 29 May. 'Asia and the Armenians' (letter), *NA,* XXV, p.91

21. June. 'Friday Sermons', Part 1, *IRMI,* VII, pp.225-40

22. 5 June. 'Our Own People', *NA,* XXV, pp.96-7

23. 12 June. 'Asia and the League of Nations', *NA,* XXV, pp.112-13

24. 19 June. 'For the Defence', *NA,* XXV, pp.128-9

25. 26 June. 'Routine or Policy', *NA*, XXV, pp.144-5

26. July-August. 'Friday Sermons', Part 2, *IRMI*, VII, pp.293-308

27. 3 July. 'The Case of Smyrna', *NA*, XXV, pp.160-1

28. 10 July. 'Between the Lines', *NA*, XXV, pp.176-7

29. 17 July. 'The Truth at Last', *NA*, XXV, pp.192-3

30. 24 July. 'The Lesson of Caucasus', *NA*, XXV, pp.209-b

31. 31 July. 'In Short', *NA*, XXV, pp.224-S

32. September. 'Friday Sermons', Part 3, *IRMI*, VII, pp.337-52

33. 11 September. 'Canards' (letter), *NA*, XXV, p.335

34. October. 'Friday Sermons', Part 4, *IRMI*, VII, pp.374-92

35. *Friday Sermons* (reprint of items 21, 26 and 32; and pp.378-92 of item 34), Basheer Muslim Library, Woking

36. December. *Sir Limpidus*, W. Collins and Co., London

37. December. 'The Position of Women in Islam', *IRMI*, VII, pp.439-45

38. December. 'In the Name of Allah', *IRMI*, VII, pp.453-4

39. December. 'What is Propaganda?', *IRMI*, VII, pp.460-3

1920

1. *Islam and Progress* (reprinted from Items 10 and 13, 1917), The Islamic Book Society, Azeez Manzil, Lahore

2. *Perangdalam tindjavan Islam dan Kristen* (translation of *War and Religion* into Indonesian), Al Ma'arif, Bandung (date uncertain)

3. January. 'Endurance and Sacrifice', *IRMI*, VIII, pp.13-18

4. February. 'A Sermon', *IRMI*, VIII, pp.43-7
5. 12 February. 'Candidus: An Old Translation' (letter), *NA*, XXVI, p.241
6. 25 March. 'Imperial Su*ic*ide' (letter), *NA*, XXVI, p.343
7. 'Sterne and Voltaire's *Candide*' (letter), *NA*, XXVI, p.391
8. 29 April. 'The Armenians' (letter), *NA*, XXVI, p.423
9. May. 'Syrian Independence', *Foreign Affairs*, I, pp.10-11
10. July. 'Massacres and the Turks: The Other Side', *Foreign Affairs*, Special Supplement, II, pp.xiv-xvi
11. October. 'The Religion of Abraham', *IRMI*, VIII, pp.370-5
12. November. 'Women's Rights in Islam', *IRMI*, VIII, pp.402-6
13. December. 'Fasting in Islam', *IRMI*, VIII, pp.454-61

1921

1. January. 'Conception of God in Islam', *IR*, IX, pp.11-21
2. March. *The Early Hours*, W. Collins and Co., London
3. 10 November. 'Present Situation in India', *Muslim Standard*, pp.4-5

1922

1. 19 January. 'England and Islam' (letter), *The Near East*, p.82
2. October. *As Others See Us*, W. Collins and Co., London

1923

1. November. 'The True Khilafat', *IR*, XI, pp.389-91

1924

1. September. 'The Quest', *Cornhill Magazine*, LVII, pp.366-82; reprinted in *The Best Short Stories of 1925: I: English*, edited by Edward J. O'Brien and John Cournos, Jonathan Cape, London, pp.168-87

2. December. 'Islamic Tolerance in India', *IR*, XII, pp.431-4

1925

1. February. 'England and Arabia, The Typical Case of Bahreyn', *Foreign Affairs*, VI, pp.177-8

2. April-May. 'The Essential Fact of Revelation', *IR*, XIII, pp.140-5

1926

1. *Glanz, Liebe und Tod des Fischers Saïd* (translation of *Saïd the Fisherman* into German by Paul Fohr), Albert Langen, Munich

2. June. 'The Student and the Tower', *Cornhill Magazine*, LX, pp.682-93

1927

1. January. 'Muslim Education', *IC*, I, pp.100-8

2. January. 'Islamic Culture', *IC*, I, pp.151-63

3. April. 'Islamic Culture: Causes of its Rise and Decline', *IC*, I, pp.259-318

4. *The Cultural Side of Islam* (reprint of items 2 and 3), Committee of Madras Lectures on Islam, Madras; republished as *Islamic Culture*, Ferozsons, Lahore, 1958; republished as *The Cultural Side of Islam*, Kitab Bharan, New Delhi, 1981

5. July. "Spiritualism" and Islam', *IC*, I, pp.488-97

1928

1. January. 'Shorter Notices' (review), *IC*, II, pp.158-61
2. April. 'The Kingdom of Bornu' (review), *IC*, II, pp.309-13
3. April. 'An Encydopedia of Muslim Authors' (review), *IC*, II, pp.313-15
4. April. 'A Voyage in Algeria' (review), *IC*, II, pp.315-19
5. July. 'The Advance of Urdu', *IC*, II, pp.464-71
6. July. 'Russia and Turkey' (review), *IC*, II, pp.471-5
7. July. 'For Iran' (review), *IC*, II, pp.475-6

1929

1. April. 'Agrarian Reforms in Turkistan' (review), *IC*, III, pp.309-15
2. April. 'Syrian Folk-lore' (review), *IC*, III, pp.316-19
3. July. 'The Occult in Revealed Religion' (review), *IC*, III, pp.474-81
4. July. 'Indian Music' (review), *IC*, III, pp.482-6
5. October. 'Higgins' "Apology"' (review), *IC*, III, pp.637-44
6. October. 'Mr Vakil at Ajanta' (review), *IC*, III, pp.644-6

1930

1. January. 'Mr Khuda Bukhsh's Sheaf of Gleanings from the German' (review), *IC*, IV, pp.161-8
2. January. 'The Legendary Aurangzeb' (review), *IC*, IV, pp.168-70
3. April. 'The Decorative Inscriptions of the Alhambra' (review), *IC*, IV, pp.329-30
4. July. 'The So-Called "Covenant of 'Umar" ' (review), *IC*, IV, pp.475-7

5. July. 'Mr Khuda Bukhsh's "Islamic Civilisation" 'Vol II (review), *IC*, IV, pp.477-9

6. July. 'New Cairo' (review), *IC*, IV, pp.480-5

7. October. 'The Bombay Mural Paintings' (review), *IC*, IV, pp.666-7

8. October. 'A Description of Islam in India' (review), *IC*, IV, pp.667-70

9. December. *The Meaning of the Glorious Koran*, A.A. Knopf, New York; republished in two volumes with Arabic text by Government Central Press, Hyderabad, 1938; republished as *The Glorious Koran* with Arabic text by Allen and Unwin, London, 1939; republished as *The Meaning of the Glorious Koran* by the New American Library, New York, 1953; republished with Arabic and Urdu translation by Fateh Muhammad Jallendhri, Kutubkhana Ishaat-ul-Islam, Delhi, 1970 (and reprinted by Taj Company, New Dehli, 1983); republished with Arabic text by Dar al Kitab, Beirut, 1971; republished with Arabic text, Tripoli, Libya, in about 1982; republished (English only) by Dar al Shoura, London, 1985. In 1980 a recording on 54 cassettes with certain alterations to the translation was issued under the patronage and at the expense of Sheikh Sultan bin Muhammad al Qasimi, Ruler of Sharjah, United Arab Emirates. The English text was read by Gai Eaton (Hasan Abdul Hakim)

1931

1. April. 'The Figure of the Prophet in Islamic Lore' (review), *IC*, V, pp.334-7

2. April. 'Four Hyderabad Writers of Good English Verse' (review), *IC*, V, pp.337-9

3. July. 'Arabs and Non-Arabs and the Question of Translating the Qur'an', *IC*, V, pp.422-33

4. July. 'Mahmud of Ghazna' (review), *IC*, V, pp.496-7

5. July. 'The Medley of Islam and Hinduism' (review), *IC*, V, pp.498-500

6. July. 'A Polemic of the Third Islamic Century' (review), *IC*, V, pp.500-2
7. July. 'The Glory of Aleppo' (review), *IC*, V, pp.503-4
8. July. 'An Aspect of Brahmacharya' (review), *IC*, V, pp.505-6
9. July. 'A Book of Folk-Tales' (review), *IC*, V, pp.506-8
10. July. 'A Hindu-Muslim Conversation in the Eleventh Century, AH' (review), *IC*, V, p.508
11. October. 'Sir Muhammad Iqbal's Lectures' (review), *IC*, V, pp. 677-83
12. October. 'A Concise World History of Islam' (review), *IC*, V, pp.683-4

1932

1. January. 'Westernising Persia' (review), *IC*, VI, pp.153-6
2. April. 'Old Hyderabad' (review), *IC*, VI, pp.319-25
3. April. 'New Turkey' (review), *IC*, VI, pp.325-7
4. July. 'The Damascus Chronicle of the Crusades' (review), *IC*, VI, pp.486-91
5. July. 'Sirdar Iqbal Mi Shah's Life of the Prophet' (review), *IC*, VI, pp.491-2
6. July. 'Education in India' (review), *IC*, VI, pp.492-3
7. July. 'The Tiger' (review), *IC*, VI, pp.497-8
8. July. 'Iraq-wa-Iran' (review), *IC*, VI, pp.498-500
9. October. 'Mr Vakil on Rock-Cut Temples' (review), *IC*, VI, pp.665-7
10. October. 'The New Education in Germany' (review), *IC*, VI, pp.667-9
11. October. 'Astrology as Religion' (review), *IC*, VI, pp.669-71

1933

1. January. 'Religion Universal and Eternal' (review), *IC*, VII, pp.160-7
2. January. 'The Quatrains of Hali' (review), *IC*, VII, pp.167-71
3. April. 'Professor Wensinck on Muslim Beliefs' (review), *IC*, VII, pp.335-8
4. April. 'Ghafiq's Book of Simples' (review), *IC*, VII, pp.338-41
5. April. 'The Art of the Mughals' (review), *IC*, VII, pp.341-3
6. April. 'Two Books on Sufism' (review), *IC*, VII, pp.347-51
7. July. 'A Pageant of Old Persia' (review), *IC*, VII, pp.506-10
8. July. 'The Faith of the Shi'a' (review), *IC*, VII, pp.511-14
9. July. 'Al-Andalus' (review), *IC*, VII, pp.514-16
10. October. 'Islam*ic* Schools of Thought' (review), *IC*, VII, pp.682-5
11. October. 'Abu Nawas' (review), *IC*, VII, pp.686-9

1934

1. January. 'The Reformation of Islam' (review), *IC*, VIII, pp.150-3
2. January. 'The Qur'an and the Prophet' (review), *IC*, VIII, pp.156-63
3. January. 'An Arab*ic* History of the Seljuqids' (review), *IC*, VIII, pp.163-5
4. January. 'Archaeology in Hyderabad' (review), *IC*, VIII, pp.165-8
5. January. 'The Toghluq-Nameh of Amir Khosru' (review), *IC*, VIII, pp.168-9
6. April. 'The Arab*ic* Encyclopaedia of Islam' (review), *IC*, VIII, pp.322-4
7. April. 'The Assamese Chron*ic*le' (review), *IC*, VIII, pp.324-8
8. April. 'The Ismaili Law of Wills' (review), *IC*, VIII, pp.328-9

9. April. 'Recent Urdu Publications' (review), *IC*, VIII, pp.329-37

10. July. 'The Isma'ili Classics' (review), *IC*, VIII, pp.494-7

11. July. 'Pictorial Representations of the Ka'bah' (review), *IC*, VIII, pp.504-6

12. July. 'The Claims of Islam' (review), *IC*, VIII, pp.506-7

13. October. 'The Need of the Sunnah' (review), *IC*, VIII, pp.665-8

14. October. 'Al-Andalus Vol II Part I' (review), *IC*, VIII, pp.668-70

15. October. 'An English Lady's Pilgrimage' (review), *IC*, VIII, pp.674-9

16. October. 'The Phonetics of Eastern Turkish' (review), *IC*, VIII, pp.679-81

1935

1. January. 'Kitabu'l-Awraq' (review), *IC*, IX, pp.172-4

2. January. "The Prophet of the Desert" (review), *IC*, IX, pp.174-6

3. January. 'Law and Justice in Modern India' (review), *IC*, IX, pp.176-9

4. January. 'The Pedigree of the Fatimids' (review), *IC*, IX, 179-81

5. January. 'The Arab Question' (review), *IC*, IX, pp.182-3

6. January. 'Kabul' (review), *IC*, IX, pp.183-4

7. January. 'Mr Probsthain's Oriental Catalogue' (review), *IC*, IX, pp.184-S

8. April. 'The Early Years of Islam' (review), *IC*, IX, pp.368-70

9. April. 'Islam and Civilisation' (review), *IC*, IX, p.370

10. April. 'Mubtala' (review), *IC*, IX, p.371

11. April. 'A Turkish Woman's Love Story' (review), *IC*, IX, pp.372-4

12. July. 'Mr Yusuf Mi's Translation of the Qur'an' (review), *IC*, IX, p.519-21

13. July. 'An Old Turk Reformer' (review), *IC*, IX, pp.527-9
14. July. 'Arab*ic* and Russian Poetry' (review), *IC*, IX, pp.329-31
15. October. 'The End of a Legend' (review), *IC*. IX, pp.665-7
16. October. 'Arti*fic*ial Nation-Building' (review), *IC*, IX, pp.667-70
17. October. 'The Successors of Sher Shah' (review), *IC*, IX, pp.670-1
18. October. 'The "Esoteric" Doctrine' (review), *IC*, IX, pp.671-3
19. October. 'A Notable Arab*ic Publication*' (review), *IC*, IX, pp.673-4
20. October. 'A Pahlavi-Persian Grammar' (review), *IC*, IX, pp.674-S

1936

1. January. 'Kitabu'l-Awraq Vol II' (review), *IC*, X, pp.153-8
2. January. 'The Doctrine of the Sufis' (review), *IC*, X, pp.148-62
3. January. 'Hyderabad Reforms' (review), *IC*, X, pp.162-3
4. January. 'The Princes of Arcot' (review), *IC*, X, pp.163-S
5. April. 'P*ic*torial Hyderabad' (review), *IC*, X, pp.335-6
6. April. 'The Muslims in the Modern World', *Journal of the Central Asian Society*, XXII, pp.221-35 and 294
7. April. 'Hyderabad the Heart of India', *Geographical Magazine*, no. 6, pp.400-20
8. July. 'The Turkish Experiment' (review), *IC*, X, pp.486-92
9. July. 'A Descriptive Catalogue of the Arab*ic*, Persian and Urdu Manuscripts in the Library of the University of Bombay' (review), *IC*, X, pp.498-9
10. July. 'Al-Qalqashandi on India' (review), *IC*, X, pp.503-4

11. October. 'The Perfect Policy' (review), *IC*, X, pp.659-62

12. October. 'Alamgir the Great' (review), *IC*, X, pp.662-6

13. October. 'The Story of India' (review), *IC*, X, pp.666-8

1937

1. January. 'The Two Voices' (review), *IC*, XI, pp.150-4

2. July. 'Letters from Turkey', *IC*, XI, pp.419-32

1948

Saïd Il Pescatore (translation of *Said the Fisherman* into Italian by O. Nemi), Longanesi, Milan

1958

1. *Kur'âni Kerim ve Hazreti Muhammad* (translation of the introduction of *The Meaning of the Glorious Koran* into Turkish by Şinasi Siber), in the series of the Religious Affairs Directorate, printed by Ayyildiz Matbaasi, Ankara

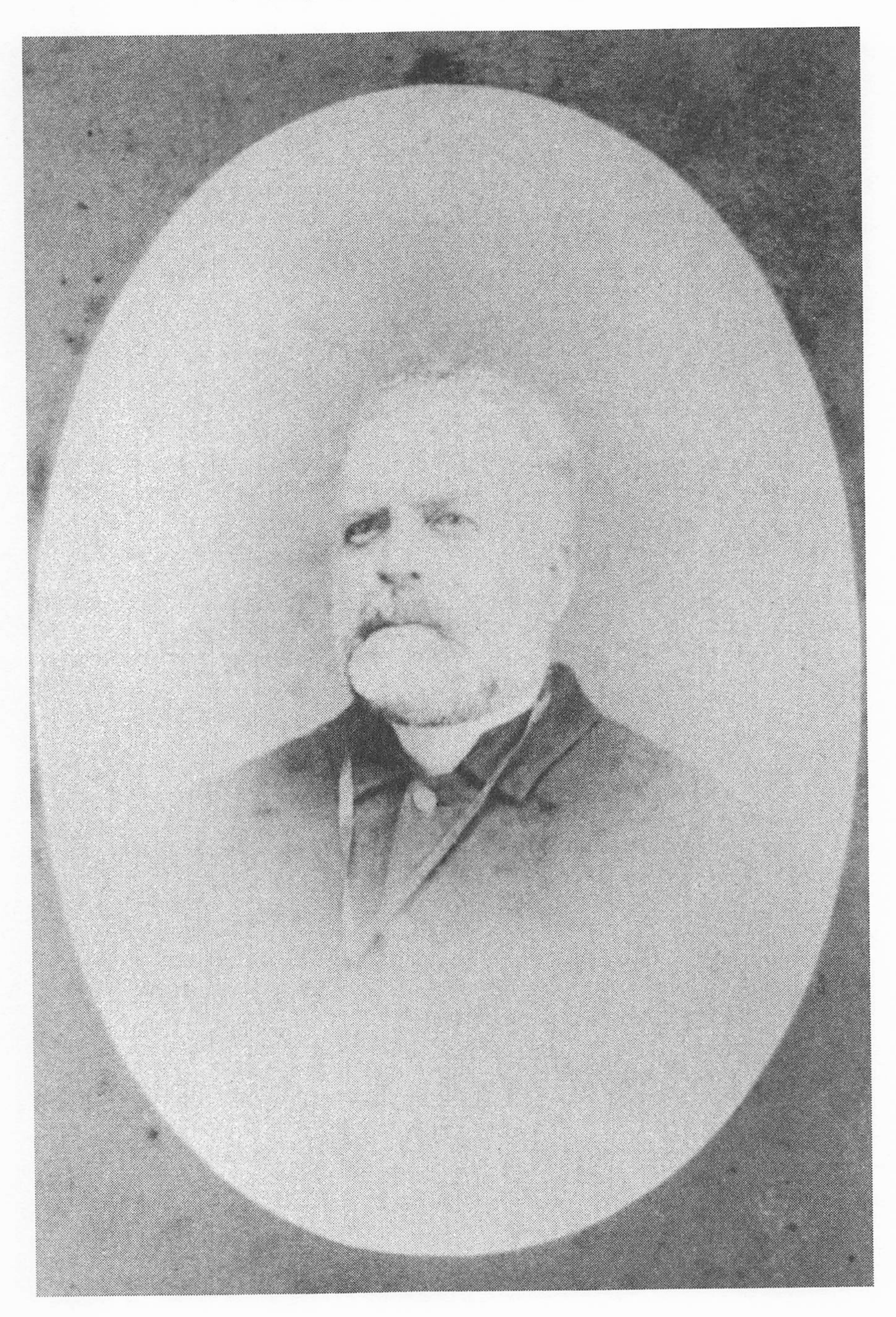
2. *Kur'âni Kerimin Manalari* (translation of part of *The Meaning of the Glorious Koran* into Turkish by M. Şevki May and Ali Kâtiboğlu), Hadise Yayinevi, Istanbul

1964

1. *Al Corão* (translation of *The Meaning of the Glorious Koran* into Portuguese), Bento de Castro, Lourenço Marques


ملحق الصور

القس تشارلز غريسون بكثال، والد مرمدوك بكثال



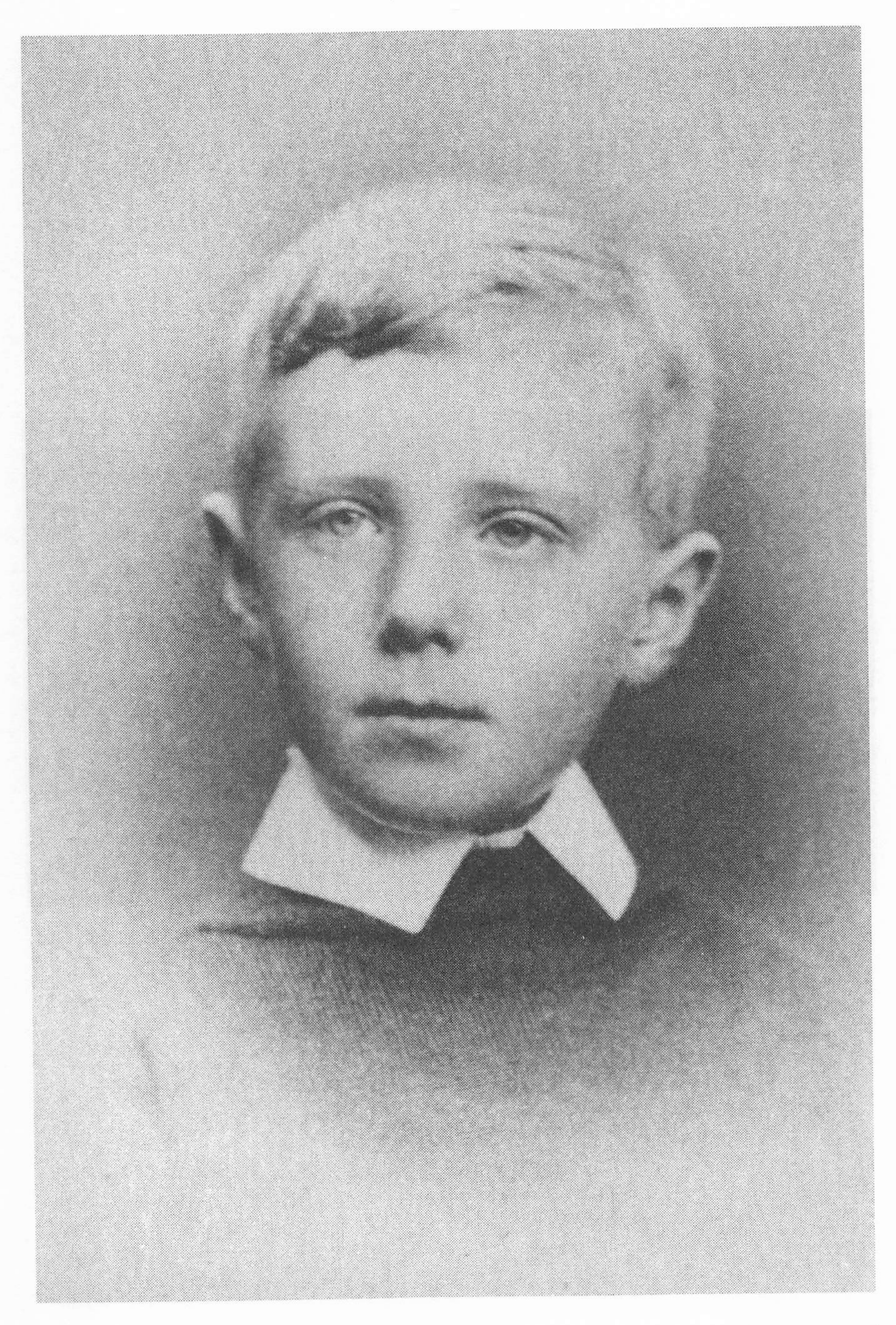
(مجموعة صور العائلة التي تعود ملكيتها للراحلة السيدة دوروثي ردكن، وتنشر بإذن الدكتور روبرت ريسي)

السيدة ماري بكثال، والدة مرمدوك بكثال



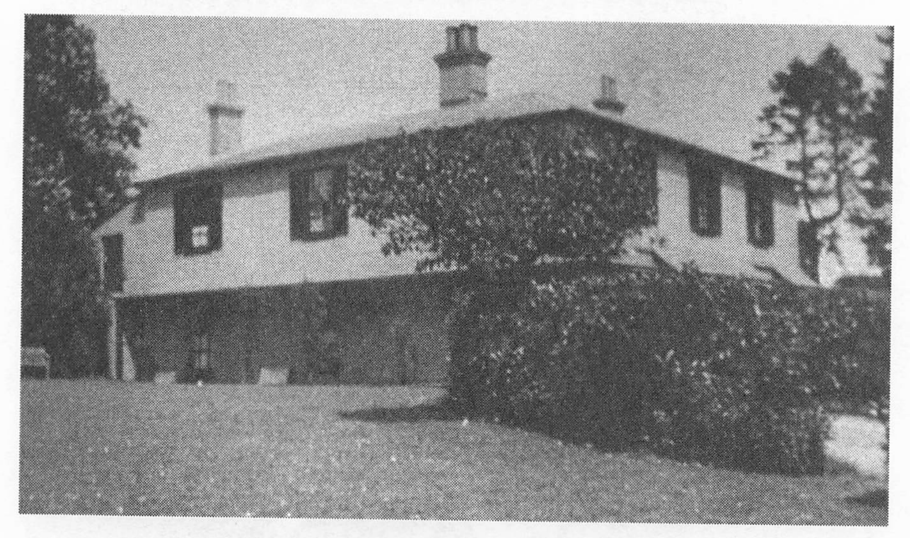
(مجموعة صور العائلة التي تعود ملكيتها للراحلة السيدة دوروثي ردكن، وتنشر بإذن الدكتور روبرت ريسي)

مرمدوك بكثال في طفولته



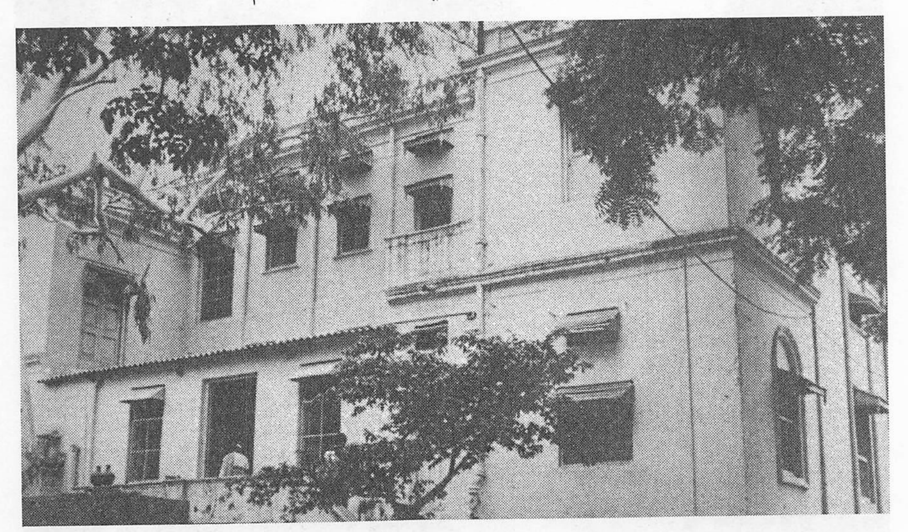
(مجموعة صور العائلة التي تعود ملكيتها للراحلة السيدة دوروثي ردكن، وتنشر بإذن الدكتور روبرت ريسي)

منزل قسيس أبرشية تشيلزفورد حوالي عام ١٩٣٠



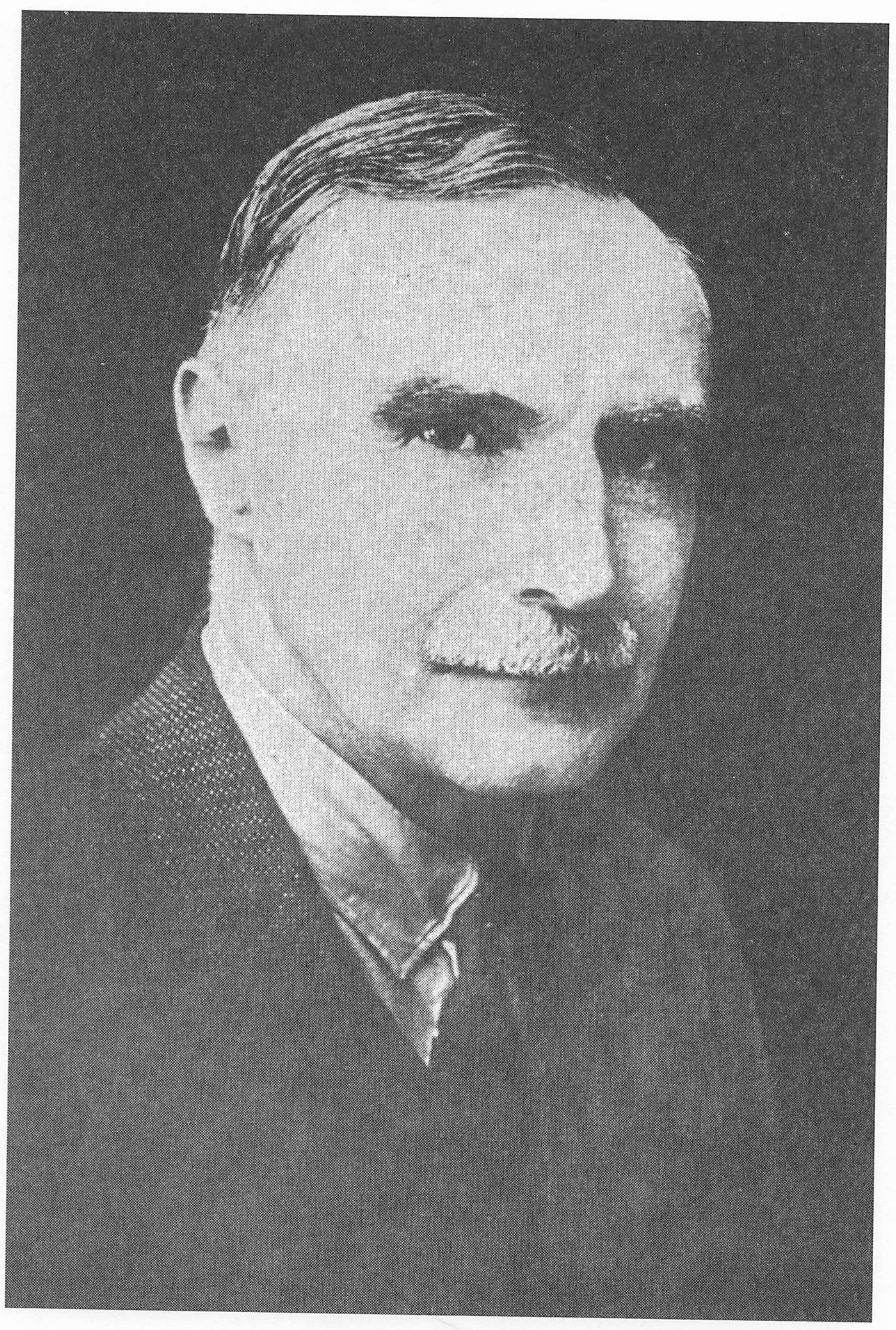
(تنشر بإذن السيدة ماري سنيل)

ثانوية تشادراغات للبنين في حيدر آباد، عام ١٩٨٥



(تصوير فوتو كابيتال، حيدر آباد)

مرمدوك بكثال في أواخر أيامه



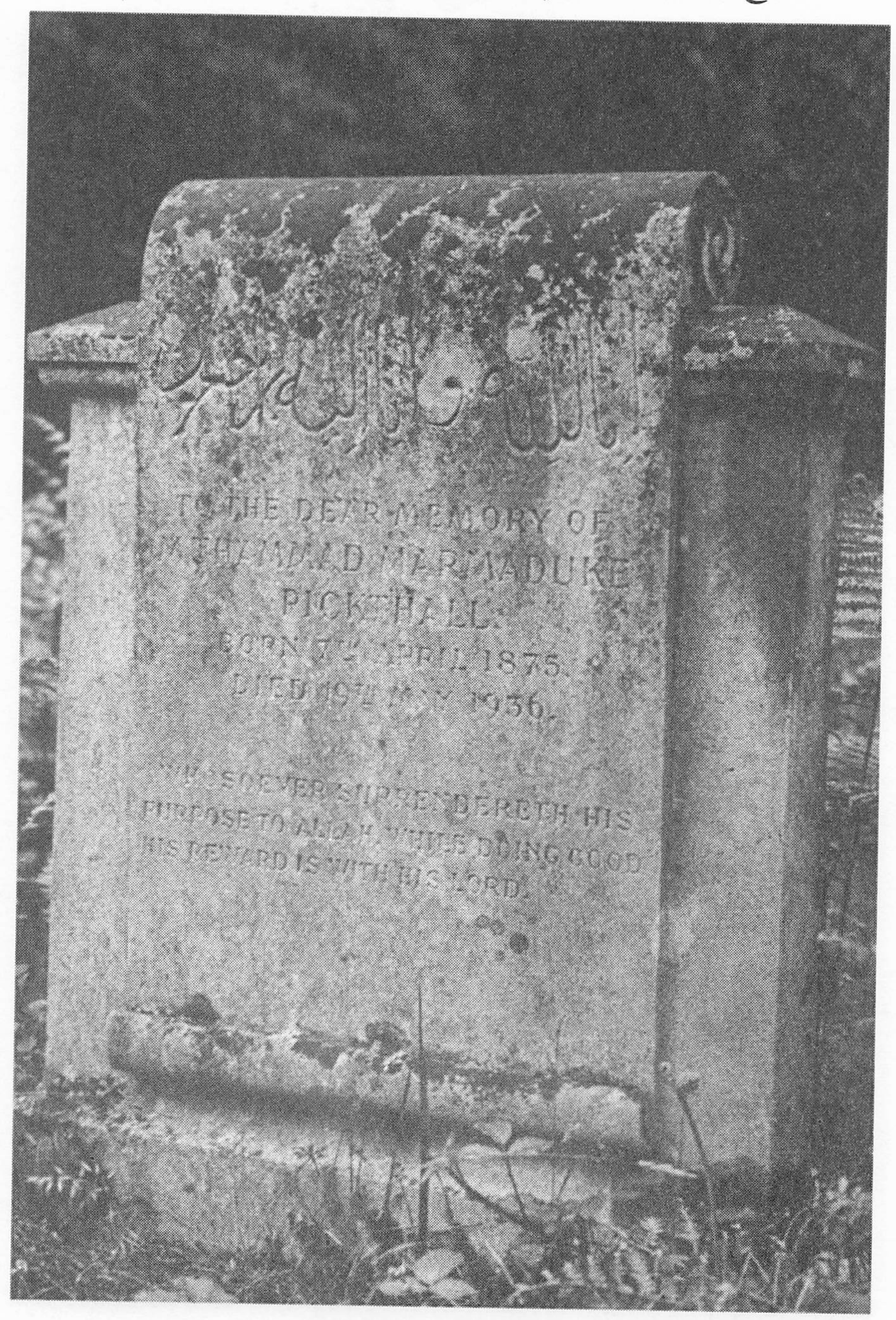
(من مجموعة صور مجلة الثقافة الإسلامية، ١٩٣٦)

غلاف رواية فرسان الجزيرة العربية



(منشورات دار دبليو. كولنز وشركاه، عام ١٩١٧- تصوير ستوديو فيديتي، تونس)

ضريح مرمدوك بكثال في مقبرة بروكوود، مقاطعة سري، ١٩٨٥



(تصوير مايك سمرز، فوتو سيرفس، ووكنغ)

منتدى العلاقات العربية والدولية